
مكتبة مصر
محمد عبد الحليم عبد الله
سكون العاصفة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سكون العاصفة



محمد عبد الحليم عبد الله

سكون العاصفة

قصة طويلة

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



محمود ...

يا صديقى وشقيقى وأخى الشاب ...

لم تستطع آلام سبع سنوات من المرض أن تطفىء الابتسامة المطمئنة على شفتيك ، ولا أن تخمد روحك .. إلى أن قهر الموت الابتسامة ، وبقيت الروح ...

يوم نظرت نحو نافذتك عند عودتى لوداعك ، وكانت الأشجار تشير نحو دارنا بأغصان عليها براعم فى سبيلها إلى الظهور .

إليك يا أخى قصة قد قرأت بعضها ...

« أخوك »


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— ١ —

بعض لحظات الزمن ، ذات عمق وعرض وطول ، ولو بدت لنا صغيرة ... ما بالنا إذن بحساب ليلة بأكملها ؟ .. ليلة تحددها عقارب الساعة إذا قيست بالأجهزة ، أو شفق الغروب ونور الفجر إذا قيست بمظاهر الطبيعة ، أما إذا حددناها بالأحداث التى تجرى فيها فلا يمكن أن تسمى (ليلة) .

وكما ننتبه انتباها قهريا خلال الليل ، أو النهار على دقات ساعة فنعرف الزمن ، ثم نغرق فى بحره — فإننا قد ننتبه ذات يوم أو ليلة على دقات ساعة غير مسموعة ، فتكون النتيجة أن نشعر فجأة — ومثلا — أن الدار التى نسكنها قد بدا عليها القدم ، أو أن أحد أبنائنا قد نما عوده ، وكأنما قد تم كل هذا بفعل ساحر وليس هبة من الدقائق والثوانى التى تؤلف الأيام والسنين ، وليس معنى انتفاضة المفاجأة التى تعترينا أن الزمن يمشى بخطا تختلف طولا وقصرا . لا ، أبدا ..

والذى جرى فى هذه الليلة للسيدة زينب وزوجها عزت لم يكن إلا من هذا القبيل .

* * *

كانوا فى أواخر شهر مارس ، ورائحة حياة جديدة — كأنها مولودة لساعتها — تملأ القلوب والجو ، وتلمع على أوراق الشجر تحت أبصارهم فى شارع (الكورنيش) بالإسكندرية . وبوجه أخص ، كانت الحياة تلمع على سور نباتى زينته أزهار نارية ، تراه العين من عرض الشرفة المطلة على الشارع ، وعلى هذا السور وقفت عين الزوجة تتأمل البناء الحجرى الجاثر على الطريق ، والأشجار القائمة من خلفه ، وجزءا صغيرا من مبنى

القصر سمح برؤيته عرض الشرفة .

وكان البحر يرغى ببطء ويعيد ما يقول ، والزوج جالس على كرسى ليستريح ، وأفكاره غير متشابهة تمر برأسه الهادىء ... قليلة كقلة السائرين على البحر فى ذلك الوقت ، والساعة قبيل الظهر ، ومتاع السفر لا يزال مكدسا فى الحجرة ، لكن فرحة استمتاع وذكرى كانت تملأ قلب الزوجين .

لم يكن الوقت صيفا ، ولم تكن هناك ضرورة لحضور الزوجة إلى الإسكندرية ، كان المفروض أن عزت سيأتى وحده ليكون فى استقبال أحد كبار الموظفين فى الوزارة ، ممن تربطهم به صلة عمل ومجاملة وربما حب ، موظف عائد من أوربا على ظهر إحدى البواخر ، وكان هناك ليعرض نفسه على الأطباء ، ولما أعلنت عودته تسابق الموظفون فى الإعلان عن الفرحة والترحيب ، واختلفت الطرق ، وكان من الضرورى أن يكون عزت أفندى بين المستقبلين . فلما أعلن عن رغبته فى السفر مساء اليوم السابق أبدت زوجته رغبة فى أن تكون معه ، إن أختها هناك وقد طال المدى الذى فصل بينهما حتى أحست نحوها بالتشوق ، فلماذا لا ترافقه ؟

وكانت تحس حرجا كلما طلبت شيئا ، كأنها لا تحب أن تكون ثقيلة ، وتضرج وجهها بالخجل كأنها تطلب شيئا نادرا ، ولمعت على شفتيها الرقيقتين ابتسامة لا تزال كابتسامة العذارى تولد إذا وقعت فى ربكة ، وليست عن قلة تجربة ولكن عن عمق طهر وصفاء نفس ... وحين تولد هذه البسمة كان الزوج يعلن الموافقة على الطلبات ، ثم يلف ذراعا واحدة حول كتفيها ، ويميل نحوها ليحملق فى عينيها الطيبتين .

وعندما نزلا فى المحطة ركبا سيارة أجرة ، وخطر لهما فى الطريق أن

ينزلا فى الفندق الذى قضيا فيه شهر العسل ، لكن لماذا خطر هذا على بالهما ؟

ربما لأن روائح الصيف الممزوجة بدفء الربيع ذكرتهما بزفافهما فى شهر إبريل ، وبالأيام التى قضياها على الشاطىء ، حين كانا يلهوان بالرمل والصدف ، والشواطىء الخالية من الناس ، وبأشرعة مراكب الصيد البيضاء الماثلة عند الأفق ...

وفجأة هتف الزوج ، وهو جالس على كرسيه فى شرفة الفندق ، بعد تصفيقة صغيرة بكفيه :

ــ من يصدق ... من يصدق ... أن تسعة عشر عاما قد مرت على هذه الذكريات ؟ .

وكانت الزوجة عند عرض الشرفة لا تزال تتأمل الخضرة الزاحفة على المبنى الحجرى ؟ وذوائب بعض أشجار ــ لعلها من السرو ــ تذهب مطاوعة لنسيم الشمال .

ولما استدارت نحوه ولدت على شفتيها ابتسامة العذارى ، لأنها فهمت ما يقول :

ــ التسعة عشر عاما التى مرت على زواجنا ؟ .

فأجاب ضاحكا وقد عقد ذراعيه حول ركبتيه :

ــ وهل فى التاريخ تسعة عشر عاما تساويها ؟ .. إننى حين أقول فى العام القادم : « العشرين عاما » فإننى لن أقصد شيئا سواها أيضا ... آه .. يا لها من ثروة ؟ ..

فقالت ضاحكة :

ــ مجوهرات ؟ .

ــ أغلى وأكبر ، بناء بنيناه بالاتفاق والاختلاف والاجتماع والافتراق ،

ثم شاب وفتاة .. نعم ، من الممكن أن يحفظ المرء تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة ، لكن تاريخ سنة .. تاريخ شهر ... وحتى تاريخ (ليلة) قد يكون هو والذى حفظه شيئا واحدا ، كأنت واسمك ، وأنا ولون بشرتى ...

ـــ لو أن أحدا من الناس سمعنا نتكلم هكذا ، ألا يظننا عشاقا ؟ . لكن ... هل تستطيع أن تتذكر : أين تقع الحجرة التى قضينا فيها شهر العسل فى هذا الفندق ؟

فاتجه نحو باب الغرفة وأخذ يشرح :

ـــ عندما تخرجين من هذا الباب ، وتتجهين نحو اليسار سيفضى بك الممر الطويل ذو المصابيح المتباعدة إلى ردهة ، على يسارها أيضا تلك المرآة الكبيرة التى كأنها حائط ، وبانحرافك نحو المرآة تجدين ردهة أصغر يصب فيها ممر ، تفتح فيه أبواب حجرات لا تزيد على خمس ، وفى آخرها الحمام . وهذه الحجرات بينها حجرة تحمل رقم سبعة ، وتطل على حديقة خلفية ... و ...

ـــ تذكرت ...

وهزت رأسها .

ثم أسبلت جفنيها كأنها لا تريد أن تتدخل المرئيات بينها وبين ما تتذكر حتى لا تمحو شيئا ، وسادت فترة صمت حين جلست بجواره على كرسى آخر ، ومالت نحو إطار الشرفة لتطل على الشارع ، أما هو ، فقد كان يدق برجله على الأرض فى تناسق ينبىء أن تدفق الأفكار بطىء ومريح ، وكفاه معقودتان حول إحدى ركبتيه ، ورجل موضوعة على الأخرى ، وعليه (روب) من الصوف ذو لون واحد يميل إلى لون الطوب المحروق . وكان بريق عينيه أقوى شىء فيه ، حادا معبرا ، وفوق الأذنين شعر فضى يميل إلى النعومة ، أما فمه فقد كان جميل الأسنان محكم

إغلاق الشفتين ، وصوته مائل إلى الهدوء حتى إذا ناجى تحول إلى همس .

أما الزوجة فكانت امرأة شرقية ، من اللاتى يدخرن للزوج والأولاد كل ثمرات النفوس ، ويقسمن مملكتهن بما فيها من روح وجسم بين الزوج والأولاد قسمة لا جور فيها ، ولا يغفلن عن أطراف مملكتهن ، ولا يسمحن لأحد أن يتسلل عبر حدودها . ودعنا من لحظات الضعف ، ومن المغريات الأخرى .. ولعل لياليهما ستكون حافلة بمثل هذا الحديث .

ـــ لو أن هذه الحجرة كانت خالية من النزلاء من هذه الليلة ... لأحسست أن سعادتى لا توصف ! ..

وعندما هتف الزوج بهذه العبارة ، نظرت إليه بطرف عينها ، وكل شيء فيها يتألق ، كأنما تنبه ذكريات الفرح فى أجسامنا مواضع لم يعرفها الطب حتى الآن . مثل مبتكر آلة موسيقية يعرف مفاتيحها وحده ، ولا أحد سواه .

بدت كأن تجربة الأمومة لم تمسها قط ، وهى الآن فى الأربعين ، هل كانت نفسها محتاجة إلى بلل من النهر الذى وقفا على شطه اليوم ؟ وكان يجب أن يرحلا إليه ؟

ماذا إذن يحدث لنا لو عدنا حقيقة إلى نقطة البدء فى ميلادنا ، أو زواجنا ، أو وظائفنا ، أو أى عمل من الأعمال ؟ .. » .

وعندما سأل الزوج نفسه هذا السؤال . واتاه الجواب سريعا :

ـــ ماذا يحدث ؟ ...

ثم هز كتفيه فى استخفاف ... إن إحساسنا بالزمن عن طريق الذكرى ، تخالطه مشاعر مولودة من جديد ، نعم ... ومن المحال أن

تتوفر هذه المشاعر إذا عدنا فاستأنفنا حياتنا عن طريق الولادة ... إنهما مختلفتان تماما . مختلفتان تماما .

وارتفع صوته بالجملة الأخيرة ، فأفاقت الزوجة من أحلامها وردت عليه :

ـــ نعم مختلفان تماما .. هل تقصد الجناحين فى هذا الفندق ؟ .. إن الجناح الذى نزلنا فيه قديما لم يكن مطلا على الشارع .. وكان ذلك من شدة الزحام . لكن منظر الحديقة الخلفية أتاح لنا متعا لا تحصى . هل تذكر شجرة الرمان الوحيدة التى كانت تحت شباكنا ؟ كان فيها أزهار شديدة الحمرة كأنها النار ، وكان فيها ثمر ، وقد أبديت إعجابك بها يومئذ ...

وتذكر الزوج أغصانها والأرض المسقية تحتها ، وثمارا كأنها صدور العذارى ، ثم أعوادا من الزنبق على شط جدول بين الحشائش ، ونخلة لم يستطع العروسان أن يعرفا من أى نوع هى ...

ـــ ألست سامعا يا عزت ؟ ... إن باب غرفتنا يدق ... قم أنت .

ومن فتحة الباب ظهر وجه نوبى لأحد الخدم يقول للسيد وكأنه يزف بشرى :

ـــ حضرتكم طلبتم نمرة سبعة ؟

ـــ نعم .. نعم .. نعم ..

ـــ تحت أمركم . فقد سافر من كانوا فيها .

ودخل يحمل الحقائب ، فنظرت زينب بعينين متسائلتين فى الوقت الذى خطا فيه الزوج نحو الشرفة ، وفيه أيضا خرج الخادم بأول حقيبة . عندئذ مال عليها وهى جالسة وهمس فى أذنها يقول فى دعابة :

ـــ سنستأنف رحلة شهر العسل ؟ هيا بنا نعيد الزمان .

* * *

ولما ألقيا نظرة على الحديقة كانت شجرة الرمان غائبة . وبدا السور الذى يحدد انتهاء الأرض المزروعة منخوبا من أسفل يطالب الترميم من فعل ماء الرى ، وبعض أشجار من الموالح عليها بقايا ثمار ، لكن الأرض المسقية حملت إلى أنفهما روائح عرفاها . والنافذة الضيقة ، أو لعلها سمنة الجسمين جعلتهما متلاصقين وهما واقفان .

وفى داخل الحجرة أشياء تغيرت ، وهى بطبيعة الحال من الأثاث . أما الباب فقد ظل محتفظا بمزلاجه الذى أوصد عليهما فى الليلة الأولى ، ولون الحيطان وردى فاتح كما كان . وجلس الزوجان على حافة الفراش يظللهما صمت من نوع الذى يتسلل إلى نفوسنا إذا دخلنا معبدا خاليا من الناس .

وبدفع هذه القوة التى احتفظ بها المكان ـــ على مدى السنين ـــ أخذتهما ربكة اللحظات الأولى ، التى تعترى العروسين . فقام الزوج يلف فى الغرفة ويداه فى جيب (الروب) ورأسه إلى أعلى ، كأنه يفتش عن مسمار دقه فى السقف ، ثم صفر ، ثم غنى بصوت غير جميل . وكانت هزات جسمه وحركات رأسه ونبرات صوته تحمل معنى السخرية التى يخالطها العجب ، وكأنه يقول : « تسعة عشر عاما ؟ .. » . ولما ألقى نظرة على الجنينة عاد فنظر إلى وجه زينب .. وكان شىء من الخمول الذى يشبه النوم يخيم على ملامحها ، ومن خلاله لمعت بسمة العذراء ، عندما رأته يقترب منها ، فجلس بجوارها على حافة الفراش مرة أخرى ، ولف ذراعا واحدة حول كتفيها ، ولما حملق فى عينيها رآهما منطبقتين على دموع ، فضمها وكأنه يخاف أن تذهب ... لكنها قالت له بصوت شرخه البكاء :

ـــ إنى لا أحتمل ... بعد وهلة الفرحة الأولى شعرت بشىء يقبض

قلبى .. آه .. لماذا عملنا هذا ؟ ..

وألقت رأسها على كتفه ، وعاد الصمت يلف المكان ، واهتز سعف النخلة أمامهما فى تراخ عذب ، وأحس الرجل أن الصمت فى هذه اللحظة مريح ، وأنه مدخل طيب سيفضى إلى النوم. لكنه تذكر موعد الباخرة .. ولا بد من الطعام والذهاب إلى الميناء ، فهز زوجته كأنه يوقظها ، فرأى عينيها لا تزالان نديتين ، لكن نفسها قد هدأت بلا شك .

فجلجلت ضحكته معلنا أنه لا بد من الأكل ثم .. الحركة ..

وقبيل غروب الشمس كانت الباخرة تدخل الميناء ، وعلى الرصيف قلوب وعيون تفتش عن حبيب ، والمنظر فوضى ، لكن لحظات اللقاء لا يمكن أن تكون إلا كذلك ..

ولما نزل المسافرون عانقه القريبون منه فى المنزلة وسلم عليه بانحناء من يتبعونهم فى الدرجة ، أما الباقون فقد أعربوا عن شوقهم وإخلاصهم بوسائل شتى .

* * *

وبعد هبوط المساء كانت المدينة أشبه بالزهرة المغسولة ، نشطت رياح الشمال ، وهاج البحر قليلا ، ومشت فى الليل رطوبة تستلزم الملابس الثقيلة ، وخرج الزوجان ليزورا السيدة اعتدال أخت الزوجة فى منزل زوجها فى الإبراهيمية فى (فيللا) لم يغيراها منذ سكناها .

وبعض الناس يؤمنون بالسعد والنحس بالنسبة للمساكن ، لكن أزمة الحرب الأخيرة جعلتهما يقيمان فيها مضطرين .

وتعانق الرجلان فى ناحية ، والمرأتان فى ناحية أخرى عند مدخل المسكن ، وكان للمفاجأة أثر طيب فى الموقف ، وبدا الأستاذ محسن بأنفه التركى المعقوف ، وأذنيه الكبيرتين ، وقامته الضئيلة ، بدا كبير السن

أكثر من الحقيقة . وكانت السيدة اعتدال في نفس الوضع ، تحت عينيها قوسان في لون البنفسج ، وفي نظرتها عدم الرضا ، بل وخوف مما هو آت ، وكانت في (روب) حريري زاهي اللون وشعرها المصبوغ مسرح باعتناء ، مما جعل عزت يتذكر أنها تقوم ـــ دائما وباستمرار ـــ بدور الزهرة التي لا تحاول فقط أن تجتذب النحلة ، بل وتجعل لها من أوراقها فراشا .

وكان المنزل على صغره جميلا أنيقا متجدد الأثاث . وفي موازاة النافذة التي جلس تجاهها عزت ، بدت قمة مصابيح شارع الإبراهيمية بزجاجه المصنفر ونوره الزاهي على مقربة منه أغصان إحدى أشجار لا تظهر للعين . كل ذلك جعل الرجل يتنهد بإشفاق على الأشياء التي حشرت نفسها كأنها رموز ، لأن الأستاذ محسن ، والسيدة اعتدال زوجان لا ذرية لهما ... شجرة بلا أثمار ، والبيت مسكن بلا مصباح ... (فتنهد) .

لكنهما على الرغم من كل هذا يظهران بمظهر السعداء ، ويسخران من موقفهما كما يسخر الأعرج من رجله التي قطعت ، ولذلك لم يستطرد الضيفان في الحديث عندما سئلا عن الأنجال ، وقامت اعتدال ذات الخمسة والأربعين عاما تتبختر لتحضر المرطبات ، وجلس محسن بك يدخن في هدوء أفخر أنواع السجاير ، ويتحرك بتكلف في حدود (بروتوكوله) .

وتناولوا عشاء خفيفا ، وأشرفت على المائدة خادمة فتاة مليحة يعاونها زنجي صغير كأنه دمية . كان هو مثار المرح والتفكه حين يغرق الأستاذ محسن في نوبة طويلة من صمته المتفلسف .

وعقب انتهاء السهرة وخروج الضيفين .. كان هناك مطر قد غسل الأرض وانتهى ، ونظرت عيونهما إلى السماء وذراعاهما مشتبكتان فرأيا النجوم تومض في جلال ، وامتلأ صدراهما بالهواء المنعش ، ووقعت

أبصارهما على الشجر اللامع تحت ضوء الليل .

وقررا أن يمشيا قليلا ، فمشيا في اتجاه الفندق ، وكلما عبرا على فتحة أحد الشوارع المؤدية إلى البحر ازدادا التصاقا من نشاط الهواء . وشعرا في هذه اللحظة أن في الدنيا نعما لا تحصى ، وتألقت عيونهما وهما ينظران إلى بعض فقرأ كل منهما ما بنفس الآخر .

ـــ « نعم ... لنا في الدنيا ولد وبنت . ومسكن يجمعنا على الحب ، لا نحاول أن نتغلب على وحشته بتجديد أثاثه بلا داع ، ولا بزيادة عدد المصابيح والنجف ، ولا بإكثار عدد الخدم ، ولا عدد القطط ولا الكلاب . وإذا مرض أحدنا تمنى الآخر أن يأخذ مكانه في فراش المرض . وليس شيء في الدنيا يعتبر مشكلة تقف في سبيل تفاهمنا ، حتى ولو كانت المشكلة أن يموت أحدنا ليستطيع الثاني أن يواصل الحياة » .

ولم يكن هذا الكلام مسموعا ، بل كان في نفس كل منهما .. قالاه وهما ينصتان إلى وقع أقدامهما .. وأوراق الشجر تخشخش مثل الشخاليل ، ومن خلال هذا ارتفع صوت الرجل يقول :

ـــ لقد اشتدت برودة الليل .. لا بد أن نذهب إلى الفندق .. (تاكس) .. (تاكس) ..

فوقفت إلى أقصى اليمين سيارة أجرة .

* * *

وكانت كل الحجرات موصدة في الممرات . وهما في الطريق إلى غرفتهما متلاصقين يتساندان ، حتى ظنهما أحد الخدم قد سكرا في الخارج .

وعندما سطع المصباح في حجرة مساحتها ستة عشر مترا ، ولون حيطانها وردى ناصع كان عزت يقفل المزلاج الذى لم يتغير وضعه

فى الباب منذ تسعة عشر عاما ، وعلى البعد كان البحر مسترسلا فى نفس ما قاله ليلة عرسهما ، ويعيد ما يقول منذ تلك الليلة .. بل ومنذ الأزل . وارتسم على السقف ظل غطاء المصباح المعلق يتذبذب من بقعة لبقعة بفعل الهواء الآتى من الجنينة .

ولعل الأماكن فى الليل تكون أشد قدرة على البوح بأسرارها .. بل ولعلنا نحن كذلك .. فقد بدا المخدع ، كأنما زين من جديد ، مع أن قطعة كبيرة من عمرهما سقطت فى بحر الزمن ، كأنها أحد جروف الشاطىء . وفى الحجرة المجاورة التى يفصلهما عنها (باب الوسط) كان صوت رجل وامرأة يتحادثان . جعل كل من الزوجين ينصت إليهما فى الوقت الذى كانا فيه يرتديان ملابس النوم .

وحين عم ظلام الحجرة ، وهما متمددان فى الفراش كان كل منهما يقول فى نفسه : « يا له من يوم » وولدت بينهما فترة من الصمت ، كانت الأجسام فيها مشغولة بتذوق ليونة المخدع ، وصوت المرأة فى الحجرة المجاورة يرتفع حادا كأنه قمة زوبعة ، فتقول كلمة تتلاشى نهايتها غالبا فى ضحكة مستهترة . أما صوت الرجل فلم يكن يصل بانتظام . بل كان منخفض الدرجة شديد الغلظ ، يبدو عليه من الصورة التى رسمها الخيال للزوجين فى دور المسترضى ، وأن المرأة تركب رأسها فى أمر من الأمور .

ثم تنفس عزت نفسا طويلا فى الوقت الذى اقترب فيه من زينب ، وأخذها بين ذراعيه ، وكان مصباح الممر لا يرسل من خلال الشراعة إلا نورا ضئيلا ، ولذلك لم يكن أحدهما مستطيعا رؤية ملامح الآخر إلا بمشقة . وخيل إليه أن شهقتها شهقة من يبكى ، فتحسس خديها فإذا عليهما بقايا بلل . لكن جيشان نفسه فى عالم العواطف كان أشبه بتمدد الأجسام فى عالم الطبيعة .. لا يقاوم . وانبعثت ضحكة غجرية هلوك من

وراء الباب المجاور في صد ورضا في وقت واحد . لكن عزت قال لزوجته في إشفاق :

ـــ ما الذى يبكيك يا حبيبتي ؟ في هذه الليلة ؟

فلاذت به كأنها خائفة حتى أحس بوقع أنفاسها على وجهه :

ـــ بكيت من أشياء كثيرة يا عزت .. حين يذكرنا حال غيرنا بجمال نعمنا قد نبكى من الفرح .. وفجأة تتحول دموع الفرح إلى دموع خوف . ودموع الخوف قريبة من دموع الحزن ..

فأخذ يهدهدها كأنها طفلة . وهم بإشعال النور فمنعته . في الوقت الذى كان يرتفع فيه صوت الرجل (من الحجرة المجاورة) ليعبر الباب وهو يقول بنبرة غليظة ، كأنها صادرة من خلال ماسورة حديدية :

« ما هذا العذاب ؟ » .

وقال عزت يخفف عنها :

ـــ لأجل أن تنامى مستريحة .. ارمى بهمومك .

ـــ آه .. إن حالة « اعتدال » أختى أحزنتنى .. لقد تصورتها وحيدة في يوم من الأيام . فأى حياة ستحياها في المستقبل ؟ لقد هممت أن أختلى بها ، فأطلب إليها أن تتبنى طفلا أو طفلة ، لكن خفت أن أجرح شعورها .

فأجاب عزت وهو يتنهد ، وبصوت أقل انخفاضا بكثير من صوته العادى ، كأنما قد أدركه التعب :

ـــ ألم أقل لك ما وقع بينى وبين محسن بك زوج أختك ؟ أظن لا .. لقد راودنى هذا الخاطر فعرضته عليه في صيف من الأصياف ، ونحن هنا في المدينة فلمعت يومئذ ابتسامة واسعة تحت أنفه المعقوف ، واهتز في كرسيه في الوقت الذى كان يجيبنى فيه بكبرياء :

ـــ يجب أن يكون أبناؤنا من دمائنا وإلا فلا .. أنت لا تدرى ، أنت لا تدرى ..

وأخذ ينفض رماد السيجارة بيد منفعلة :

ـــ إن عنصرنا يا سيد عزت جوهرى لا يجب أن أمتدحه ؛ لأن هذا يعيبه .

ثم استطرد ، وقد اعتدل فى مقعده ، وتجلت عليه ملامح المفكرين :

ـــ كان لى جد ـــ واسمع هذه الحكاية من أجل خاطرى ـــ يعتز بحصانه إلى درجة أنه كان يطعمه لوزا مقشورا فى ساعات فرحه به . فنحن من أسرة تعتز بما تملك .. وليس هناك ما هو أغلى ممن سينسبون إلينا ، ويرثون ما نخلفه يا سيدى ..

وعندئذ يا سيدتى علمت أنه من الحمق أن نناقش مثل هذه القضية . إننا في زمن يجب أن ننظر فيه إلى الدنيا على أنها مجموعة من البشر ، لكن محسن بك لا يزال حتى بلوغه الخامسة والخمسين من عمره يروى شجرة النسب بماء الغرور .. فما له إذن وما للقطاء ؟ ! ..

ـــ آه .. آه .. سأجعل الدم يسيل من خدك .

هكذا جاء من خلال الباب صوت المرأة فى الحجرة المجاورة وهى تصيح كما تصيح طيور الليل ، ثم انبعثت منها ضحكة كضحكة الطفل حين تدغدغه ، وبعد انقطاعها سمع صوت الرجل يدمدم ، وكتم عزت وزينب ضحكة جديرة بالإنسان ، ثم اقتربا من بعضهما فى وقت كانت فيه رطوبة الجو تتزايد ، وذوائب الأشجار القريبة من النافذة يختلط حفيفها بصوت الموج ..

ولما أحسا الدفء قالت الزوجة :

ـــ وإذا تصورنا العكس يا عزت ، ومات محسن بك بعدها هى ؟

فتأفف ولكنه أجاب :

ـــ ما حكاية الموت هذا الذى صدعت به رأسنا ؟ إذا حدث هذا ـــ ولا قدر الله ـــ فيستطيع أن يتعزى عنها بعمل من الأعمال يلهيه عن نساء الدنيا .

ـــ ما هذا ؟

ـــ عند مستشفى (بولاق) للولادة ، الذى لا يتردد عليه طبعا إلا النساء ، يمكن لمحسن بك أن يجلس على القهوة القريبة ليتمتع برؤية الأطفال الذين ولدوا ، والذين لم يولدوا بعد .

فضحكت وهى تعاتبه ، ثم انتقلت فجأة إلى الذين ينامون فى القاهرة بعيدا عنهم .. إلى ابنها « شكرى » وبنتها « سوسن » . ترى كيف ينامون الآن ؟

ـــ هل تتصور يا عزت أننى شاعرة كأنى غبت عنهم شهرا ؟

ـــ إنهم ليسوا صغارا يا سيدتى .. إن شكرى فى السابعة عشرة وسوسن فى السادسة عشرة ..

« آه .. وحياة عينى لا بد من أكل يدك هذه .. أتعرف يدك هذه ؟ آه .. آه .. » .

وضحك الزوجان فى الوقت الذى ساد فيه خلف باب الوسط هرج مبهم يثير تقززا مشوبا بالحيوانية يمشيان فى المشاعر جنبا إلى جنب ، على أن الهرج والمرج لم يلبثا أن انقشعا وظلل الصمت ، ووجدت المشاعر الراقية طريقها من جديد إلى نفس الزوجين :

ـــ هل تعتقدين أنهما زوجان ؟

ـــ على كل حال هما يفعلان الأشياء بطريقتهما .. سواء كانا زوجين أو غير زوجين .

ثم ضحكت ضحكة لينة وزادت اندساسا فى أحضانه وهى تقول :

ــ لقد ذكرتنى أعمال هذه المرأة فى رعونتها وسرعتها بخرافة الأرانب التى كنا نحكيها ونحن أطفال .. أرنب اشتدت سرعة جريه إلى درجة أنه سبق نفسه .. فخرج من جلده .. وتركه على الطريق .. وزعموا أنه ظل يجرى أيضا .. هذه المرأة تسبق نفسها فى كل أعمالها .

ــ عزت ..

ــ نعم ..

ــ أحبك .

ــ مؤكد .. وكل الحكايات إن أعيدت فقدت رونقها . إلا هذه الحكاية .. ما لك ؟

فقالت بوله :

ــ إن شيئا ما سيفرق كل اثنين ..

فرد بضجر :

ــ ثم ؟ ..

ــ دعنى أخفف هموما امتلأت بها نفسى من بيت أختى « اعتدال »، ألم تقل لى من زمان : « إننى صندوقك الذى تضع فيه ذكرياتك وعواطفك وهمومك ؟ » .. وأنت كذلك « صندوقى » .. آه .. أى الموقفين أخف : أن أرانى وحيدة أم أن تكون وحيدا بعدى ؟

وكانت لا تزال لائذة به كأن شيئا سيخطفها ، فشد عليها ذراعيه ليشعرها بالطمأنينة . وفى نهاية البهو كانت دقات ساعة تعلن الثانية ، والهواء مشبعا بالرطوبة وأشد نشاطا من قبل ، وأحد الأغصان يلمس خشب النافذة فى تحركه . وكان عزت يفكر فى الوقت الذى كان يقبلها فيه ، وسؤالها لا يزال معلقا يتأرجح ، كما كان مصباح السقف يتأرجح فى

الظلمة ، ولم يكن هناك صوت يأتي من الحجرة المجاورة ، كأن طيور الليل كلها قد نامت . فهمس عزت بحنان ، وفمه قريبا من أذنها :

ـــ زينب .. ألا تعلمين أين نحن الآن ؟ .. نحن في مخدع العروسين .. ألا تشعرين بالطمأنينة التي لا يخالطها قلق ؟ .

وعندما دقت ساعة البهو الثالثة صباحا كانا يتهيآن من جديد للنوم . وقد بدأت الأجسام مرة أخرى تتذوق ليونة الفراش كأنها لامسته في هذه اللحظة ، وكل منهما يتمتم بتحية يغالبه عليها النوم .

ـــ ٢ ـــ

وعند الضحى استيقظ الزوجان ، كما يستيقظ العروسان .. ونظر كل منهما إلى الآخر نظرة مليئة بالابتسام تسرد تاريخا حلو المذاق .

ولما أطلا من النافذة راودتهما مشاعر مشتركة : « أليست بعض لحظات الزمن لها عمق وطول وعرض ، ولو بدت لنا صغيرة ؟ . فما بالنا بليلة كالتي فاتت ؟ . » .

وتجدد الماضي مرة أخرى ، حين بدأوا يحزمون الحقائب قبيل الظهر . ومع اللفتة الأخيرة للجدران المطلية بلون وردي قديم شعرا أنهما يستودعانها أمانة قلما تعود .. مثل (صندوق موسى) فوق ظهر الموج . لكن هواتف (القاهرة) كانت تملأ أسماعهما ، ومنظر « سوسن » وهي منحنية على حديد الشرفة ترقب سيارة الأجرة المارقة عبر الشارع ، لم يبارح خيال الأبوين .

وبين لحظة ولحظة تبدو كأنها تزيح ذوائب شعرها الأسود عن جبينها الناصع ، وقلق لا مبرر له يناوش وجدانها الحي .

أما « شكرى » .. فربما كان واقفا خلفها وسط الشرفة ، عاقدا ذراعيه فوق صدره . ينظر إلى بعيد .. دائما إلى بعيد ، بعوده الناحل المائل إلى الطول ، ووجهه الشاحب ، وذقنه العريض ، و (نونة) غريبة أسفله لم تؤد مهمتها فيه . ينظر إلى بعيد ، ويعبر على خياله غياب أبويه بغير قلق لأنه لا يجب أن يقلق إلا مما يثير المخاوف الحقة .. وهذا رأيه فى كل شيء . ينظر إلى بعيد وهو فى وسط الشرفة المطلة على شارع الجامعة .. حيث لا يقع أمام البصر نحو الغرب إلا بعض المباني الحكومية المشادة بالحجر . وخلفها الفضاء ، والحقول وبساتين وزارة الزراعة .

وهو لا يرى أن عودة والديه بالطريق الصحراوى (لو علم ذلك) شيئا يثير المخاوف فى الوقت الذى كانت « سوسن » تفرض فيه هذا الفرض وتوازن بين نسبة المخاطر فى القطارات والسيارات .

أما « أمينة » الخادمة فهى فى الداخل تقوم بواجباتها اليومية وعيناها السليمتان ، فى وجهها المسن غير الجميل تنفذان من شباك خلفى إلى إحدى العمارات ، حيث يشاهد مولد إحدى قصص الحب بين أبناء الجيران .

كان من المتفق عليه أن يحضروا بعد الظهر ، لكن المساء هبط ولم يحضر أحد ..

وظلت الفتاة واقفة فى الشرفة تنظر إلى الشارع الخالى إلا من قليل من الناس والسيارات ، وعلى يسارها — من على بعد — تأتى أصوات من ميدان الجيزة ، وبين وهلة ووهلة تظهر عند التقاطع قريبا من الميدان إحدى مركبات الترام تلف فى المنحنى ببطء مجهد ، وهى فى طريقها إلى المخزن ...

ولم تستطع « سوسن » أن تدخل حجرتها ولا أن تمسك كتابها ،

و « أمينة » تطل على الشارع ثم تعود كاتمة قلقها داعية سيدتها في لهجة لينة مكسورة بالطمأنينة أن تدخل إلى مكتبها « فالغائب معه حجته » كما يقولون .

أما « شكرى » الطالب فى الجامعة فكان مستغرقا فى أحد دروس الفلسفة ، معتمدا الفرار من تصادم الآراء بينه وبين شقيقته التى تصغره بعام واحد . ولم يكن خياله من السعة بحيث يصور له (مثلا) أن سيارة فى الطريق الصحراوى قد انقلبت بركابها ، أو أن قطارا قد اشتعلت فيه النيران فوثب الناس من النوافذ فى فوضى : ربما كانت أعظم خطرا من النار : كانت النسبة بين عقله وخياله (كشيء إلى .. لا شيء) ! فإذا جابهته الحقائق أو اعترضته تنبه لها عقليا . أما الخيال ، وبالتالى ، العواطف (وهى الأزهار التى تنبت فى أرض خيالنا) فإن هذا كله كان فى المحل الثانى عند هذا الشاب .

وعندما أزفت الساعة التاسعة مساء لم يكن جمال المنظر الذى طالما سحر الفتاة منذ سكنهم فى هذه المنطقة ، قادرا على أن يغلب نوازع القلق فى روحها . حتى كادت ، وهى منكفئة على حديد الشرفة أن تبكى ... عندما وقفت إحدى سيارات الأجرة أمام الباب الخارجى وكان النازلون بعض الجيران .

وجاءت « أمينة » من الداخل تحمل شالاً ألقته على كتفى الفتاة حين رأتها مصممة على عدم الدخول ، وعادت إلى المطبخ لتراقب نضج المربى . أما البنية الصغيرة التى كانت فى مساعدة « أمينة » فقد وجدتها فى أحد الأركان واقعة تحت سلطان النوم .

ولما أصبح الموقف يدعو إلى القلق فى منتصف الحادية عشرة اختلف المنتظرون فى التعبير عن إحساسهم : فجعلت « أمينة » تستعرض أحلام

الليالى السابقة ، وتبتهل إلى الله ، وأخذت « سوسن » تبكى وحيدة فى إحدى الغرف . وأما « شكرى » ـــ الذى يعرف عند الحاجة أين مداخل الطمأنينة ـــ فقد صار يردد بين الفينة والفينة مثلا يقول : « الواقع دائما غير سيىء ما لم تأت عنه أخبار سيئة » ، ثم استأنف تقليب صفحات كتاب .

* * *

ثم ساد البيت هرج ومرج عندما رن جرس الباب رنة عرفوا فيها دقة الأب .

كانت « أمينة » عند الباب قبلهم جميعا ، وحين فتحته رأى الأبوان على وجهها علامات وفاء لا توصف ، لم يستطع النور الخافت فى مدخل الشقة أن يداريها . ومن ورائها الخادمة الصغيرة تفرك عينيها بكفيها وهما منطبقتان . وعندما لاحت « سوسن » على مقربة منهما أخلى لها الطريق فقبلت جبين والدها ثم احتضنت أمها وألقت رأسها على كتفها وأجهشت بالبكاء . و « شكرى » كان فى آخر الصف ... وقد انفرج فمه الواسع عن ابتسامة عريضة ، حتى صار فتحة مستطيلة توازى ذقنه العريض ، وقد عقد ذراعيه فوق صدره ، وقال بنبرة خالية من التعبير :

ـــ « الواقع دائما غير سيىء ما لم تأت عنه أخبار سيئة » . قلت لهم هذا فلم يصدقونى ، وكادوا يخلقون جوا من الكآبة يشعرنا بالخطر ... حمدا لله على السلامة .

وحملق فى أبويه بعينين بياضهما قليل . ثم تفرقوا ريثما يعد العشاء .

* * *

وجلست الأم على المائدة متهالكة تتنهد ، ورأسها مائل نحو كتفها اليمنى ، كما هى عادتها ، وعلى فمها ابتسامة تستر المجهود ، لكنها

لا تغلبه .

أما الأب فقد أخذ يفحص كل شيء بعينيه ، وفي الوقت الذي كانت الخادمة تضع العشاء فيه انفجر فجأة يضحك ، وقال بلهجة استغراب وهو يشير براحته :

ـــ ما لكم يا أولاد ؟ .. ماذا جرى ؟ .. هل ترينهم « يا زينب » ؟ . ما لعينيك مجهدتين هكذا يا « سوسن » ؟

وسكت ريثما يقضم شيئا ، ثم نادى :

ـــ شكرى .

ـــ نعم ...

ـــ أنت اليوم أطول من اللازم شيئا قليلا (فضحكوا جميعا) .. حقيقة أنك تبدو غير قلق .. لكننى ... أرى آثار الجوع على وجهك .

فامتدت يد الأم نحوه ببيضة مسلوقة ، وأخذت نظرتها الحانية تتسلل فى رفق إلى شحوبه البادى . أما « سوسن » فقد وضعت يدها على رأسها فى الموضع الذى يدب فيه الصداع ، فنظر إليها الأب مشفقا على رقتها التى لا تتحمل ، وقال وفى صوته تلك الرنة التى يصطنعها الأقوياء حين يعمدون إلى إزاحة ركود يسيطر على جو :

ـــ ما لكم لا تسألوننا عن رحلتنا ؟

ثم تلفت قبل أن يستطرد ليتأكد من أن الخادمة بعيدة :

ـــ ... إننا عائدون من رحلة شهر العسل .

فأطرقت الأم نحو الطبق ، وزمت فمها المبتسم ، ونظرت عاتبة فاستدرك يحول مجرى الحديث :

ـــ لكن ... فى أثناء عودتنا حدث ما عكر علينا ساعات الصفو التى قضيناها فى المدينة ... كادت سيارة الركاب أن تنقلب بنا وبمن فيها عند أحد المنحنيات فى الطريق الصحراوى ، ثم ...

وعندئذ توقفت « سوسن » عن الأكل وهى تشهق ، أما « شكرى » فقد استطرد وهو يمضغ اللقمة :

ـــ « لكن ... لم تكن الأسباب كافية لوقوع الحادث » .

فقالت « سوسن » :

ـــ الحمد لله .

وتوقفت عن الأكل ، فنظر إليها أبواها وقد حسباها تحمد الله على نجاتهما ، فإذا بها تحمده عليها وعلى انتهائها من الطعام ، ولم يفلح أحدهما فى حملها على أن تأكل من جديد ، ثم قامت إلى بعض شأنها وعادت أكثر شحوبا . وجلست تسمع إلى الحديث ، وجاء دور الأم حينما تعرضت لذكر أختها ، فوصفتها بأنها فى حالة تثير الرثاء ، إنها تجاهد لتجعل زوجها راضيا باستمرار . كيف يقطعون الوقت ؟ إن الحديث بينهما لا يتصل لمدى ربع ساعة ، حتى تبدو من محسن أفكار تثير أشد الناس هدوءا .. إنه مثلا يحب اللون الأحمر ، فحول ملابس السيدة « اعتدال » إلى هذا اللون ، فإذا فتحت صوان ملابسها خيل إليك أنك ترى أوشحة متعددة لأحد مصارعى الثيران .

وعندئذ سرح الأب بخياله وعينيه عبر الزجاج المقفل يتصور وهو يهز رأسه كيف يستبد عنصر الوقت بهؤلاء الناس . وقال فى نفسه : « هؤلاء الذين تخلو حياتهم من المشاغل .. يعيشون فى انتظار المجهول .. يحلمون بشىء غير واضح الحدود ويقضون بعض الوقت فى رسم (صورة) له ، وعند فراغهم منها مباشرة يفجعون فى هذه (الصورة)

فيعودون إلى القلق وترقب (المجهول) من جديد » .

ثم استرد الأب بصره وخياله معا من الخارج ، وعاد بهما نحو الجالسين ، وقال بنبرة تعمد بها إثارة العواطف وهو مسترخ في جلسته كأن كل عضو فيه قد استقل عن الآخر :

ـــ دعونا من شأن « محسن بك » ... إنني أريد أن اسأل أبناءنا نحن : هل جربوا الحياة بلا والدين ؟ حقيقة إنها مدة قصيرة لكن القلق الذى ختمت به ربما دفعهما إلى تخيل الحياة بلا والدين ...

وسكت ، وأغمض عينيه فلم يرد أحد من أبنائه . وفى الوقت الذى كانت الخادمة ترفع فيه الأطباق وتنصرف جاء صوت الأب من جديد :

ـــ رحمك الله يا أمى ... آه ...

ونظر إلى « شكرى » نظرة تدل على اختلاف الآراء واتفاق القلوب ، ثم استطرد وهو يبتسم :

ـــ أسكنها الله الجنة ... إنى أومن بالجنة « يا شكرى » لأننى أرى أنها المكان الوحيد والمناسب الذى يجب أن تكون فيه أمى وأحبابى بعد الموت .

ثم قهقه واستطرد :

ـــ وأريد أن أقول : إنهم حين بعثوا بى من القرية إلى القاهرة لأكمل دراستى وحدى، كان أهم ما نبهتنى إليه تلك القروية العظيمة أن قالت لى : « يجب أن تفرض وأنت هناك أنك ولد بلا أبوين ، وتتصرف على أساس هذا الفرض ... » .

فبدت دموع رقيقة فى عينى « سوسن » وعندئذ سارعت تقول لوالدها :

ـــ بابا .. وحياتك .. كفى ، فقد شبعت بكاء .

أما « شكرى » فقد كان مشبكا ذراعيه على صدره فى جلسته ، وعيناه تنظران إلى شيء كأنه يقع خلف الحائط : وتكلمت الأم معلقة بنبرة مجهدة وهى تتحسس خاتم الخطبة الذى ضاق على أصبعها :

ــ لو أن أبناءنا يحبوننا كما كنا نحب آباءنا ...؟

فقاطعها الأب :

ــ ليس هذا هو الفرض ؟ فكل الأبناء يحبون أبويهم ، ولو بحكم العشرة . اللهم إلا القساة غير العاديين ، لكن غرضى هو الانتفاع بالحب يا « زينب » .

فصدرت من « شكرى » ضحكة كان من المفروض أنها ستطول لكنه استرجعها ، ضحكة تدل على رأى معين يخصه هو فيما يسمى الحب بكل أنواعه . فقال الأب متلطفا فى لهجة عليها مسحة عتاب جميل :

ــ لك رأيك يا بنى بحكم سنك وحكم جيلك . لكنى أرى أن قوانا النفسية والجسمية مثل ثروتنا الشخصية يجب أن ننتفع بها إلى أبعد الحدود بطريقة مثمرة وشريفة ...

وهز الأب كتفه ومط شفته كأنه يريد أن يقول : ومثل هذا الرأى تغييره خطأ ، ثم استطرد بعد فترة ، وكأنه تذكر بداية الحكاية التى كان يحكيها :

ــ ولما عشت فى القاهرة وحدى كان حبى لأبوى لا خوفى منهما هو الذى يحدد سلوكى ... يبدو أنكم تستكثرون هذا ، لكنى سأسألكم : ما الذين يمنع السجين من الفرار ؟ فأجابوا متتابعين : الحراسة . فقال الأب : إذن ليس هو حبه للمكان .. هذا طيب .. وما الذى يربط عشرة أزواج من الحمام ترون أحد الصبيان من جيراننا يطيرها كل عصر ثم يناديها بالصفير لتعود ؟ ما الذى يربط هذا الحمام بالصندوق الصغير ، وهو

يملك أجنحة ووقتا وفضاء .. هو شيء غير الحراسة .. (وابتسم) هل عرفتموه ؟ إنه الحب .

وتثاءبت الأم وفي أجفانها المرتخية بوادر النوم ، وضحكت « سوسن » بإعجاب . أما « شكرى » فقد كان باسما ونظره ممتد إلى بعيد كأنه يرقب شيئا وراء الجدران .

وجاء صوت الفتاة مرة أخرى يقول :

ــ كلامك يا بابا يلهى عن الدروس . ولو أطفأنا الأنوار الليلة لاستطعنا أن نذاكر على نورك ... أنا فى التوجيهية وأخشى أن أرسب ، طاب مساؤكم .

ونهضوا فى تتابع ، حيث سهر الطلاب يذاكرون ، ودخل الزوجان إلى مخدعهما ، وسهرت « أمينة » ترتب المطبخ .

ــ ٣ ــ

وفى اليوم التالى لهذه الحوادث ، كان الموظفون فى وزارة ... (التى يشغل الأب إحدى الوظائف المتوسطة فيها) مشغولين بحادث ، ظل موضع حزن وتفكه لمدة غير قصيرة .

فقد كان أحد موظفى (الخدمة الاجتماعية) هناك موضع تفكير عدد كبير منهم ، وظل هذا الموظف طول اليوم فى مكتبه يؤدى أعماله العادية فى وجوم وسهوم لا يوصفان .

وكان الكثيرون ممن حوله يعرفون طرفا من حياته فى أسرته ؛ لأنه كان من الذين يثرثرون بمتاعبهم . وكانت علاقته بأبنائه متسمة بالقسوة ، وكان فى مجموعه رجلا قصيرا ربعة أسمر فى شحوب ، لا تكاد ترى فى عينيه

ما يحملك على أن تطمئن إليه .

ولما أسندت إليه أعمال الخدمة الاجتماعية كوكيل للمدير قال الموظفون : « إن الميزانية ستظل بخير إن شاء الله » .. لأنه كان يباهى بأن دمعة لم تسل من عينيه حتى يوم دفن أبويه ، وقد ماتا تباعا .. وقد كانوا واثقين أن الدموع الصادقة التى يسكبها أصحابها عند بلورات المكاتب لن تجعله يتسرع فى منحه ، فما بالهم بالدموع غير الصادقة .

كان (الوكيل) اليوم موضع تفكير عدد من الموظفين فلم يغادروا مكاتبهم إلى أن يغادر مكتبه .

وحل موعد الانصراف ، باستدعاء المدير ، ثم خرج وظل الذين ينتظرون انصراف (الوكيل) فى مكاتبهم ، لكنه رجع إلى كرسيه ، وطلب فنجالا من القهوة وأشعل سيجارة وأخذ يدخن وعيناه الخاليتان من التعبير مليئتان بالدموع ، ناظرتان إلى السقف وزخرفته وكأنه يراها للمرة الأولى .

وكانت عيناه الدامعتان الخاليتان من التعبير تشبه عين الضرير إذا بكى .. والزهرية أمامه بلا أزهار ، وعلى النشافة بقعة حبر كبيرة .

ولم يتذكر هذا الجالس على مكتبه يدخن ، وينظر ويفحص الحيطان وأدراج المكتب فى وقت خيم السكون فيه على الديوان كله ، لم يتذكر أنه يجب عليه أن ينصرف ، ولا أن هذا اليوم هو عيد ميلاده .. ميلاده الستين ..

وكان هناك من الموظفين من ينتظرون ليودعوه لأنه لن يعود إليهم فى اليوم التالى ، وسيصبح موظفا فى المعاش ، وسيجلس فى مكانه رجل آخر تبعا لسنة الطابور الذى يتحرك . فلما بكى فى ساعة الوداع عند باب الوزارة أثارت هذه الدمعة النادرة التى لم يذرفها حتى على أبويه (والمسئولية عليه)

أثارت فى نفوس من حوله نوازع مختلفة .

أما « عزت أفندى » .. أما الأب ، فإنه بكى كثيرا ، وحرص على ألا يراه أحد وهو يبكى ، فدخل إلى الديوان حيث كانت الردهات قد سادها الظلام بعد إغلاق الحجرات ، وعلى أحد الكراسى جلس حتى خفت حدة انفعاله ، ثم انصرف يستمع إلى صدى أقدامه ، ووجد نفسه مدفوعا إلى أن يفعل أشياء كثيرة لمن فى البيت بعد أن خرج إلى الشارع . وعند فوران العواطف تنبعث من أعماقنا أشياء كنا قد نسيناها ، كحادثة عادية وقعت عن بعد ثلاثين عاما أو كنظرة قسوة أو كلمة حنان .

فتذكر الأب أن والده غاضب أمه ذات ليلة وطردها من الدار لنزاع لم يكن الأولاد يعرفون سره . ولبست الأم ملابسها السوداء لتخرج مع أن ظلمة الليلة كانت تدثر كل الناس ، وكان « عزت » يرى استدارة وجهها الأبيض الصغير فوق قوامها النحيف . وهى فى ملابس الخروج ، ويهم أن يقول لها : خذينى معك يا أمى ...

لكن نظرة زجر حادة حدة السيف أجلست الأولاد فى أماكنهم ، وخرجت الأم وحدها وسمع صرير الباب من ورائها . ثم سكت الباب واستقرت (سماعته) فى مكانها بعد لقلقة خفيفة ، وانحط على المكان سكون ثقيل ، فانفجر الأولاد يبكون من هذا الإحساس ، وارتفع صوت الأب منذرا فكتموا زفراتهم حتى كادت أضلاعهم تتمزق ، وفى اللحظة التى قطقطت فيها أوزة سمعوا صرير الباب مرة أخرى وتحركت (السماعة) عند فتحته . ورأوا الأم بملابسها السوداء ، وقوامها الضئيل ووجهها المستدير الأبيض ، رأوها تعود لتجلس فى وسطهم تبكى دون كلام ، فلاذوا تحت جناحها مثل الكتاكيت ، ولما أحس الرجل أنها رجعت من نصف الطريق من أجلهم أخلى لهم المكان فى صمت ...

وليلتئذ خمدت العاصفة .

وكانت هذه الأفكار تتوارد على رأس « عزت » وهو في طريقه إلى مسكنه في الجيزة . والترام مزدحم والناس يتدافعون في كل ركن . وجعل يفكر : كيف أن زوجته في حنانها وإخلاصها ، لا تكاد تقل عن أمه طاعة وطهرا ، كان أبوه رجلا حاد الطبع فكانت أمه تبتلع أخطاءه من أجل أولادها ...

وهز رأسه ذا الشعر الفضي المتناسق في جمال متناسب مع لونه الأسمر ، وسن الخمسين ، وكأنه يؤمن على الفكرة التي جالت في رأس أمه منذ أربعين عاما :

« نعم . كان من أجلهم .. وما دام هناك شيء ما يتفق جماعة من الناس على تقديسه فإنهم لن يتفرقوا أبدا » .

ثم مات أبوه قبل أمه وكان يراها تعيش بعد وفاته حمامة بجناح منفرد . وأحس « عزت » أن أمه كانت عظيمة ، لأنها بإمكانياتها العادية ، دون إرشاد أو تعليم ، كانت تحاول أن ترى في أبيه أجمل ما فيه . ثم تنهد ، حين ورد على رأسه خاطر آخر هو منظر زوجته إذا ما سبقها قريبا أو بعيدا ، ومات وتركها ...

وفجأة رأى نفسه في ميدان الجيزة ، فهبط من الترام وهو يحاول أن يبعد هذه الأفكار عن رأسه . ما هذا ؟ .. ما بالها قاتمة هكذا ؟ ولكنه وصل بسرعة إلى الأساس حين رجع في نفس الخط بظهره ، فعرف أن مصدر ذلك هو توديع وكيل الإدارة وتلك الدموع النادرة التي انبعثت من عينين لم تعرفا البكاء من قبل حتى على أعز من نبكي من أجلهم .

* * *

وعند باب البيت لاح له شاب يشق طريقه آتيا من ناحية الجامعة ،

بسرعة كأنه سيدرك قطارا ، وعلى عينيه نظارة وإحدى كتفيه مائلة وبصره ممتد إلى الأمام حتى لا يكاد يرى ما تحت قدميه .

وعرف فيه ابنه شكرى فوقف ينتظره حتى وصل إليه ، وولدت على شفة الابن تلك البسمة التى تجعل من فمه خطا يوازى ذقنه العريض ، وسلم فى هدوء فى الوقت الذى كان فيه قلب الأب يعانقه .

كان يحس أن دفعة كبيرة من الحنان يجب أن تخرج لكى يستريح ؛ لأن الشحنة القاتمة التى تركها موقف الوداع ، والذكريات التى فاضت من نفسه عقب ذلك جعلته فى (حالة استعداد) لا نظير لها .

وكان البواب ينظر إليهما متأملا والأب واضع ذراعه على كتف ابنه ، وهما يصعدان السلم ، وعند إحدى البسطات حيث كان النور أكثر سطوعا حملق الأب فى شحوب ابنه ، ثم ضيق عينيه وزم شفتيه .

وكانت « سوسن » لدى الباب عندما فتح فى ثوبها المنزلى عقب وصولها من المدرسة ، وقبلت جبينه المندى بشىء من العرق وأخذت تبتسم له ، ولم يسمع صوت « زينب » فى البيت كأنما كانت غائبة ، وكانت « أمينة » مشغولة فى إعداد الغداء ، والخادمة الصغيرة تتبعها كظل قصير .

وجلس الأب على كرسى فى المدخل ريثما تخرج زوجته من الحمام ، وقد عرف ذلك من « سوسن » . وكان شىء من الجهد والتعب الذى يبدو على العائدين من السفر لا يزال يكسو ملامح الوالد . فسألته بنته فى كثير من الحب :

ـــ هل تعبت اليوم فى العمل يا بابا ؟

فنظر إلى الوجهين العزيزين قبل أن يتكلم ، وولدت على شفته ابتسامة كانت أقرب إلى التقلص ، وطفا الحنان فى عينيه النقيتين ، وكانت إحدى

رجليه مستريحة على الأخرى ، وهو مستلق فى الكرسى ، يهزها فى حركة رتيبة كأنما ليخرج بها القلق من داخل نفسه .

وبدت « سوسن » بعد هذا السؤال أقرب ما تكون إلى قلب أبيها . بل أحس كأنه ينظر إلى شيء منفصل عنه . وكان يبدو أنها سبقت أمها فى الخروج من الحمام ، فشعرها الشديد السواد الذى فرغت توا من تمشيطه ألقى ظلالا بيضاء على رقبتها النحيلة ذات الأوردة الزرقاء ، التى تدل على الحساسة .

أما « شكرى » فقد كان يتلفت إلى المائدة بين لحظة ولحظة ليرى هل تم إعدادها ، وعيناه الجائعتان إلى الطعام وإلى النوم لا يبدو فيهما مشاركة لمن حوله ، يجلس فى صمت مترقب كمن لا يريد أن يزعج نائما ، أو كمن يتربص لصيد .

وأرخت « سوسن » ذيل ثوبها فوق ساقيها بعد انقضاء دقيقة على سؤالها ، وعادت تقول لأبيها :

ــ هل تعبت اليوم يا بابا ؟

فضحك ضحكة عالية ، وفجأة ، فكأنما طارت معها نصف الهموم التى كان يحملها ، وقال للفتاة :

ــ لو أردت أن أصنعك بيدى يا « سوسن » كما أريد ما صنعتك أحسن مما أنت عليه ..

ثم تنهد ، واستطرد فى صوت شديد الهدوء :

ــ آه يا فتاتى .. لكننى أخاف عليك من حدة الإحساس .

ثم سأل الصبية الصغيرة عما تفعله « أمينة » فأخبرته أنها مشغولة فى المطبخ ، واسترد الأب أفكاره ثانيا ليتكلم موجها حديثه للفتى والفتاة :

ــ لم أتعب فى العمل ، وإنما تعبت من حادثة تعرضت لها ظهر هذا اليوم .

وقص عليهما قصة الوكيل ، وكأنما يريد أن يقطع الوقت .

ثم عاد إلى « سوسن » ليقول لها :

ــ ها أنت ذى قد رأيت على علامات التعب ، إننى استرجعت حوادث كثيرة عقب توديعنا للرجل ، ومن الغريب أنها كانت تثير فى نفسى إحساسا واحدا .. هو الحزن . سواء أكان الحادث الذى تذكرته سعيدا أم غير سعيد (ها .. ها) إن لهب الشمعة يحرق على أى حال .. شمعة فرح أو عند رأس ميت .. وفوران العواطف يبكى والسلام .

ثم سكت قليلا . واتجه إلى ابنه فى لهجة الحاسد :

ــ أما أنت يا « شكرى » .. فأنت ولد .. عظيم ..

فانفجرت « سوسن » تضحك حين سمعت هذا الإطراء المتحمس .

ــ ما هذا كله يا بابا ؟ .. والمسألة تحتاج إلى توضيح .

ــ نعم .. يا « سوسن » إن « شكرى » من النوع الذى يلتقى بالمسائل التقاء حسيا أو عقليا ، وهو غيرى وغيرك .. إنه أكثر راحة منا فى الحياة ، ولو أن هذا النوع من الناس يتعرض لتجربة حادة مرة واحدة ، ربما اجتاحته هذه المرة . مثل من ؟ .. آه .. خذى السترة يا« سوسن » وعلقيها على المشجب وسأسكت حتى تعودى .. ماذا كنا نقول ؟ .

وكانت الابتسامة المخطوطة على شفتى الشاب تصنع من ذقنه وفمه خطين متوازيين حين عاود الأب كلامه :

ــ مثل رجل الحرب الفظ الغليظ .. هل تذكرون صورة (مارس) .. مارس إله الحرب .. تصوروا رجلا فى قساوته أحب فتاة لطيفة .. أؤكد لكم أن تجربته ستكون من أقسى التجارب لأنها تحويلة غير منتظرة على طريق حياته .. آه ..



وعادت تقول لأبيها .. هل تعبت اليوم يا بابا ؟

فقاطعته « سوسن » :

ـــ و « شكرى » عظيم يا بابا .. لأنه يشبه إله الحرب ؟

فقال الشاب فى ترفع من يحس بتفوقه العقلى على من يحدثه :

ـــ لن أرد عليك فأنت صغيرة .

فقال الوالد فى استسلام من ولد بعاهة لا مفر منها :

ـــ على كل حال .. أنت تنعم بطمأنينة لا نستطيع أن نحققها لنفسنا .

ثم قال فجأة :

ـــ ماذا يا أولاد ؟ .. إن الجوع قد اشتد بى وقد سرقنا الحديث .

ثم نادى بصوت مرتفع :

ـــ أمينة .. تعالى لتضعى الطعام ..

وقال بصوت أقل ارتفاعا :

ـــ وأنت يا « سوسن » قومى فاستعجلى أمك ، قولى لها : إن النظافة المبالغ فيها ليست من الإيمان .. ما أشد جوعى .

وبعد وهلة كانت هناك طرقات تسمع من على بعد ، من يد « سوسن » كأنها تدق باب مخدع على نائم ، وأخذت ترتفع قليلا قليلا حتى صارت مرعبة وصاحبها نداء ثم هلع :

ـــ مالك لا تردين يا ماما ؟

فقام الأب مدفوعا وهو يقول :

ـــ اكسروا عليها الباب ، تعالى يا « أمينة » .. يا إلهى ..

وأغلق باب الحمام على الأب وبنته والخادمة . و « شكرى » مزروع على بعد لا يستطيع أن يتقدم ، وكانت الأصوات المتلهفة فى الداخل تتتابع فى تناقض يحرق العصب :

« مغمى عليها .. إن جسمها بارد .. كأنها ميتة .. لا تخافوا .. هل مضى عليها وقت طويل .. ردى على يا ماما .. احذرى أن تبكى يا طفلة .. هات طبيبا يا « شكرى » وأسرع .. ألبسيها ملابسها أيتها المرأة .. يا له من يوم .. كنا نتحدث فى الخارج .. آه .. احملوها إلى الفراش » .

وبعد قليل وقف الأب يعلن فى بكاء يذيب النفوس :

ـــ تشجعوا يا أولاد .. فإن أمكم قد ماتت ..

ـــ ٤ ـــ

وهكذا تخلفت الأم عن الرحلة ، وهم فى أشد الأوقات حاجة إليها ، وظلوا بضعة أيام لا يصدقون ، وهذا أسوا ما فى الموت . فعندما نؤمن أن أحد أحبابنا قد مات نكون قد أخذنا فى فتح باب السلوان .

وكان الأب يضع كفيه على عينيه حتى وهما مغمضتان ؟ كان يراها متجردة فى الحمام ، مخنوقة من الهواء الفاسد ، متمددة كأنها غريقة ألقيت على الأرض ، والملابس التى خلعتها بيديها وعلقتها فى الحمام لم يتذكروها إلا فى اليوم الثانى ، وأخذها الأب واحتفظ بها لأن فيها رائحة منها ..

وعلى الرغم من أنه ترك الغرفة المشتركة ذات السريرين التى كانا ينامان فيها ، فإن زوجته لم تفارق خياله ، وصفق ذات ليلة وحيدا فى الظلام كما يصفق المدهوش ، وسمع نفسه يهتف بصوت واضح بعد أن جلس فى الفراش : « لقد تمت الدائرة .. لقد تمت الدائرة » ، ثم أردف بهمس مخنوق : « نعم تمت الدائرة » .

وكان ذلك على أثر استرجاعه لحوادث الإسكندرية قبل موتها بليلة . فإن النقطة التى بدأوا منها قد انتهوا إليها .. ثم انتهى الأمر ــ كأنها كانت سببا ــ ففى الحجرة ذات الحوائط الوردية الفاصلة كتبا نهاية القصة التى لا بد أن يكتبها كل اثنين ، وأيضا .. فى الموضع الذى كتبا فيه أول سطر من رواية حياتهما .

وعندما أطلا وهما هناك على الحديقة، ولم يجدا شجرة الرمان التى عرفاها منذ تسعة عشر عاما أسبلت الزوجة أهدابها فى فتور وسلام ، وهمست وهما ينظران إلى أعواد الزنبق النامية على الجدول بين مختلف الحشائش :

ــ « لا يبقى شىء على ما هو عليه .. مستحيل يا عزت » .

وجعل يتلمس السلوان بوسيلة أخرى .. عادية يستطيع كل فرد أن يفترضها . فقد أخذ يوازن بين الذى حدث وبين عكسه لو أن عكسه هو الذى حدث ، فماذا يكون موقف الزوجة لو أنه هو الذى سبقها ؟ ! آه .. إنه يتذكر كل شىء ، كأنه وقع أمس ، كأن الوقائع الضخمة فى حياة الناس كشافات كبيرة تتسلط بكل جبروتها على الماضى فتستحضره حيا واضحا ، إن أباه مات قبل أمه ، وقد رأى ذلك وهو شاب ، وأحست أمه أنها حمامة بجناح واحد .. ثم ماتت بعده بثلاث سنين .

وأحس بشىء كراحة المحموم عقب (كمادة) باردة ، وأفسح لخياله الطريق ليرى زينب فى لباس الحداد ، وشفتها ذات الابتسامة الملائكية متقلصة من الحزن ، ونظرتها العفيفة بعد أن يزيدها غيابه انكسارا وإعراضا عن الناس . أليس الذى حدث خيرا من الذى لم يحدث ؟ ! .. من الخير المؤكد أن يتخلف عن القافلة ــ أولا ــ أضعف الناس فيها ، لأنها ستظل تسير .

لكن هذه الأفكار لم تكن إلا (مسكنات) ، إلحاح الألم بعدها أشد

قسوة . لكنه على الرغم من كل شيء كان يتماسك ، وقرر أن يعيش .

أما سوسن فقد كانت لأبيها مثار ألم دائم بعد هذا الحادث ، خيل إليه أنها ستخر مريضة بعد أيام ، وأصبحت في ثلثي وزنها حتى امتد نحول خصرها إلى أعلى فشمل نصف ظهرها ، وكانت تريد أن تغرق همومها في عمل ما ، وطبيعي أن يكون عملها المدرسي ، لكنها فطنت إلى أنها عاجزة عن التركيز ، فبين سطور الكتب وخرائط الجغرافيا وحوادث التاريخ ، حتى وتمارين الرياضة كانت تتخايل صورة حبيبة لأمها التي خطفت ، صورة لم تكن واضحة كأنما طمس الموت معالمها . غير أنها كانت تثير في قلبها حرقة جعلتها تفطن في إحدى اللحظات التي يوازن فيها صغار السن بين أنواع اللوعات ، جعلتها تفطن فتسأل نفسها : إذا كانت هذه هي حرقة الفراق ، فما هي إذن حرقة الـ .. ح ..ب ؟ ! » .

وكأنما خجلت من نفسها بعد هذا السؤال ، الذي لم يجيء في أوانه . لكن الذي كانت تثق منه هو أنها لن توفق في الامتحان لذلك بكت في صمت .. سالت دموعها كما يتقاطر الندى حبة بعد حبة ، وكأنما وجهت بذلك عتابا بنويا إلى طيف أمها الغائبة !

وكانت (أمينة) بعد وفاة الأم تعمل كل ما يوحي به قلبها من حنان خاصة نحو الفتاة ، وفي أول الأمر بدا (البدل) شيئا تافها لا يغني عما ضاع ، ثم ألف الوضع وأصبحت سوسن تتقبل مظاهر الحب من (أمينة) بقلب يعترف بالفضل فقد عز عليها ألا تفتح لها أبواب نفسها بعد أن رأت حرصها على أن تنال حبهم . وفوق ذلك كله فقد كانت محتاجة إلى رعاية .

وعندما يكبر الخدم في بيوت مخدوميهم ، قد ينسون أنهم ولدوا في بيت آخر غير الذي كبروا فيه ، خصوصا إذا ما كانوا أوفياء .

وكانت أمينة من هذا النوع ، قروية من بلد الأب ، ومن سنه على التقريب ، ولعله يذكر بعض حوادث الطفولة التي يؤلف فيها اللعب بين الأولاد . فقد بنت أمينة له ذات يوم بيتا من الرمل على شط الترعة بعد انحسار الماء . وصادت له هدهدا وأسماكا . وكانت مثل الحرباء في تسلق الأشجار فجمعت له التوت في حجرها وأسقطت له الجميز من فوق الفروع الوعرة . وعندما كانت شوكة تدخل في رجله كانت تخلعها بجرأة ومهارة ، وكانت تقوم بشئون أمه في الدار لما كبرت ، فلما تزوج (عزت) نزحت معه إلى القاهرة ، فلم تكن حياتها في المدينة إلا امتدادا لحبل الوفاء في عهود العمر كله ، حتى نسيت أنها ولدت في بيت آخر .

أما شكرى فقد أحس بعد وفاة أمه بحزن عبر عنه بالدموع ، ثم بالتأمل بعد ذلك .

كان لا يحس إحساسا متكاملا إلا بما هو في متناول (حواسه) أما الخيالات بالنسبة للماضي ، والخيالات بالنسبة للمستقبل — فلم يضمر لها احتراما ، والذى انقضى قد انتهى . لن يرجع ، أما الذى سيأتى فإن هناك أسبابا ترتبه ولن يخرج الجنين من بطن أمه إلا إذا تكافلت الأسباب لكى يصرخ الصرخة الأولى على الأرض ، كان أشبه بجهاز (الكترونى) يؤدى أعماله في روعة يدهش لها . حتى الذى اخترعه !

فلم تكن مشكلة الموت عنده (بالنسبة للغير) مما تثير في نفسه هما عميقا يفور كلما حركته ذكرى تتصل بهذا الغير . لذلك فإنه بكى لسرعة التحول بالنسبة لهذا الكائن العزيز . بالنسبة لأمه .. فقد كانت تتكلم وتتحرك منذ هنيهة ، وتسكن مكانا فوق سطح الأرض ، وبعد ساعات رآها متوقفة عن الحركة ، تدس في حفرة ليتاح لها الزمن الكافي الذى تتحول فيه إلى تراب .

لذلك عاش مع الأحياء بعد حادث أمه بأيام ولم يكن يسوؤه في البيت إلا منظر أخته .. كان يهاجمها باسم الشفقة عليها ، وهو في الواقع متذمر من الحصار البائس الذى ضربته حوله أخته بمنظرها المنزوف ، وعينيها اللتين تشبهان عيون المرضى باليرقان ، وثوبها الأسود الذى تضيقه حول جسمها كلما ذاب من وزنها جزء .

ولم يكن مستطيعا أن يهاجم والده في حزنه . لكنه كان يسأل نفسه : « إذا كنا نستطيع أن نستعيض عن الذى ضاع ، فلماذا نحزن عليه كثيرا ؟ إن أبى قادر على أن يعمل عملا يعزيه عن أحزانه » ثم يبتسم فى خلوته ويسترسل فى أفكاره : « إن ما نسميه الذكريات قد يعرقل حركتنا نحو الأمام . وقد تكون هذه الذكريات التى يقدسها بعض الناس أشبه بجثث الموتى فى بواخر المحيط .. يجب أن نرميها فى الماء فورا » .

وتلفت حوله كأنما خاف أن يسمع أحد أفكاره . إن والده قد احتفظ بالثياب التى خلعتها الأم بيديها . لأن فيها رائحة عرقها ! ..

ثم سأل نفسه : وماذا تفعل لنا رائحة العرق ؟ .

وتحسس ذقنه العريض وحملق فى الهواء طويلا حين تصور والده يتلصص إلى صوان ملابس صغير فيخرج القميص ويشمه ثم يبكى !

ثم تذكر (قميص يوسف) وعينى (يعقوب) اللتين تلفتا من البكاء فدق قلبه فى تأثر نوعى لهذا المنظر : « إنها أعمال لا تخلو من سذاجة نفسية لكننا قد نتأثر بسذاجة السذج .. ولماذا نعتبر الموت مشكلة إذا كانت قريبة منا ؟ ! إن ناسا يموتون فى الهند كل يوم فهل نحس أن مشاكل قد وقعت فى بلاد الهند ؟ ! » .

وابتسم مرة أخرى . وقام فلبس وأخذ كتابا وخرج .

* * *

وكان الوقت لا يجاوز الساعة العاشرة صباحا والشهر أبريل واليوم جمعة .

وقبل ذلك بساعتين أو أكثر كان الأب قد خرج من البيت مدفوعا بلهفة أرقته طول الليل ، ذهب إلى حيث جلس فى صمت فى حوش المقبرة على كثب من امرأة ظلت وفية له تسعة عشر عاما .

وكان يسترجع المشاكل التى تقف بالمرصاد عادة للأب إذا صار أبا وأما ، يسترجعها وهو فى هذه الجلسة فيحس كأن الأفكار التى تهبط عليه هنا ليست إلا نتيجة مشاورة تبادلها مع زينب تحت ظل الصمت الشامل .

وفى نفس هذا الوقت ، كان شكرى قد وصل إلى بيت كامل صديقه الطالب بكلية الحقوق .

وعندما فتح كامل لصديقه ، ورأى وجهه قطب كأنه فوجىء بأمر ، ولم يكن ذلك إلا لدلائل الضيق الذى يبدو وكأنه نقش سطورا على جبين شكرى . ولما استقر بهما الجلوس فى إحدى الحجرات لم يسع شكرى إلا أن يعلن أن حياتهم المنزلية أصبحت لا تطاق ، فهتف زميله وقد اتسعت عيناه :

ـــ هل بدأ أبوك يفكر فى الزواج ؟ ! .

فابتسم الآخر من بعد الشقة بين الفكرتين وقال له :

ـــ لا ... لكن مظاهر الحداد تكاد تخنقنى يا كامل .

فهز الآخر رأسه فى صمت بلا تعبير ، وقام فانفرد عوده الطويل ، ثم مضى إلى حجرة أخرى ، وعاد يحمل فطيرة بقيت مما اشتراه صباحا فأخذ شكرى يأكل فى صمت وعينا صديقه السوداوان القويتان المتربصتان تحت حاجبيه الكثيفين ، تموج فيهما أفكار مبهمة .

ثم قام الضيف ويداه ممدودتان أمامه وأصابعه ملوثة بالزيت . مضى إلى دورة المياه ليغسل يديه ، ولما رجع كانت ضحكة بلا صوت تقف عند شفتى كامل ، ومعان ولكن بلا توضيح تترقرق فى صفاء عينيه، ووجهه الأسمر الطويل ذو الأنف المعقوف قد احتقن فاحمر .. وكانت الدهشة لا تزال واضحة على وجه شكرى ، ومع التقطيبة التى تكرمش منها الجبين ولدت الابتسامة العريضة المألوفة ، كأن لعابا يكاد يسيل من أحد جوانب فمه ، ورعشة خفيفة أدركت كفيه اللتين أعاد تجفيفهما فى منديله .

ثم قال :

ـــ غير معقول يا كامل أن تكون هذه هى حرفتها الوحيدة ... كان وجهها إلى وأنا داخل عليها وطشت الغسيل بين ساقيها وثوبها المبلول منحسر عن الركبتين .. ف .. فأخذتنى دوخة !

فأمن كامل على كلام صديقه بهزات من رأسه ، كأنه كان يتحدث عن شيء عادى مثل روائح الصيف مثلا ، فى الوقت الذى استطرد فيه الآخر :

ـــ إننى لم أرها عندك قبل اليوم فهل هذه هى المرة الأولى ؟

ـــ بل الثانية . (وقال بإهمال) :

إنها لم ترفع إلى عينيها وإن لم تحاول أن تغطى ركبتيها .. فهل هى ذات مهنة واحدة ؟ !

فاضطجع كامل على كرسيه ومد ساقيه حتى زحم فضاء الحجرة ثم سأل بصوته المتراخى الخالى من الحماسة :

ـــ ألم تر شيئا غير الساقين ؟ !

ـــ وأنت ؟

فأجابه ضاحكا :

ـــ أقصد أن أسألك ألم تر وجهها عند دخولك عليها ؟
ـــ وجهها كله ؟ ! .. لا بالطبع .
فتنهد الآخر من صدر عريض ، وقال وهو يتحسس شاربه :
ـــ الحقيقة أن هذه هي أول مرة ألقاها فيها . حين بعث إلي بها كواء الملابس حسبتها امرأة أخطأت الطريق .. غلطت في العنوان . وإذا استثنيت منظر يديها الشديدتي اللمعان والحمرة من كثرة العمل اعتبرت كل شيء فيها سويا . وعلى الرغم من أنها في خريف العمر فإنها ثمرة لا تزال تحتفظ بعصارتها .
وسكت ، ثم ابتسم ، وعاد يتحسس شاربه ، ويقول بصوته المتراخي الكسول الخالي من الحماسة : « وعلى كل حال ... فإن ساعة التجربة لم تحن بعد ... » .

* * *

وفي الوقت الذي عاد فيه الأب من زيارته لقبر زوجته وضع ابتسامة زائفة على شفتيه . وقابلته سوسن بابتسامة من نفس النوع ، وسألته أين كان فكاد يقول لها « إن من كنت عندهم يهدون إليك السلام » فابتلع ريقه وهو يتسم ، ولفق لها كذبة . وتركته ومشت تتهادى إلى المكان الذي أعدت فيه المفاجأة لأبيها . ثم رجعت خالية اليدين ووقفت في ثوبها الأسود ... ويداها إلى الوراء تتكلم بمرح من يحاول أن يزيح عن قلبه هما ، فقالت لأبيها :
ـــ لقد أعددت لك مفاجأة يا بابا .. فهل تستطيع أن تخمن ما هي ؟
فنظر إليها بعينين تشعان حبا وعطفا ومعرفة ، ورأى تزاحم شعر قصتها الأسود على جبينها الشاحب ، ثم قال وهو يزم شفتيه ويهز رأسه ببطء :
ـــ أنا أعلم أنك تعدين لبابا كل شيء جميل ...

فقالت ولم تغير من وقفتها :

ـــ خمن إذن !

فسكت كأنه يفكر ثم قال :

ـــ سهلة .. حاجة .. ستجعل الابتسامة تنطبع على شفتى بابا .

فأحست أن الدموع على وشك أن تهزمها . هل المفاجأة التى أعدتها لأبيها ستطبع ابتسامة على شفتيه حقا ؟ ! ... ربما .. لا . لكن الذى لا شك فيه أنها عملت ما يعزيها كما كان هو منذ ساعة مشغولا بما يدخل على قلبه العزاء . ولم نلبث أن انسحبت فى هدوء نحو حجرة أخرى وعادت وبين يديها شيئا على صدرها كأنها أم تحمل طفلا . أسطوانة من الورق مطوية ... بسطتها فكانت صورة بالكربون مكبرة عن صورة فوتوغرافية ، ولسنا بحاجة إلى أن نقول أنها صورة أمها ..

وكان كل منهما ممسكا بطرف من الصورة حتى لا تسترد وضعها الأسطوانى ، والأب مشغول بتفحص الملامح فى تجاه النافذة ، فى الوقت الذى كانت الفتاة فيه تتفحص ملامح أبيها وتنتظر الحكم .

كانت محاولة لا تخلو من التوفيق ، لكن الأب أحس بعد وهلة أن قلبه يدق حين خيل إليه أن الموت الذى يغير حقيقة الناس قد يزحف بطريقة ما على ما تركوا من صور ... لماذا لا تكون هذه صورة زينب ؟ إنه نسى ملامحها ... إنه يجهد نفسه فى النور والظلام ليستعيد تفصيل قسماتها ، حتى يخيل إليه أنها لو عادت إلى الحياة ما عرفها .

لكنه ما لبث أن أفاق من أوهامه ، وانطبعت الابتسامة على شفتيه ، وهتف لبنته قائلا فى حماسة :

ـــ رائعة ، رائعة ... إنها أحسن تذكار يمكن أن تحتفظى به فى مكتبك .. لكن .. (وزاد ابتسامه) ألا تحسين يا حبيبتى أنك فى حاجة

كبيرة إلى الوقت ؟ ! ...

وجذبها من يديها فأجلسها إلى جنبه ، ومال نحو وجهها فأزاح شعرها وقبل جبينها .

وبدأ يفحصها كأنها صورة :

ـــ آه يا سوسن ... هل تحسين كم أنت عزيزة على ؟ ! أريد أن أخلع عنك هذه الملابس السوداء ، إنها إطار من المرض لشبابك الحلو ، لكن اسمعى ... لنفرض دائما أن ماما معنا ، وأننا نأخذ رأيها فيما يعترضنا من مشاكل . ألا ترين هذا جميلا يا سوسن ؟ !

ـــ جميل يا بابا ..

ـــ أذن فماذا يكون رأيها بالنسبة لحالتك هذه ؟ طبعا هى لا ترضى ، وبعد ذلك فأنا أرجو أن تشاركينى حجرتى منذ الليلة ، الحجرة ذات السريرين . إن ساعات الأرق تضايقنى ، ربما ناديت أحدا فأراك قريبة منى .

وأنزل ذراعه من فوق عاتقها ، وحاول أن يقول مبتسما :

ـــ ما رأيك اليوم ، ألست تجدين فى بابا وماما فى وقت واحد ؟ قومى يا حبيبتى واخلعى هذه الملابس السوداء ، قومى .

* * *

وفى هذه اللحظة فى بيت آخر كان هناك امرأة تلبس ثيابها السوداء متأهبة للخروج بعد أن اغتسلت مما أصابها .

وقدم إليها (كامل) نقودا بعضها منه وبعضها من شكرى . وقدم إليها أخيرا ورقة ملفوفة على هيئة أسطوانة أيضا بداخلها شىء .

ولما خلا البيت إلا منهما تراخى كامل جالسا فى شبه نوم ، ومد ساقيه فزحم فضاء المكان ، وجعل يتكلم وعيناه مغمضتان ، بصوت متراخ خال

من الحماسة :

ــ ألم تر فيها فاكهة بها بقية من عصير كما قلت لك ؟ . عند بدء المفاوضات كادت تتمنع ... لكننى أعرفهن ..

وتأوه وسكت فظن زميله أنه نام ، لكن صوته انبعث بنفس النغمة :

ــ لعنة الله على الغرائز ... إنها تشق طريقها دون أن تستأذن أحدا ... إننى أشعر بألم مما فعلنا على الرغم من أن نظرات الرضا فاضت من عينيها وهى عند الباب ..

ثم تأوه وسكت كأنه نام ، والابتسامة الكبرى على فم شكرى تصنع خطا متوازيا مع ذقنه العريض ، وبعد دقيقة انبعث الصوت حيا نوعا ما فيه قليل من التحمس :

ــ اسمع يا ولد .. اسمع يا شكرى ... افرض أنها طلبت منا باسم أى شيء غير الذى أخذناه نصف النقود التى أعطيناها لها فهل كنا نرضى ؟ ما لك لا ترد . هل أكلت داتورة ؟ تبتسم فقط كأنك صورة كبيرة على إحدى لوحات الإعلانات ... إننى قرفان ... لماذا ؟ ؟ أرأيت كيف أن الإحساس الروحى بشيء ما يولد ما يشبهه فى الأجسام ؟ ! لماذا لا نستعمل هذا ضد غرائزنا ...

ــ ألست أنت الذى راودتها أيها النبى ؟ !

ــ كلمة حق . آه ...

واستطرد وهو فى نفس الوضع ، وبنفس الصوت :

ــ هل تسأل عما أعطيته لها ملفوفا فى جريدة ... إنه بنطلون قديم .. إن لها ابنا يتعلم فى المدرسة . يا لها من حكاية ؟ !

ــ وهل تعلم ابنها يعتبر حكاية ؟ !

ــ تصور أنه نجح فى حياته وأصبح رجلا هاما وعرف بطريقة ما

ما صنعت أمه من أجله فهل يصنع لها تمثالا يضعه في مكتبه ويدعو الله (إن كان يعجبك هذا التعبير) أن يبنى لها قصرا فى الجنة ؟ .. آه ... أريد فصا من الليمون . إننى قرفان ...

وهنا طار الخيال بشكرى إلى شخص أمه التى بدت دائما فى صورة شيء نظيف لين ناعم هادىء كجدول من اللبن الحليب .. هل كان ذلك لأن طريق حياتها كان خاليا من الأحجار ؟ ، وبناء عليه .. فقد بنى الله لها قصرا فى الجنة ! ؟ ...

« ليرحمها الله » .

قالتها ثلاثة أفواه من أجل « زينب » قالها الزوج والأبن والبنت .

ثم : « ليرحمها الله » .

وقالها فم واحد بعد أن صار وحيدا فى المكان .

ذلك هو فم كامل . وكان يقصد بها المرأة التى خرجت من بيته من ساعة واحدة والله يفحص هذه الدعوات ليتقبل ما يشاؤه .

— ٥ —

الساعة جاوزت منتصف الليل ، وكل شيء فى البيت ساكن ، والأب فى فراشه منذ أكثر من ساعة ، فى الحجرة ذات السريرين .. هو فى أحدهما والآخر في انتظار سوسن لتشغله بعد انتهائها من المذاكرة ، ولأول مرة بعد وفاة أمها .

ولم يستطع الرجل أن يذوق النوم ، كان شيء من الحنين إلى رؤية الغائبة يخالط قلبه ، ولما أحس بتعذر المطلب قام إلى الشرفة ففتحها وتراءت لعينيه المناظر التى طالما شهدتها عيون أربع غابت منها عينان .

ولم يكن فى الشارع أحد ، والمبانى الحكومية المواجهة بدت كأنها

مقابر ، والشجر يرسل وسوسة كتنفس النائم ، والأرض تلمع مثل الجدول الساكن ، فتنفس فى عسر ثم دخل .

ولما رقد ثانيا بدأ يسترجع ذكريات قديمة ، ذكريات حب وزواج وشعر كأنه يهوى إلى بئر فتسلل خارجا إلى الصالة متعمدا ألا يسمع أحد وقع خطواته ، ومن خلال الباب (الموارب) للحجرة التى يذاكر فيها أولاده . رأى مكتب سوسن ووجهها بجانب (الأباجورة) ، معتمدة بكوعيها على المكتب ، معشقة كفيها فى بعضهما مريحة جبينها عليهما فانحصر بين الابهامين .

وبدا وجهها الأبيض كوجه من الشمع ، ليس فيه شيء يتحرك إلا الأهداب ، وأحس بشيء يدفعه نحو هذا الوجه لينكفيء عليه ويقبله ، ثم يحتضنه حتى يدخله بين أضلاعه .

لكنه أحس برائحة سيجارة تنفذ من الباب ، وشعر أن سوسن متخذة جلسة المنفردين المطمئنين فرجح أن شكرى فى الشرفة ، فقد اضطجعت الفتاة على كرسيها تتمطى ، وحركت ساقيها حركة حرة فلم يسعه إلا أن يتراجع .

وظلت رائحة التبغ تملأ أنفه بعد أن عاد إلى فراشه ، وقال بينه وبين نفسه :

« إن شكرى يجرب كل شيء، إنه يدخن بالطريقة التى يأكل بها، ويحب بالطريقة التى يدخن بها ، فكما تتحول السيجارة التى يخفيها عنى إلى عقب يرمى به تتحول المرأة بين يديه إلى عقب كذلك .. لكن .. ربما يشعل العقب مرة ثانية .. لكن .. ليس تفكيره فيها إلا من نوع تفكيره فى الدخان .

والذى لا شك فيه أن أمه رأته وهو يدخن ، وقد نهته عن التدخين

وحاربته لكنها لم تشكه إلى » .

ثم استرسلت أفكاره :

ـــ حسن .. كل منهما يملك قلبا وميولا ، لكن .. هل أمنحهما من الحرية قدرا متساويا ، ثم أمنح نفسي وبالتالى قدرا من الطمأنينة بالنسبة لهما ولمستقبلهما متساويا كذلك . آه ... وما الذى كان يحدث لو أننى رأيت الدخان ينبعث من فم سوسن ؟ ! آه ... إذن كيف ربانا آباؤنا يا ربى ؟ ! » .

وتوقفت أفكاره فانقطع عن الماضي والحاضر والمستقبل . ثم انبعثت فجأة كما يعود التيار فهتف بصوت مسموع :

« زينب .. أين أنت يا حبيبتى ؟ ! » .

وفى هذه اللحظة انفتح الباب برفق وانسربت سوسن فى طريقها إلى الفراش ، ولم يتكلم الأب فقد جعله فوران إحساسه عرضة لأن يظهر بمظهر ضعيف ، واستلقت الفتاة فى فراشها ولما فكر بروحها شعر أنها الليلة فى غربة .

وظل كل منهما مستيقظا وهو صامت . ومضى ما يقرب من ثلث ساعة ، كان الأب متلهفا فيها أن يسمع انتظام أنفاسها فى النوم ، أما هى فكانت تتقلب فى هدوء مرجحة أن والدها نائم وفى اللحظة التى كانت عيناها تقرآن فى الظلام تاريخا سطر على الجدران على حياة أبويها سمعت صوت والدها ينادى فى حذر من لا يريد أن يوقظ نائما :

ـــ سوسن .

فأجابت بصوت لم يخالطه النعاس :

ـــ نعم يا بابا .

ـــ حسبتك نمت .

ـــ وأنا أيضا حسبتك نمت .
ـــ هل نام أخوك ؟
ـــ لا ...
ـــ هل ضايقك تغيير المكان شيئا ما ؟
ـــ أنا سعيدة ما دمت قريبة منك !

فابتسم ، وإن لم تر ابتسامته ، وفى خلال الدقيقة التالية حاولت أن تقول لأبيها شيئا فلم تفلح ، لكنه أنقذها من الموقف حين قال :

ـــ سوسن ... عندى اقتراح ...

كان كل منهما لا يرى الآخر لأن الظلام كان شبه كثيف ، لكن الأب كان يحول نبرات الصوت إلى معان يركبها على وجهها الذى عرف ملامحه فيبدو كأنه يراها فى النور :

ـــ عندى اقتراح يا سوسن ...

ثم تحول صوته إلى نبرات مبتسمة :

ـــ سأفعل معك ما كانت تفعله معك (ماما) وأنت صغيرة ما دمت قد شاركتنى الحجرة ... ما رأيك ؟ ... فى أن أحكى لك حكاية كل ليلة قبل النوم ... وأنت كذلك ستحاولين إذا ما كان (بابا) عاجزا عن أن يقول شيئا أن تعملى مثل عمله فتحكى له شيئا ...

وسمع منها ضحكة ليست إلا مزيجا من العجب والشكر فاستطرد :

ـــ أنا شخصيا أحكى لنفسى حكايات قبل أن أنام، حكايات من واقع نفسى أعيدها على نفسى أو حكايات من واقع غيرى ، وقد تعودت هذه العادة من أثر ذكريات قديمة ، هى أدعية ليلية كانت أمى القروية ترددها فى الظلام فى صوت مهموس ، تكبره خيالات الطفولة مليون مرة . كانت تستغفر الله فأشعر أنها تحاسب نفسها . أو تعوذ به من المفاجآت

المجهولة فتقول : « يا باسط الأرض يا رافع السما ، اكفنا شر الديب إذا دبا ، وابن الحرام إذا حبا » .

ويتكرر الدعاء يا بنتى ، وربما يكون هواء الشتاء فى هذه اللحظة يعابث سماعة الباب ، ثم يخفت الدعاء شيئا فشيئا ، ويجسم لى خيالى « الديب وهو يدبى وابن الحرام وهو يحبى » وأتفاعل مع هذه الأشياء حتى يخطفنى النوم .

نعم كنت أشعر أن أمى تحاسب نفسها ، لأنها كانت متدينة وتستغفر الله بحرارة حتى إذا ما سألها أبى أن تكف وتنام قائلا لها : إن هذا يكفى .. لأن الفرق بينه وبيننا أنه يعطى الكثير ويرضى منا بالشكر القليل .. كانت أمى تجيبه :

ـــ ألم أكن ظالمة لفلانة حين عملت كذا أو ظالمة لفلان حين عملت كذا ؟ كأنها كانت تحس عند دخولها فراشها بإحساس من يرجح لديه أنه لن يستيقظ ، ولذلك كانت صادقة فى كل ما تبتهل .

ـــ اتفقنا يا بابا ... ابدأ إذن بالحكاية .

فضحك كأنه خلى البال ، وسألها :

ـــ وهذا الذى قلته عن جدتك ... أليس داخلا ضمن الحساب ؟ إذن فاسمعى حكاية الليلة :

ـــ ضحكت اليوم فى الديوان كثيرا ... وبكيت . كانت الساعة الثانية عشرة حين سمعت صراخ امرأة فى الطرقة التى تفتح فيها حجرتى ، وتعجبت لأنه ليس هناك ما يدعو إلى وجود النساء فى هذه المنطقة فضلا عن صراخهن ، وخرجت لأرى ما الذى حدث فإذا امرأة قصيرة كأنها حرباء تتعلق برقبة أحد السعاة فى معركة رجحت كفتها فيها .

ورأينا فى عنقه أثر عضة . وعلى ملابسه بلولة من سائل رجحت أنه لبن

حين رأيته مراقا على البلاط . وعلى الأرض بقايا زجاجة مكسورة ، والتف السعاة حول المرأة وأخرجوها من ساحة الديوان . ولما سألنا عن التفاصيل تبين لنا أن هذا الرجل قد تزوج بامرأة أخرى بعد أن عاشر الأولى أكثر من عشرين عاما ، وأنجب خمسة غير الذين ماتوا ، وأنه كتم عنها الحقيقة حتى كشفتها بنفسها .

كان يدعي لها أن ليالي (النوبتشية) كثيرة ، لأن أحد زملائه قد مات ، واثنين قد نقلا ولم يعين بدلهما بعد . وكانت زوجته الجديدة عجوزا غير محتاجة للمال ، ولكنها محتاجة ولو إلى نصف رجل . ولما وجدت طلبها في هذا الساعي لم يحدث خلل في ميزانيته هو بعد زواجهما ، لكن الزوجين حين يتحدثان أو الصديقين أو الأليفين يستطيع كل منهما (إذا ملأ الآخر كل نفسه) أن يشعر ببدء الانحسار أو التزحزح ، ويشعر بالتالي يا ابنتي كأن هناك قطعة من النفس أخذ ظل الحب في التراجع عنها .

ــ كل الناس يا بابا ؟ !

ــ نعم ... كل الناس ... ماذا كنت أقول ؟ نعم ...

ولم يمض على حادث زواجه شهران حتى خرجت المرأة في إحدى ليالي (نوبتجية) ، وحضرت إلى الديوان فعلمت أن (نوبتجيته) في مكان آخر ، وبواسطة إحدى الجارات من اللاتي أحرق الرجال قلوبهن عرفت إلى أين يذهب زوجها . ثم بواسطة إحدى الدلالات عرفت اسم الزوجة وكل ما يتعلق بها .

ولما قررت أن تفضحه في مكان عمله كانت راجعة من المستشفى بطفل صغير ، ولقيها على رأس السلم أحد السعاة الذين نقلوا ... (كما زعم زوجها) ومن فضل الله أنها لم تكن تعرف وجه الذي زعم أنه مات ،

لكن رؤيتها شواهد أخرى للخديعة أطاش صوابها خصوصا ، لأن في يدها طفلا مريضا ، وحاولت أن تضرب زوجها بزجاجة الدواء فسقطت الزجاجة على الأرض . لكنه ظل موضع تفكه للسعاة والموظفين طول النهار ، وسيبقى لأمد طويل ...

عند ذلك سألته الفتاة ، وهى تضحك :

ــ وهل سيظل يعاشرها بعد الذى حدث ؟

ــ القديمة أم الجديدة ؟

ــ لا الجديدة !

ــ ها . ها . ها .. أنت إذن فى صف بنات جنسك . على كل حال إن التي ترضى لنفسها أن تملك نصف رجل ربما رضيت أن تملك ربع رجل فالمسألة مسألة مبدأ وهى ملومة بلا جدال . لكن يا بنيتى لقد نسيت طبيعة الرجل حين سألت عن موقف (الجديدة) . إن (القديمة) ، ولو أنها معذورة نسيت أن عناد الرجل يثور إذا أهانت امرأة كرامته ، حتى ولو كان يأكل من كفها ، وأنا أراهن أنه سيطلق القديمة ..

فشهقت الفتاة سائلة :

ــ والأطفال يا بابا ؟

ــ ضحايا حرب ، الحرب الصغيرة والحرب الكبيرة لكل منهما ضحايا .

فمصمصت بشفتيها فى أسف ، على حين استطرد الأب بعد سكتة قصيرة :

ــ لا بد أن هذا الرجل قد وقع تحت إغراء .. نعم .. الإغراء يا حبيبتى ينفذ من أضيق طريق ، ثم يحاصر الإنسان كالغاز السام . اسأليني يا سوسن ماذا كنت أصنع لو أننى مكان هذا الرجل .

ـــ نعم يا بابا ...

ـــ كنت لا أهرب من نفسي . كنت لا أهرب أبدا .. لقد هرب هذا الرجل من نفسه قبل أن يهرب من زوجته الأولى . فلو أننا حاولنا بقدر ما نستطيع أن نفعل في العلن ما نفعله في السر لخنقنا في نفوسنا بلايا كثيرة . كنت ـــ لو أنني مكان هذا الرجل ـــ أقول لها ذات مساء :

« اسمعي يا سيدتي .. إنني سأتزوج امرأة لن تقاسمك دخلي ، ولكنها ربما قاسمتك نفسي ؛ لأنني أطمع في مالها ، فضلا على أنها عجوز تريد أن تسمع فقط وقع أقدام رجل ، وهو يصعد إليها السلم ... » .

وعندئذ يا سوسن يمكن لي أن أزن المعركة ، أما الغش فهو أقبح ما في الوجود .

ثم سكت ، وتنهد قبل أن يقول :

ـــ تصوري مثلا .. مثلا .. أن شكري يخفي عني إحدى العادات التي تتسلل إلى الشبان في ربيع عمرهم .. فأي الموقفين أشرف : أن يقول لمن هو أكثر منه دراية في الأسرة إنني وقعت تحت سلطان عادة سيئة ، سأحاول التخلص منها . فيعاونه الذين يحبونه ، أم يداري عيبه في سذاجة حتى يكشفه الناس ؟ !

فأجابت كمن اضطر إلى الكلام اضطرارا :

ـــ الأول أحسن .

ـــ ها . ها . أنا متأكد أن الاعتراف شيء ثقيل ، لكنه من جهة أخرى طبيعة نفسية يا سوسن . وكبت هذا الميل ليس إلا البذرة الأولى لما يخلق تأنيب الضمير أو القلق القاتل ، آه .. ولو تذكرنا سلفا أننا سنعترف لترددنا على الإقدام ، حتى ولو كان الإغراء عظيما .

ـــ تمام .

ـــ ومن الممكن بهذه الطريقة أن نتيح لأنفسنا يقظة لا يشوبها قلق ونوما لا يشوبه كابوس .

ثم ضحك كأنه يعلن انتهاء الكلام ، ثم سأل :

ـــ ما رأيك فى حكايات با .. با ؟ ..

تقولين إنها جميلة .. ها . ها . كل فتاة بأبيها معجبة وأنا كذلك معجب بك . أما آن لك أن تنامى ؟ .. إن الساعة قد قاربت الواحدة وستقومين مبكرة من النوم . طاب مساؤك .. هل تسمعين قبلتى (ومصمص بشفتيه) . تصبحين على خير .

ـــ وأنت من أهل الخير .

ونامت الفتاة ، وإن بقى الأب ساعة أخرى يفكر فيما عسى أن تدخره الأيام حتى سمع وقع أقدام شكرى وهو فى طريقه إلى مخدعه .

ـ ٦ ـ

وفى صبيحة هذا اليوم رقى الأب إلى وظيفة جديدة ..

إلى المكان الخالى على المكتب ذى البلورة كوكيل لإدارة المساعدات ، وكان لطيب سمعته ، وجميل أخلاقه المكانة الأولى فى الوصول إلى هذا المركز ، وحتى حاسدوه لم يجدوا ما يستطيعون أن يقولوه عنه .

على أنه عندما بلغه هذا النبأ لم يستطع أن يتبين حقيقة شعوره فقد كان إحساسه بالمسألة ذا أعماق وأبعاد ، وهو قبل كل شىء رجل مرهف تؤلمه بلايا الناس ، وهو بعد كل ذلك يعانى من فقد زوجته حالة وجدانية ، ربما كان عمله الجديد معها بمثابة إلقاء حطب على النار .

لكنه قال فى نفسه بعد أن استقر على مكانه وتطلع إلى زخرفة السقف وألقى نظرة على وجهه الذى انطبع على بلورة المكتب :

« لماذا لا يكون هذا عملا قد انتدبنى له الله . إنى أرى دموع الناس كثيرة ، وليس فى استطاعة رجل واحد ــ حقيقة ــ أن يسكت أنات الألم فى المجتمع من حوله ، لكن لماذا لا يكون موقفى كموقف الدكتور (ميد) فى قصة (ذهب مع الريح) حين كان فى ساحة الجرحى يعمل وحده بمبضع غير معقم وبلا عقاقير مخدرة ، ثم هو بعد ذلك لم يتأخر عن إغاثة امرأة تلد لينزل مخلوق جديد إلى الأرض التى كانت دماؤها تنزف فى ذلك الحين » .

ثم استغرق فى شرود أنساه حتى دقات جرس التليفون ، فلما رفع السماعة كذب أذنه ، لقد سمع صوتا نسائيا كان آخر صوت يتوقع أن يسمعه هنا .. إنه يشبه صوت ابنته سوسن إلى حد كبير ، وبعد برهة قلقة عرف أنها هى :

ــ لقد طلبتك فى الرقم المعهود يا بابا فقيل لى إنك هنا .. خير إن شاء الله .

ــ خير .. وستعرفين التفاصيل عند الظهر ، قولى أنت .. ماذا حدث ؟

فأجابته بنبرة لينة :

ــ كل الذى حدث أن الخادمة الصغيرة هربت ، واكتشفنا أنها سرقت بعض النقود ، وشكرى يريد أن يتخذ معها إجراء قاسيا .

فقال الأب بهدوء :

ــ لا تعملوا شيئا حتى أرجع .. حسن .. مع السلامة .

ثم أطرق واستغفر الله ، لأنه كان منذ لحظات يفكر فى بلايا الناس ،

وأزاح عن رأسه هذا الخاطر الذى قد يثير القسوة ، ثم استدعى الموظف الذى يتلقى طلبات المساعدات . وطلب منه أن يضع على مكتبه كل ما عنده من حالات تحتاج إلى بحث .

فماذا كان فى أول ملف حين أخذه هكذا جزافا من بين الملفات ؟ ظل يقرأ ويقطب ما بين حاجبيه ، حتى أخذت سحنته هيئة المحزون ، فالورقة الأولى طلب فيها إعانة الحالة الاجتماعية لصاحبة الطلب (فاطمة وهدان) التى انفصلت عن زوجها وعادت إلى بيت أبيها .. ثم انفصل عنه أبوها بعد عودتها بقليل . مات ولم يترك شيئا إلا فاطمة وهدان بلا تركة وبنتين أخريين تتبعانها فى العمر ، وفاطمة فى الثامنة والعشرين من عمرها ، والأختان تأتيان بعدها ، يسكنَّ حجرة واحدة فى بيوت حى قديم ، وليس لهن مورد رزق منتظم ..

ومضى على تاريخ الورقة سنة كاملة ، وبعدها شهادات تعزز صدق ما جاء فيها ..

ثم ملف هاشم البناء .. البناء العجوز المتقاعد ؛ لأن قواه لم تعد تسمح له بأن يقف على (الصقالة) .. وليس له بنون وأقاربه الذين تجب عليهم النفقة يبحثون عن أقارب تجب عليهم النفقة ! والشيخة نبوية خادمة القرآن الشريف . الكفيفة التى تحفظه قراءة وتجويدا والتى آلت مهنتها إلى الكساد ، فلم تعد تقرأ فى مجتمعات المآتم بعد أن أخذ الناس يعرضون عن هذا التقليد لارتفاع نفقات المعيشة .. والأحياء خير من الموتى ، ثم ملف الطالب النبيه المجتهد الذى يؤمل إن هو وجد نفقات دراسته أن تأخذ منه مصر أحد الأعلام فى ميدان الفكر أو العلم ..

ثم أوراقا أخرى .. ومشاكل أكثر من الحلول ، وأمراضا أكثر من الأدوية ، لكن الملف الأول حظى باهتمامه فقد تصور فاطمة وهدان فتاة

ذات قامة متوسطة مائلة إلى النحافة وعيناها السوداوان ناديتان . مثل السماء المغسولة وفي عنقها وردة في لون الفيروز ، وعلى أهدابها الكثيفة حلم متخلف كأنه تجمد من ليلها الخادع أو دهرها الخائن ، وهي بعد ذلك تلبس فستانا من الحرير أسود ناصل اللون ، وإذا رفعت يدها ظهر فتق صغير تحت إبطها الأيمن !

ولم تكن هذه الصورة في واقع أمرها إلا صورة بنته سوسن ، تنكرت في هذه الأسمال بفعل يد خفية هي خوفنا على ذريتنا من الدهر ، فضغط الجرس فدخل عليه عثمان أفندى بطربوشه المحبوك وسترته المزررة ، فأمره باستدعاء صاحبة هذا الملف بخطاب لمقابلته ، وتجديد طلبها مرة أخرى .

* * *

ولما وصل الأب إلى البيت وقت الظهر رأى على وجه شكرى ملامح قاسية ، وفي عينيه نظرات كأنها مثقاب ، فقد كان التصميم على الانتقام منطبعا فوق جبينه الذى جعده الغضب ، وكتفاه العريضتان الفارعتان مرفوعتان إلى أعلى كأنه يعاني بردا . وأطرافه تتحرك حركات بلا إرادة . يوقع على الأرض بدقات قدمه ، أو يفرقع أصابع يديه ، أو يهز ذراعه في الفضاء كمن توقف له مفصل .

وأما سوسن فقد ظهر الأسف في عينيها ذات الأهداب الغزيرة التى وقفت فوقها الأحلام ، كما ظهر على شفتها السفلى تقلص لطيف يوحى بالخوف مما سيحدث .

لكن مرح الأب البادى ، والذى غلب عليه شيء من التكلف مضافا إليهما الخبر الجديد بوظيفته ــ جعل الفتاة تخرج من نطاق همومها ، فيشرق وجهها المنهك كما يفعل الهلال حين يتخلص من سحابة ،

وانطبعت الابتسامة الطويلة على فم شكرى ، واهتز مرتين وهو يعبر عن فرحه بالخبر كما يهتز الخياط حين يضغط مدوس الماكينة ، ولم يلبث أن عاد بفكره إلى الموضوع الأول قائلا :

ــ هناك اجراءات ضرورية يا بابا ، لا بد أن نعملها لصالحنا نحن ، أولها تبليغ الشرطة عن غيابها .. ثم تأتى مسألة السرقة ، أليس من صالحها هى أن تؤدب حتى تعرف فى كبرها الطريق الشريف .. صالح البنت لا صالحنا نحن ..

وعندئذ جاءت أمينة بقامتها القصيرة تمشى كأنها بطة ، وعيناها ترمشان بسرعة ، وهى تتكلم بتهالك وخوف ، ورجت سيدها الكبير أن يعفو عن السرقة ، فإن النقود نقودها هى ، وهى صاحبة الحق فى التنازل عنها (هكذا قالت) ، وحرام أن يحبسوها . إن بلدها قريب من الجيزة ، وربما عادت إلى أهلها .. ولها أب مريض .. وأختها ستتزوج ..

ثم بكت الخادمة ، واستطردت فى أسى :

ــ لقد كنت آخذها فى حضنى طول الليل كأنها بنتى ، وكثيرا ما غطيتها وهى عريانة .. لكنها خانتنى !

ثم استدركت بوجه طيب متوسل ، ولهجة من القرية والمدينة :

ــ ولماذا ألومها .. لماذا لا ألوم ابنى الذى عقنى ، وعافنى بعد أن حملته وربيته ؟ !

ثم أولتهم ظهرها وهى تلوح بيديها وتقول :

ــ دعوها .. دعوها ..

وعلى الغداء خفت حدة الموقف عندما تكلم الأب عن الشخصيات التى رآها فى محيط عمله الجديد ، فوصف عثمان أفندى المتحذلق المتأنق .. ونوفل أفندى الشكاك الخواف الذى اختلى به آخر اليوم العملى

ليسدى إليه النصيحة ، ويعرفه بطبائع الموظفين ، وما كان فى الحقيقة إلا رجلا يريد أن يخفف من مخاوفه الشخصية .

ثم تكلموا عن الامتحانات ، وروائحها التى تملأ كل مكان ، فانتفش شكرى كما ينتفش الديك متطلعا إلى نتيجة الجولة الأولى فى حياته الجامعية واثقا من أنه سيسجل نصرا ، وبرقت عيناه بوميض فيه توعد وتشف وهو ينظر إلى أخته التى اضمحلت وانزوت تحت هذه النظرة ، شأن غير الواثق من مضاء سلاحه .

إنها تعرف ما ينتظرها مثل ما يعرف ما ينتظره ، ليس أمامها إلا الفشل ، فى حين أن النجاح الباهر ينتظر العقل الإلكترونى الآخر .

وكانت نظرات الأب جانبية ، تنتقل بينهما وهما لا يشعران ، وقلبه يذوب من أجل الفتاة وعلى غلاف قلبه أحس بشىء من الزهو بهذا الإنسان الذى لا يعرف ما يسمى ذكريات ولا أحلاما ولا عطورا . وفجأة وجد الأب نفسه يقهقه وعيناه إلى المائدة فنظر إليه الفتى والفتاة وسألاه عما يضحكه ، فقال وهو يلفظ بعض بذور البرتقال :

ــ أتريدون الحقيقة .. الحقيقة يا أولادى أننى أضحك من شكرى .. إن إعجابى بذكائك يا بنى لا يحملنى أبدا على أن أحب خصالك . أنا أحب عقلك وحده .. أحب فيك ما تحت هذه الجمجمة . أما ما بين الضلوع .. ها ها ها .. ما بين الضلوع يا حبيبى .. فأنا أشك أن هناك شيئا معلقا ينبض بنفس الطريقة ..

وسكت الأب ، واحمر وجه الفتى حتى بدا غريب المنظر ، لأنهم يألفونه شاحبا كأهل الصين ، لكن الأب جنح بلهجته نحو الدعابة أكثر فأكثر واستطرد قائلا :

ــ لا يا حبيبى .. لا تغضب من أبيك .. فأنا مرآتك .. أريدك أن

تحارب نزعة الحسية فى نفسك ، لقد ضبطتك تنظر إلى أختك نظرة الشماتة سلفا . هبها رسبت ونجحت أنت فما هذا الذى تستطيع أن تأخذه من رسوبها حتى تعقد منه تاجا على هامة نجاحك . هل أنت من الذين يروى ظمأهم عطش الناس ؟ !

فاعترض الابن بشىء من التذمر :

ـــ أنا لست كما وصفتنى يا أبى .

فداوره الأب قائلا :

ـــ نعم ... أنت لست كما وصفتك ، ولكننى وصفتك بما أخشى أن تصير إليه . أنا واثق أن عندك ثروة من العقل ، ومتأكد أنها ستتيح لك حياة معيشية مريحة بحكم أنها أهم طاقة يستخدمها الناس فى الحياة لكن ... هناك جانب روحانى أنت صفر فيه .

ـــ لست قادرا على تصور ذلك .. ألا تخشى أن تظلمنى ؟ !

ـــ اسمع يا حبيبى لكى نخلص من المسألة يجب أن نفرض لها فرضا ، لنفرض أنك تاجر أزهار تزرع ما مساحته خمسة فدادين من الورد ، لتبيع إنتاجها لمعامل التقطير ، فهل تستطيع أن تخبرنى أى الشيئين أقدر على أن يرسم على فمك ابتسامة وقت الصباح ، أهو ذلك الحقل الكبير المليء بالورد ، أم أصيص أو اثنان تضعهما على حافة الشرفة فيهما نفس الأزهار ؟ !

فى الدنيا أشياء قليلة إذا قدرتها بالثمن كانت فى متناول كل يد ، لكن هناك قلة من الناس هم الذين يعرفون كيف يتمتعون بها ، وبالتالى كيف يسعدون ... فحقل الورد المعد للتقطير ، ولتوريد مبلغ من المال لا يجعلنا نتنفس ونبتسم كما تفعل أزهار الأصيص التى فى الشرفة .



فاعترض الابن بشيء من التذمر : أنا لست كما وصفتنى يا أبى

فاستغرقت سوسن فى الضحك شبه سعيدة ، ونظر إليها أخوها نظرة جانبية وزم شفتيه وقطب حاجبيه ، فاستطرد الأب يقول :

ـــ هذا ما أخاف عليكما منه .

ثم نهض عن المائدة التى ظلوا جالسين عليها بعد أن فرغوا من الأكل وقال وهو يشير بفوطة بيضاء :

ـــ إننى أعرف آباء تركوا لأولادهم ميراثا كبيرا من المال ، مع ميراث من البغض فأفلس أبناؤهم بعدهم ، وأعرف آباء فعلوا العكس فبنى الحب لأبنائهم قصورا فى الدنيا و ..

وسكت ، ونظر إلى شكرى نظرة ذات مغزى ، كأنه يقول له أكمل ، غير أن سوسن هى التى هتفت فى عذوبة :

ـــ وقصورا فى الجنة .

وتأوهت فى الوقت الذى دخلت فيه الخادمة أمينة لتجمع الأطباق من على المائدة .

ـــ ٧ ـــ

سهرت سوسن تذاكر وحدها بفكر مشتت وذهن غير حاضر ، فشكرى قد انتهى من امتحانه وهو الآن فى الخارج ، والأب ساهر فى النادى وليس فى المسكن أحد إلا هى والخادمة .

وأخرجت الفتاة مرآة صغيرة من درج مكتبها ، ونظرت إلى ملامحها ثم هزت رأسها وأسبلت أهدابها كأنها توافق على هذه الصورة ، ثم جرت بها الأفكار إلى الوراء .

نحو أمها الحنون ذات البسمة الملائكية ، تلك التى كانت فى حياتها مثل رفيق السفر الذى نزل فى المحطة التالية ، بعد أن ربط الود بينه وبين

جاره ، ونظرت نحو أبيها ، إنه عقل وروح .. يحمل الأمانة بجدارة ... ويعرف كل شيء في البيت ، بل وخيل إليها أنه يعرف خلجات نفسها ، كذلك ، فلو أن سحابة عابرة من التفكير أو الحزن طفت على وجهها ما تركها حتى يتقصى أصلها . وليست تنسى يوم شم رائحة الخلاف بينها وبين أخيها ، ولم يستطع أحدهما أن يقول له التفاصيل ، لأن الآنسة رأت أخاها مع إحدى الخادمات من سكان العمارة فى موقف غير مشرف ، فلما ألح الأب فى تتبع الخلاف ضحكت سوسن قائلة :

ـــ كل ما فى الأمر يا بابا ... أننى رأيت ثعلبا يخطف أرنبا ..

فوارى الأب وجهه بالصحيفة التى كان يقرأ فيها آنذاك ، وغمغم قائلا وكأنه لم يفهم وعيناه مستورتان عن ولديه :

ـــ نعم . نعم .. هذا صحيح ... إن بساتين الوزارة القريبة منا لا تخلو من الثعالب ..

ولم يكن لذلك من أثر إلا أنه سمع زمجرة مكتومة من شكرى ، وضحكا يصدر من الفتاة فقال الأب :

ـــ على أن خطف الثعالب للأرانب مسألة طبيعية .

ثم استدرك مسرعا :

ـــ ما دام الثعلب والأرنب حتى اليوم تحت قانون الغابة .

ثم ساد صمت لم يسمع فيه إلا خشخشة الصحيفة ، وأطلت عين الأب من الزاوية التى صنعتها الورقتان ، ثم هبطت إلى تحت ، لكنه بهذه النظرة رأى الوجوم والوعيد واللون الشاحب على وجه ابنه والكرمشة تملأ صفحة جبينه ، وكتفاه مرفوعتان إلى أعلى نحو شحمتى أذنيه ، فتنحنح الأب ليبرد السكون ، وعند ذلك قالت سوسن :

ـــ طيب يا بابا .. لكن ما رأيك إذا كان الأرنب الذى خطفه

الثعلب .. ميتا ؟ ! يا ليته كان حيا ! ! ...

* * *

وضحكت وحدها حين عاودتها هذه الخواطر ، وتذكرت كيف انفجر أخوها يومئذ ، وكيف كان أبوها يكفكف من غضبه . وترامى إلى سمعها في لحظات الجدال صوت أبيها ، وهو يقول لابنه في أسف وامتعاض بعد أن قامت هي :

ـــ إننا مخادعون ... إننا نغفر للأذكياء والناجحين من الأخطاء ما لا نغفر لسواهم ، ليس كل الأشياء تتناول عن طريق الفم يا شكرى ... وحينما شاء الإنسان أن يرتقي عن الحيوان مرتبة جديدة زعم أن له حاسة سادسة . وهذه الحاسة ـــ التى ليس لها عضو ـــ هى أشرف حواس الإنسان .

ويومئذ قام أبوها مغضبا ، ثم خرج إلى النادى .

ثم وقفت ذكرياتها ، أخرجت من درجها شيئا آخر غير المرآة هى ورقة عليها رسم ، فضحكت كأنها معتوهة ، حين تصورت ما يقع لو رأته عين أخيها . رسم ثعلب يتشمم أرنبا ميتا مطروحا على الأرض ، وهو يرمز إلى الخادمة الجرباء ، التى رأته منزويا معها .

وعند منتصف الليل سمعت دورة المفتاح في الباب الخارجى ، ثم وقع أقدام عرفت أنها خطوات أخيها ، وألقى عليها تحية مختصرة من وراء الباب ، ثم آوى إلى فراشه .

وعاد الأب من النادى بعد عودة ابنه بقليل ، وألقى على سوسن تحية المساء ، ثم سأل عن شكرى وناداه بعد أن فتح عليه بابه بصوت لا يقلق من عسى أن يكون نائما ، فلما لم يسمع منه ردا قال يلقى التحية إرضاء لقلبه : « نمت .. طيب .. تصبح على خير » ورجع .

وتركت سوسن مكتبها وتبعت أباها إلى حجرة النوم لتساعده فى خلع ملابسه ، وكانت مشرقة الوجه ولو أنها مرهقة .. تحس بشيء من شفافية الروح ورضاها .. تلك الحالة من الطمأنينة التى تنبع من داخلنا عندما نجد شمعة فنضيئها فى البيت ، وقد انقطع تيار الكهربة .

وكانت سوسن تشعر . وهى تأخذ رباط العنق الأسود من والدها أن هذا الإنسان يخبيء فى زوايا نفسه إمكانيات قدرت على تعويضها عن الأم . فقبلته على جبينها ، ولمسته لخدها ، ونظرته فى عينيها حتى تكاد الروحان تمتزجان ، وسمرهما وهما فى الفراش كلما سمحت الليالى ، وعنايته بالسؤال عن وزنها أسبوعا بعد أسبوع ، ونهوضه من فراشه ليفتح عليها حجرة مكتبها ، واللمسة الملائكية التى أجراها على رأسها ليلة دخل فوجدها منكفئة على المكتب ، وقد غلبها النوم ، فلما استيقظت مذعورة وضع كفه على عاتقها وساقها للفراش ، وأخذه رأيها فى انسجام الملابس ، ونفقات البيت وجملة الميزانية ، واستصحابه إياها فى النزهات الخلوية ... كل هذا جعلها تحس أنها تتوسد فى حياتها فراشا من الزغب ، كالذى تنجده العصافير من ريشها لفراخها الصغيرة .

ولم ينقض وقت طويل ، حتى فرغت من العمل ، ودخلت إلى السرير الموازى لسرير أبيها ، كانت تسير بحذر حتى لا تقلقه لكنه قال بنبرة مشروخة كمن يعانى ألما :

ـــ خذى حريتك فإننى لم أنم بعد .

ـــ لماذا يا بابا ... هل هناك شيء يضايقك ؟ !

فاصطنع لهجة خلى البال ، واختلط صوته ببوادر ضحكة وقال :

ـــ أنا شخصيا ؟ لا . لكن حديث الليلة فى النادى كان قابضا للصدور ... هل تحسين بحرارة الغرفة يا سوسن . افتحى الزجاج ...

هل تريدين أن تسمعي حديثي ؟ غير أني أخشى عليك كثرة السهر .. آه .. كم وزنك الآن ؟ ! .. زدت كيلو واحـــدا ؟ ! .. حسن .. سأحكي لك ما سمعته !

* * *

« دخلت فتاة في السابعة عشرة من عمرها على إحدى محررات باب المشاكل الاجتماعية في مجلة من المجلات ، وكانت في حالة من الذهول جعلت المحررة تعجب من أن شيئا لم يصدمها في الطريق وهي آتية إليها ، كانت زائغة العينين ، بحيث لم تستطع عيناها الجميلتان في وجهها الأسمر أن تشارك بقية القسمات في التعبير عن المشكلة التي جاءت تأخذ الرأي فيها . قالت الفتاة وهي تبحث عن ريقها ، وتفرك كفيها في حجرها جالسة على كرسي لم تسند ظهرها إلى مسنده :

ــ جئت إليك يا سيدتي ... أعرض عليك ... قصة حب ... هو في الحقيقة ليس جنة ولا جنينة ... بل قطعة من الأرض الخراب ، حولها سور من الأسلاك الشائكة .

ثم أجهشت بالبكاء ، فقامت السيدة وربتت على كتفيها ومسحت على شعرها كما تفعل الأمهات ، وخدرت ألمها بكلمة مطاطة هي أنها كانت يوما ما في مثل عمرها وكان لها أخطاء ، لكن عيني الفتاة ارتفعتا إليها وهما مليئتان بخوف أكبر وجرت دمعتان على وجهها حتى وقفتا عند زاويتي فمها ، ورأتها السيدة وهي تبتلع ريقها مختلطا بدمعها وتكاد تهوى إلى الأرض فاستمرت في تهدئة ما بها حتى آن لها أن تتكلم ... » .

وسكت الأب قليلا ، ثم حملق في ظلام الحجرة فلم يستطع أن يرى شيئا من قطع الأثاث ، ولم يستطع بالتالي أن يرى وجه بنته . فتعمد أن يطول سكوته حتى خيل إليه أنها قد نامت ، أو أنها ليست في الفراش ، وأنه

إنما يحدث نفسه . وبعد برهة سمع صوتها خائفا كأنها طفلة تطلب المزيد من حكايات الجن بنبرة فيها الخوف والشوق :

ــ إننى أسمع كل ما تقول يا أبى ...

فتنهد واستطرد :

ــ قالت الفتاة : إننى يا سيدتى بنت لموظف كبير ، وقد أحببت شابا لا تعرفه أسرتى ، ولكنه مع ذلك جدير بأن يرضوا به زوجا لى فى الوقت الذى أصارحهم فيه بالأمر ... وكنت ألقاه ... وكان لقاؤنا بديعا ... خاليا من كل ما يشين . وليلة بعد ليلة كنت أحاول أن أصارح أمى بهذا الموقف ، لأن نصيحة الزميلات فى المدارس أردأ ما تستعين به فتاة .. نعم يا سيدتى .. لكننى كنت أخاف عينى أمى . إنها لم تمهد لى الطريق قط لأقول لها شيئا .. وطبعا لم أفكر فى أبى لأنه ــ وإن كنت أحبه كرجل ــ لم يدرس فى حياته إلا علم الاقتصاد ... فاعتمدت بذلك على سليقة المرأة ... لكن السليقة وحدها لم تكن كافية .. كدواء العطارين فى زمن الصيدلة ، حتى وجدت نفسى فى المأزق الذى تعتبره كل فتاة قمة المأساة .

وعادت تبكى بعينيها وفمها وأنفها ... كل ما فى وجهها كان يسكب دمعا ، غير أن السيدة هزت رأسها فى ثبات من يملك الرأى ونظرت إليها من خلف نظارة طبية رقيقة وقالت لها :

ــ إن القنطرة ما زالت موجودة بينك وبينه يا حبيبتى .. إنها لم تنسف بعد ، وما دام شابك صالحا وكريما فليتقدم إلى والديك ، ولن يضيره أنك تسرعت فى المنح ، وأنا مستعدة أن أقوم بدور الوساطة .

فعادت الفتاة تبكى بحرقة ...

ــ ولماذا تبكين أنت يا سوسن ؟ .

ـــ لأنه شيء مخيف ؟

ـــ نعم ... إنه شيء مخيف ... إذن فلنقطع هذه المأساة الدقيقة ولأسألك سؤالا : لماذا خلقنا الله من أب وأم ؟

ـــ لست قادرة على فهم السؤال .

ـــ أقصد ... لماذا لم يخلقنا بالطريقة التى خلق بها الطير أو السمك أو الشجر ؟ ! ذلك لأن أطفالنا يحتاجون إلى نوعين من القبلات كل منهما يمثل نوعا . قبلة الأب ذى الذقن الخشن وقبلة الأم ذات الخد الناعم .

إنه يا سوسن توزيع اختصاصات ... لقد كنت وأنا شاب أخص أمى بكل أسرارى ، وجعلت من حبها مستشارا لقلبى ـــ وكنت أحدثها عن مشكلاتى كما يتحدث المتصوفون .

فضحكت سوسن قائلة :

ـــ ولست أفهم هذه الطريقة أيضا .

ـــ يعنى نتحدث من وراء ستار ... وكنت لا ألقاها إلا فى الإجازات كما تعلمين ، وكنت أقيم فى القرية طوال الصيف . وفى لياليه الزاهية كنا نسهر تحت السماء ذات النجوم فوق سطح الدار ، وكثيرا ما كان يخلو بنا المكان يا بنيتى فأتوسد رجلها ، وأستلقى محملقا فى النجوم ، أو فى القمر ، مع ملامحها البيضاء الصغيرة ، وهى تنظر إلى وجهى فيلمس ذقنها صدرها الطيب ، ولا تمضى دقائق حتى يبدأ بيننا الحديث كأننا صديقان فصلت بيننا فترة من العمر . وعندما تبدأ أناملها فى تحسس شعرى أحس كأنها ضغطت على زر مسحور ، وتأخذ الأم فى ترديد أغنية رقيقة عن الأحباب وكأنها تناجينى بها أو تهدهدنى ... ما ألذ هدهدة الكبار يا صغيرتى ... إننا محتاجون إلى الهدهدة إلى يوم أن نركب النعش . صدقينى يا سوسن ... وطالبينى بها وثقى أننى سأقدمها . آه .. وعندما كانت تغنى لى كنت أحملق فى النجوم أو فى القمر ، وأرى ابتسامتها

السخية التى تغذى ألف قلب ... فى الوقت الذى يرفرف فيه طائر ليلى ، أو ينقنق فيه الدجاج فى مرقده ... كانت تغنى فتقول :

« انتى يا انتى ... ولا فى القلب إلا انتى ... قلبى جنينه ومفتاح الجنينة انتى ... » .

ثم تسألنى مداعبة عن مفتاح الجنينة ... هل لك يا بنى مفتاح جنينة ؟ ! فإذا بى أقول بدافع حب الاعتراف أو المباهاة الذى يكمن فى نفس الرجل والمرأة عن اسم جاراتى وأوصافهن ، ومن خلال الحديث تعرف الأم أقربهن إلى قلبى ، ويدور حولها كلام مناسب إذا ما شاءت أن تختم حديثها قالت لترفع الراية التى يرفعها الحراس على شواطىء الاستحمام فى الأيام غير المأمونة : لكن ... إياك وكيد النساء » .

ثم سكت الأب وهتف :

ــ سوسن .. والآن سأدعك تنامين .

فردت عليه بجوارح لم يخالطها النوم :

ــ لا يا أبى .. ما أعذب ما تقول ؟

ــ هل تريدين أن نعود إلى القصة التى كنت أرويها ... حسنا فقد عزفنا فى الاستراحة لحنا مرحا فهل نعود ؟

ــ أرجوك .

فقال الأب :

ــ أين كنا قد وقفنا ؟

ــ تركناها تكاد تهوى على الأرض ، وهى فى حجرة المحررة .

ــ صحيح . وكان جديرا بها أن يحدث لها ذلك لأنها ذكرتنى بقصة الفلاح العجوز الكليل البصر ، الذى كان يهز إحدى أشجار التوت لتسقط ثمارها على حصيرة . وكان الوقت ظهرا والحقول خالية . وظل

الفلاح يجهد نفسه والثمار تتساقط فلما نزل لم يجد منها شيئا فقد كان هناك غلام مخادع يتربص له . فما أن بدأ الفلاح فى هز الشجرة حتى انبرى الثاني يجمع الثمار في حجره ، وكلما تشكك الرجل وسأل من هناك ؟ انكمش الصبى عند الجذع . وفى الوقت الذى كان الفلاح يتحسس فيه الفروع ليهبط إلى الأرض كان الصبى يجرى بما فى حجره عبر الحقول .

وهذا هو ما حدث بالضبط لهذه الفتاة المسكينة . كان أحد المتبطلين يطاردها بسيارة صغيرة بعد أن افترقت من فتاها الأول ، وفى نفسها عليه سخط خلقه العتاب ، وكما تتهيأ أجسامنا فى لحظة معينة باستعداد شديد لأن يهزمها مكروب تتهيأ نفوسنا لأن الفتاة لم تعرف كيف أنها استجابت للثاني وصعدت إلى جواره ، وحكت فى قصتها أنها همت أن تصرخ وتستغيث لتنزل بعد أن سارت بهما العربة لكن ... من ذا الذى يضمن أن رأسه لن يدور بعد أن يأخذ من الكأس بضع رشفات ؟ ! ..

وفى خارج المدينة حاق بها دوار شديد لم تستطع أن تفيق منه حين كان المساء يهبط على أرض الصحراء . وفى الأمسيات التالية ــ وفى سبيل احتفاظها بهذا الصندوق الردىء الذى استودعته على جوهرة ــ كانت تتردد عليه . ونظير هذا ذاقت الذل . ثم أفاقت على أنها وحيدة ... وحيدة كأنها تصرخ فى نفس البقعة الخالية من الصحراء التى رأت الشمس تهوى عندها قبل أربعة شهور .

قالت لها المحررة : ولماذا تبكين ؟ .. أريد أن أسألك أنت عن المسئول عن هذه الأخطاء ... فلم تجبها الفتاة إلا بأن قالت : إننى يا سيدتى لا أطالبك بتحديد المسئولية الآن ، فكل شيء قد وقع ، بل كل ما أرجوه منك هو أن تكتبى مأساتى ، ولا شيء غير ذلك ...

ثم ودعتها وانصرفت كأنها على موعد ... نعم على موعد ..

ثم سكت الأب ، ثم سأل فى تنهد :

تظنين يا سوسن أنها الآن بعد أن نشرت قصتها وقرأها ذووها وعرفنا والدها وتحدثنا الليلة عنه . وتناقل الناس مأساته ــ تظنين أنها قد انتحرت ؟ .. لا . لم يحدث ذلك بل الذى حدث أن أباها انتقل من بحوثه الاقتصادية إلى البحوث الاجتماعية حين وجد نفسه مضطرا أن يفتش عن ذلك الشاب الأفاق الخالى من كل حلية إلا العربة التى استعارها من صديق مثله ، حتى أقنعه أبوها بأن يتزوج الفتاة .

آه ... وأخيرا ... حلت المأساة بمأساة ، وأتاح للفتاة فرصة لم يحن موعدها بعد لتعانى شقاء آخر ...

فتنهدت سوسن وسألت والنعاس يثقل صوتها :

ــ هل أهلها مسئولون أكثر من مسئوليتها يا أبى ؟

فأجاب بإصرار :

ــ آه يا بنيتى ... ألا تعرفين ؟ .. إن كان من الواجب عليهم أن يسألوها : « أين أنت ذاهبة » ؟ فإنه كان من الواجب عليها أيضا أن تسألهم : « أين الطريق » ؟! .. إنها بنت سبعة عشر عاما . وقد يعيش أحدنا فى الدنيا سبعين سنة ثم يقف فى مفترق الطرق ليسأل عن بداية طريقه هو ...

وكانت الفتاة تستمع إلى دقات قلبها حين جاءها سؤال أبيها :

ــ هل تسمعين دقات الساعة ؟ إنها الثانية بعد نصف الليل .. نامى يا حبيبتى ! .. وأنت من أهل الخير !

— ٨ —

دخل عثمان أفندى سكرتير الإدارة هذا الصباح ، متأنقا كعادته ، معطرا بالكولونيا ، ومال بأدب نحو الوكيل وهمس له يقول : « إن المدعوة فاطمة وهدان حضرت بناء على الخطاب الذى أرسلناه إليها » .

وبدافع غامض ، وكأنما قد تكلم رجل آخر هتف الوكيل باهتمام :

— دعها تدخل ...

ثم حملق نحو الباب الذى كان ينفرج عن قوامها ، فوقع بصره أول ما وقع على قدميها تتعثران على السجادة فى الطريق إلى مكتبه ، تلبس حذاء من الممكن أن يكون لرجل ومن الممكن أن يكون لامرأة ، وكانت فى ثوب من التيل الأسود ، لعله فصل فى وقت كانت فيه أنحف عودا .

وفى عنقها عقد من الخرز ... حبة بيضاء وحبة سوداء على التعاقب ، وعلى رأسها وشاح أسود خفيف ، لو غطت به وجهها لظهرت ملامحها ، لكنه كان جليا أنه ليس من الحرير .

وكانت قامتها تميل إلى الطول ، وشعرها الأسود كثيف غليظ كأنه شعر حصان وقد فرقته من الوسط ...

كل هذا لمحه الوكيل ، خلال الخطوات العشر التى خطتها نحو المكتب ، وكان فى عينيها السوداوين اللتين تظن أنهما قد سكتتا عن البكاء منذ قليل — أمل وخوف وسؤال . ولما التصقت بالمكتب ووضعت كفها على بلوره وهى واقفة ، رأى لها كفا كبيرة ، يبدو عليها أنها تزاول عملا ، لكن أصابعها ممشوقة فى استطالة الشمع .

— أمرك ... يا سعادة البيه .

وحركت رأسها من اليمين إلى اليسار ، ثم بالعكس ونكسته بعد أن

نطقت بهذه العبارة بلهجة كسيرة .

ولم يستطع الرجل أن يرفع طرفه إلى وجهها ، بل قال لها دون أن ينظر إليه كأنه يتحاشاه :

ـــ اجلسي .. اجلسي يا سيدتي .

فجلست بتؤدة ، كأنها امرأة يثقلها شهرها التاسع ، ثم استردت يدها من فوق زاوية المكتب بعد أن استقرت على الكرسي ، وربعت ذراعيها فوق نهديها . وجعلت تنظر إلى الأرض . وأتاحت هذه اللحظة لعينيه أن يرى تفاصيل وجهها . فرأى كرسي خدها العالي ، وصفحته التي ترى القلوب عليها آثار لطمة لا تراها العين ، ثم أهدابها وهي مطرقة ، وكأنها عشب ندى متشابك النهايات نما على حافة قوس ، وعلى الجملة كانت تهب من روحها الغامضة روائح نوحي بعدم القدرة على التخلص ، بالنسبة لأي رجل يضعها الحظ في طريقه ، ولم يستطع الرجل الذي استدعاها ، وجلس يحملق فيها أن يفسر ما كان يحسه ، لكنه على كل حال قال لها :

ـــ سبق لك أن قدمت طلبا للإدارة لتأخذي مساعدة .. أليس كذلك ؟ ! .

وأتاه صوتها من جديد :

ـــ نعم سبق يا سعادة البيه ... لكن ...

واستطاع أن يرى بقية ملامحها التي لم يكن رآها . وأن يقع بصره مرة أخرى على الأشياء التي رآها . وكان يتبع شفتيها وهي تتكلم فلفت نظره أنهما من مقاس واحد .. شكلهما غريب .. بحيث لو أن أي واحدة منهما حلت مكان الأخرى ما تغير منظر الفم . فالسفلى تصلح أن تكون عليا ، والعليا تصلح أن تكون سفلى . وفي منتصف فمها تماما في أسنانها العليا

سنتان ، تباعد بعضهما عن بعض بينهما فرجة أوسع من المعتاد أعطت الفم المعبر غير الصغير سرا تفهمه العين ، وهذا السر يشبه أن يكون هزيمة حاقت دون استحقاق ، أو خديعة وقعت لها من التى أخلصت له .

وسحب الوكيل نفسه من بين هذه الإحساسات ليسألها بلهجة أكثر رسمية :

ـــ هل من الممكن أن أعرف بكل صدق الظروف التى أحاطت بك يا فاطمة حين طلبت هذه الإعانة ؟

فتململت قليلا على الكرسى ، كأنها تأخذ وضعا مرتاحا فبدا على أعضائها ارتخاء كسول ، كأنها تعب مجهود . وشرعت تتحدث ببطء كأنها تستعيد ذكريات على وشك أن تنسى ، وإن أكدت قسماتها أن هذه الذكريات لا تزال في عز الحياة في قلبها المكسور .

ـــ منذ سنة وستة أشهر انفصلت عن زوجى ...

ـــ انفصلت عن زوجك ؟ !

فوقف أصبعها الذى كان يكتب على الزجاج حرفا عند زاوية المكتب ، ورفعت إليه بصرها وزمت شفتيها الكبيرتين وازداد وجهها شحوبا ، ثم استطردت تقول :

ـــ نعم . كان ذلك ضروريا ... لأنه كان رجلا مدمنا عربيدا يريد أن يكلفني أشياء .

وسكتت ـــ وعاد أصبعها يرسم عند زاوية المكتب حروفا على الزجاج ، وتجلت الهزيمة على شفتيها وحول فمها بشكل ساحق ، يجعل أى رجل أمامها مهزوما . ورويدا رويدا اختفت هذه المعالم لتحل مكانها ابتسامة ، واستطردت :

ـــ نعم ... يا سعادة البيه ... أشياء لا تقبلها امرأة لها كرامة ..

وقطع عليها جرس التليفون الحديث ، وتهلل وجه الوكيل حتى كاد البشر يقطر منه ، وأخذ يضحك كأنه يغترف من ينبوع ... لا تنتهى الضحكة إلا لتبدأ أخرى . وختم كلامه مع محدثه :

ـــ الحمد لله .. ألف مبروك .. امتياز يا شكرى ؟ .. ليس هذا غريبا عليك .. نعم .. نعم .. أقصد ليس غريبا على عقلك .. لكن .. آه يا بنى .. مع السلامة .

وأدركت السيدة مجرى الحديث فابتسمت له كأنما قد خصها شىء من الخير ، ورأى فى ابتسامتها شيئا جديدا ، رأى وجهها وكأنما أشعلت حوله شمعتان ، وظلت الهزيمة الأبدية حول فمها أكثر سحرا فى هذا النور وهمست :

ـــ عشتم لبعض .. ودام عزك عليه ..

ـــ أكملى ..

ـــ وكانت عيشتى مع زوجى فى الحقيقة دفاعا مستمرا عن شىء غال . فبعد أن تدهورت حالته المالية ، وأوشك القوت يعز علينا رأيته يدفعنى .. إلى ..

فقال الرجل بلطف يستحثها على الكلام :

ـــ أنت الآن تشرحين حالة اجتماعية فى مكان مخصص فلا تخافى .. ألم يسبق لك أن شرحت مرضا لأحد الأطباء فى مستشفى أو عيادة ؟

فرفعت إليه وجهها متوسلة ، ولعلها حملقت نحو السقف فرأى عنقها الطويل المحلى بعقد أسود فى أبيض كأنه يرمز لتناقض الحياة ، وأسبلت أهدابها ، ثم رفعتها فإذا بها قد ابتلت بدمعها ، وقالت وقد شرقت من

البكاء :

ــ أرجوك .. ليس كل شيء يقال ..

ثم عادت ترسم بسبابتها حروفا على زجاج المكتب، .. وكأنها تحسب حسبة قبل أن تعلن فجأة .:

ــ سأقول .. سأقول لك يا سيدى . ولما حاول زوجى أن يدفعنى إلى لقاء أحد الموسرين من أفراد (شلته) . القادرين أن يمدونا بالمال خضعت بعد عراك دام أسبوعا . وذهبت إلى الرجل فى دكان الأقمشة ، وأخذت أتحدث إليه فوجدت منه استعدادا جميلا ، لكنه استمهلنى حتى اليوم التالى لظروف مالية خاصة .. ولما رجعت إليه أعطانى .. ثم راوغنى .. ثم أعطانى .. ثم ساومنى ..

فعدت إلى زوجى كالنمرة المجروحة ، وسهرنا ليلتنا كلها فى عراك وقبيل الفجر عندما كان هو مستغرقا فى نومه كأنه شبح كنت أفكر قائلة :

ــ لماذا أربط حياتى بحياة هذا الإنسان . إننا لم نعد قادرين على إطعام أنفسنا ونحن اثنان . وقد أفلس على الرغم منى ، ولم ننجب أحدا .. والمستقبل أشد ظلاما وها هو ذا بعد أن بدد رأس ماله فى تجارة الصابون يحاول أن يبدد رأس مالى أنا . مع أن رأس مال تجارته يمكن أن يعود ، لكن المرأة التى يدفعها دفعا إلى تبديد شيء لن تستطيع فى المستقبل أن تعوضه .

وعندما كان المؤذن يهتف لصلاة الفجر على مئذنة قريبة منا كنت أسكب دمعى على المخدة لأننى قررت أن أنفصل عنه . وكنت فى الحقيقة أحس ــ رغم شرف موقفى ــ أن انفصالى لا يخلو من عمل سيىء . فقد ألقيت نظرة على الهيكل الطويل الراقد إلى جوارى على سرير من الحديد . فشعرت أننى سأترك طفلا بلا مرضعة .

وعدت فى ضحا هذا اليوم إلى بيت أبى ..

ثم توقفت عن الكلام حين دخل فى هذه اللحظة بعد طرقة خفيفة على الباب عثمان أفندى سكرتير الإدارة وقال مبتسما مع انحناة تشبه انحناءة رجال السلك السياسى :

ـــ إن سيدة كفيفة تلح فى مقابلتك يا سيدى .

فهتف الوكيل كأنه رآها :

ـــ سيدة كفيفة ؟ ! .. سيدة كفيفة ؟ ! لعلها الشيخة نبوية خادمة القرآن نعم .. نعم .. قل لها : بعد قليل .

ولما خرج عثمان أفندى تكلمت فاطمة وهدان :

ـــ ورجعت إلى بيت أبى ، وكان فيه فتاتان غيرى . وكان رجلا حنونا مخلصا مجتهدا . لما ماتت أمى ورأى إحدى بناته قادرة على القيام بشئون البيت ، قال لنا : « حرام يا بناتى أن أتزوج .. أنا رجل ألف طول النهار والليل على أقدامى ولست صغير السن . وضحك مردفا . فلماذا لا أتزوج هاتين البنتين ؟ » وكان يشتغل سمسار عقارات ، صيادا .. صيادا للنقود ، يقطع المدينة سبع مرات كل يوم وليلة . وقد كان على كل حال يكفينا مئونتنا . فلما رآنى داخلة عليه ، وعلم بحالى بكى . ليس لأننى افترقت من زوجى ، ولكن للمأزق الذى وضعتنى فيه الحياة . وبعد قليل أذكر أنه تركنا وخرج فاشترى عشاء غير عادى ، وتعشيت بين أختىَّ وأبى ، كأننى لم أفارق بيتهم بعد . وأخذ وهو على العشاء يحكى لنا طرائف من مهنته ليضحكنا بها ثم ختم كلامه قائلا :

« إن ديننا يا بنات قد حلل للرجل زواج أربع نساء .. فأنا حتى الآن لا أزال تنقصنى واحدة .. ثم ضحك قائلا : كله على الله » .

ولم يستطع وكيل الإدارة إلا أن يسرح بخاطره ليرسم صورة لهذا الأب

الذى أعجب بخصاله ، فتصوره طويلا ناحل الجسم أسمر ، تبرز عظمتا ترقوتيه من فوق فتحة جلبابه ، يتكلم بسرعة ويمشى بسرعة ، ويدخن بسرعة كأن شواغل الدنيا تدفعه من الخلف بيدين قويتين ...

ولم يستطع الوكيل أن يسترسل فى أفكاره فإن صوت فاطمة النسوى المتمارض انبعث عاليا من بين شفتيها المنطبقتين فى أسى ليقول من جديد :

ـــ ولسنا ندرى لماذا اختار الموت هذه الظروف بالذات ليأخذ منا هذا الأب ؟ .. وليس هناك تركة يا سيدى .. إلا نحن ؟ .. وتعرضنا للجوع ثم قاسيناه . وكنت أنظر إلى نفسى ، وإلى أخواتى لأقول لماذا لا يكون لنا عمل ؟ ! لو كان لنا عمل يا سيدى ما كان طلاقى مصيبة ولا موت أبى مصيبة .

ـــ كلام مفيد ..

ـــ نعم .. كان أبى أميا لا يقرأ ولا يكتب ، لكنه كان من أمهر الناس . كان يحول الهواء إلى قروش ويشتغل وسيطا فى كل أنواع البيع والشراء . لكن الزمن الذى عشناه لم يتح لنا أن نتعلم كثيرا أو أن نحترف مهنة . وكان ثمن ذلك أن أحسست بالنيابة عن أخواتى ببشاعة الموقف . فقدمت طلبا إلى إدارة المساعدات فلم أنل منها شيئا بعد أن حفيت أقدامى .

وسكتت السيدة . وبدا على وجهها أن عندها أشياء من الممكن أن تقال ـــ لكن ليس هذا وقتها . أشياء فوق العادية بكثير . وسألها الوكيل :

ـــ وهل ظروفك الآن لا تزال محتاجة إلى المعونة ؟

فلما ابتسمت كانت بسمتها عتابا ، ثم زمت شفتيها كأنها تمنع الدموع ، وألقت نظرة على ثيابها دون أن تقصد كأنها تتأكد أنها ليست

من القطيفة ، وعادت تنظر إليه وقد مال رأسها قليلا بطريقة ذكرته بعنق امرأته . فأشعل سيجارة وهز رأسه الفضي الشعر ، وضيق عينيه اللتين فاضتا بالحنان وقال لها :

ــ عندما تؤكد التحريات صدق ما رويته ، فإن الوزارة ستمنحك إعانة .. الإعانات عندنا وقتية يا فاطمة لكن .. أرجو أن تكون بالنسبة إليك أشبه بروح النوشادر التي تدفع الإغماء ، ولا شيء أكثر من ذلك . هل عندك ما تودين أن تشرحيه الآن ؟ ! .

فنهضت ، وإن كان في عينيها بقية حديث ، ثم دارت مع عرض المكتب حتى وصلت إلى كرسيه ، ومدت يدها تسلم عليه ، ثم مالت تكاد تقبل كفه . فانتفض وكفكف دمعة لو رأتها لعجبت كيف أن هناك رجالا يبكون ، ومن أجل ؟ ! من أجل بلايا غيرهم .

ودخلت الشيخة نبوية بقامتها المربعة ورأسها الكبير ، وشعرها الأشيب في مشية متدافعة وملابس سوداء مبقعة وبشرة بيضاء جدا ، جعلت النظارة على وجهها في سواد الليل . كانت تتمتم ببعض آيات من القرآن ، وعثمان أفندى يقود خطاها نحو المكتب ، ثم أجلسها وهو يقول في نفسه : « لقد فتح هذا الرجل بابه على عكس سابقه . فليشرب حتى يشبع » ولما استقرت على الكرسي اهتزت ذات اليمين وذات الشمال بنصف جسمها الأعلى ، وبدأت تتكلم فظهرت أسنانها المتساقطة إلا قليلا نخره السوس ، ثم قالت أول شيء وهي تبتسم :

ــ « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » صدق الله العظيم .. لا تؤاخذني يا سعادة البيه فليس هذا كلامي .

وبدت الشيخة نبوية كأنها تعاتب الرجل على تقصيره ، فلما شرح لها موقفه ، وأنه جديد في هذه الإدارة قالت في ابتهاج وهي تضرب وركيها

المكتظين براحتي كفيها السمينتين وتحرك جذعها أماما وخلفا ، قالت وهى تضحك :

ــ ومن أجل هذا قصدناك لما عرفنا بأمرك . « وعلى الله قصد السبيل » يا سيدى لقد عشت خادمة للقرآن الشريف حتى أدركنى زمن عمه الكفر ، فلا الأحياء يطلبون به البركة ولا الموتى يطلبون به الرحمة .. « والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » .

قال الوكيل لينهى الموقف ، وقد عز عليه أن يبتسم من كلام من لا يرى ابتسامته :

ــ هل ذهبت إليك باحثة اجتماعية ؟

فقالت الشيخة وهى تشيح بوجهها ، وعليه دلائل استهزاء :

ــ ذهبت .. نعم ذهبت .. فهل تريدون أن تذهب مرة أخرى ؟ .. ذهبت ولم نسمع عنها خبرا ..

ــ حاضر .. ستكونين مسرورة .. سألناك الدعاء .

وعاد عثمان أفندى ليقود خطاها خارجا تفوح منه رائحة الكولونيا ، ومن الشيخة رائحة الثوم وكانت تهمهم وتدعو وتتوسل أن يجعل الله هذا الرجل الجديد سندا للفقراء والمعوزين .

ــ ٩ ــ

وبقلب مفعم بالفرحة من نجاح الابن والقلق من لقاء فاطمة وهدان ــ عاد الأب إلى البيت ظهر اليوم .

واحتضن ابنه وقبله ، وأحس أنه يضغط بين ذراعيه على عظام وهو يجذبه إليه . ولم يستطع السرور الذى يلون وجوه المرضى أن يخلع على وجه شكرى شيئا من حمرة اللون .

أما سوسن فقد كانت تغدو وتروح في حالة بين بين . كانت تقدر لقاء هذا اليوم وتحسب حسابه ، لكن نظرات الأخ إلى أخته كانت تشي بالاتهام ... بأنها لم تفرح له ، وأنها كانت تود له أن يرسب .

ولم يدر الأب لماذا أحس بانقباض بعد الغداء . شعر كأن زوجته لم تمت إلا قريبا ، ومرجع ذلك هو حاجتنا إلى أنداد يشاركوننا فرحنا ، فتسلل في سكون إلى ثيابها يستشق رائحتها ، ثم انكفأ إلى فراشه فنام غير سعيد على غير ما كان يتوقع ، حتى إذا ما أطل المساء لبس وخرج إلى النادى .

أما أمينة الخادمة فقد دخلت على سوسن ، وخرجت عدة مرات ، تصف لها المتاع المضحك الذى يدخله السكان الجدد فى الشقة المقابلة :

ـــ إن متاعهم يا سيدتى لا يتناسب مع هذا المسكن . فلا بد أنهم ضلوا الطريق .. لقد رأيت البواب نفسه ينظر إليهم باستغراب .. أتريدين الحقيقة .. ليس فيهم شيء جميل إلا منظرهم .. هو .. كأحد أبناء المماليك ، وهى كأنها (سنيورا) وفيما عدا ذلك .. اللهم الطف !

وضحكت سوسن بقلب لا مرح فيه ، لأن هذه الأشهر فى عمرها أشبه بنومة فى غير ميعاد ، لا تعطى الراحة وإنما تورث الوخم . وحتى أبوها فى هذا اليوم الذى كانت تود فيه أن يتمنى لها النجاح ، وينضم إلى حزبها مقدما كان يبدو مغرقا فى التفكير . فهل آن لها أن تحس بالوحدة ؟ !

إن البنات من أترابها يتحدثن عن الحب وتسمع منهن ذلك ، ولكن طبعها الخائف ، ورقتها التى تجفل من أى لمسة جعلت من قلبها شراعا يملؤه الهواء من كل اتجاه فتكون نتيجة ذلك أن يتقلقل ولا يتحرك .

فضلا على أن أمها علمتها حب ما هو نظيف ، فلم تكن تسمح لها بعد أن بلغت العاشرة أن تفعل إلا كل ما يوحيه الاحتشام في علاقتهم بمن يعرفون ، وعلى شواطىء المصايف كانت تنزل معها إلى الماء في الصباح الباكر فلم تتح لعين أن تقع على جسمها العاري ، وكانت نظرات الاشمئزاز تحت المظلة لما يفعله بعض الناس ترتسم على شفة أمها الصامتة ، وهي جالسة تتطلع في دلال وجيدها مائل إلى ناحية . فلما تركتها ورحلت وهي في هذه السن أسبل أبوها عليها جناحا فأحست بالأمان .

لكن ما بالها الليلة تحس قلقا ؟! وبحثت عن السبب فأدركت أنه ليس إلا الخوف من المجهول ، من المستقبل الذي يحط فجأة بأيامه وأحداثه فيفرض أشياء . ربما لم تكن في حساب الناس .

وجعلت تذاكر طورا ، وطورا تقلم أظافرها أو تنظر في المرآة الصغيرة ، أو في صورة أمها ، أو في الصورة الفكهة التي رسمتها لشكري ... صورة الثعلب والأرنب .

أما الأب في النادي ، فكان يتحدث مع إحدى سيدات المجتمع عما تنتويه جمعيتها الخيرية بالنسبة لتدعيم أحد الملاجىء التي أنشأتها لصالح اليتامى ، ولما طلبت منه المعونة وعد بها بكل سرور في نطاق الأصدقاء وموظفي الوزارة ، ولم يكن يدري لماذا تذكر فاطمة وهدان في هذه اللحظة .

وانفضت اللمّة وسكن المكان ، فألفى نفسه وحيدا ينظر إلى فضاء الملعب البعيد حيث يتلاشى نور المصابيح ، ويأخذ الظلام في التكاثف . وكان نسيم الصيف قد بدأ ينتعش بعد أن بلغت الساعة الحادية عشرة ولامس وجه الأب فأحس كأنه يشرب على ظمأ . وتحسس شعره الفضي في

استرخاء واضعا رجلا على رجل ثم عاودته حوادث اليوم مرة أخرى ، وراجع قصة المرأة التى كانت معه لكنه لم يكن يعلم أن لها بقية .

* * *

أما شكرى فقد كان يحتفل بنجاحه ...

خرج مع المساء إلى بيت صديقه كامل فى السيدة زينب ، وصعد إلى السلم المرتفع فوجد الباب المصمت الخالى من البلور ينبىء بألا أحد فى الداخل .

وكان فى حاجة إلى السرور ، فلما لم يجد من يشاركه البحث عنه زاد تطلعه إليه ، ونزل من جديد يتلمس موضع قدمه على الدرج مستعينا بالدرابزين .

وفى منتصف السلم أحس بوقع أقدام حذرة تتحسس طريقها إلى أعلى فوقف ، وتنحنح فصدرت ضحكة مكتومة عرف فيها صوت كامل فكأنما صبت السماء عليه ذهبا ونورا فى هذه الظلمة خصوصا عندما شم رائحة عطر ينبعث من امرأة تتبع صديقه .

ودخل الثلاثة إلى المسكن . وجلست المرأة فى متناول أعينهما .

وكانت فى حقيقتها روحا متمردة نزقة ، وجهها المستدير الضئيل يذكرك بقطعة النقد الصغيرة ، وتكاد تكون ممسوحة الصدر ، لكنها كانت تحرك اللبانة فى فمها مع مقلتى عينيها بسرعة وعصبية ، ويحس أقوى الرجال إزاءها أنها قادرة على الدفاع عن نفسها فى أحرج المواقف . وقد ضحك شكرى من أنفه حين رأى التناقض بين بناء صديقه وبين شخصيته ثم بين ضآلتها وبين شخصيتها . كانت النسبة بينها وبين كامل نسبة الثور إلى الحية . وتركاها قليلا واختليا ، سأل شكرى صديقه عما أعجبه فيها فأجاب بصوته المتراخى الخالى من الحماسة :

ــ إنها البضاعة الحاضرة .

ثم دخلا عليها فوجداها متكئة فى جلستها نصف مستلقية وعلى وجهها المتمرد ، وفى عينيها الثاقبتين بوادر عدم الرضا ، وسألت فجأة وهى تقلب طرفها فى المكان :

ــ يبدو أن هذا البيت خال من كل شيء إلا من الحيوانية . لا سجاير ولا طعام ولا شراب ؟ !

فرد كامل ممازحا :

ــ المهم هو الأول ، أما الثانى فأمره هين .

فأجابت تعترض :

ــ لو كان الثانى أمره هين ما كان الأول ثمنا له عندنا ... هات كل ما يمكن أكله ... لكن ... قل لى : هذا صديقك ؟

فأجابها مبتسما :

ــ نعم . ألا يبدو عليه ذلك ؟ !

فردت فى عدم مبالاة وهى تحرك اللبانة ببطء :

ــ اسم الله ! .. بالعكس يبدو عليه ذلك ! ... (وسكتت لتستطرد) : لكن ... هذا بيتك أنت ، يبدو أنه لا يسكن وحده .

وقبل أن يرد أحدهما عادت تقول بعد أن فكت أزرار صدرها ليتلقى نسيم النافذة :

ــ إنك تبدو غنيا أيها الرجل .. نعم .. تذكرت اسمك .. يا أستاذ كامل ... تقول إنك تدرس حقوق ؟ !

وأضحكتها الكلمة فضحكت وحدها حتى كادت تستلقى .. ثم استطردت :

ــ لكن لماذا يبدو عليك السن كأنك أكبر من طالب ؟ .. أن

صديقك يقول : ليس هذا عيبا : غير أننى ظننت وأنت تتبعنى أنك متزوج ...

فسألها كامل وقد اتسعت عيناه ، فى الوقت الذى كان شكرى يضحك فيه :

ــ ولماذا ؟ !

ــ هل غضبت . متأسفة ... لكننى قررت الحقيقة . ولو كان الأمر كما توقعت وكنت زوجا لكان من حسن حظك ... كنت أقضى معك ليلة مجانا فى نظير أنك تخون امرأتك ...

وسكتت هى وظلا يضحكان ، وحاولت أن تبدو أكثر جدا ، ثم عادت تقول حين سألاها توضيحا :

ــ إننى أكره النساء ... ولو كنت رجلا لوهبت حياتى كلها للانتقام من جنسهن .

فقاطعها كامل منتهزا الفرصة :

ــ لكن .. يا خسارة ... !

فاستردت كيانها قائلة :

ــ لقد خطفت إحداهن زوجى . ثم خطفت الثانية عشيقى . أما الثالثة التى لا تزال عذراء طاهرة فإنها تحتقرنى .

فسأل شكرى ، وكأنه يقرر أمرا مفروغا منه :

ــ ولماذا لم تخطفى زوجا أو عشيقا ؟ !

فتنهدت فى حسرة :

ــ عجزت ...

وأدارت عينيها فى المكان ، وهتفت بصوت أرق من صوتها العادى وبنبرة لا تكتم التشهى : .

ـــ كل هذا المكان من أجل شخص واحد ؟ ! ... لماذا لا تدع إنسانا آخر يشاركك هذا الفضاء ؟ !

ـــ أتدافعين الآن عن النساء ؟ هل نسيت ما قلته منذ وهلة ؟ !

ـــ نسيت . نعم نسيت لأننى طلبت أمرا طبيعيا . (واختفت شخصية الحية الكامنة فيها . وأخذت تقول وكأنها استعادت أحلامها القديمة) :

ـــ لماذا إذن يبنى الناس البيوت ؟ ! . هذه الأبواب لناس يسكنون وراءها . أليس كذلك ؟ !

فشهق شكرى كمن سقط فى بركة ، ونظر إلى صديقه يقول :

ـــ يا خبر اسود ... أخشى أن تكون منتسبة بقسم الفلسفة ..

ولكن كلامهما لم ينجح فى جرها من الجو ، فسألت شكرى :

ـــ قل لى إذن ما دام رأيى لا يعجبك ، لماذا يبنى الناس هذه البيوت ؟

ـــ ليدفعوا الحيوانات المفترسة والنساء عن أنفسهم .

فسألت فى ابتسامة :

ـــ طيب . وما العمل إذا ما كان فى داخلها حيوانات مفترسة ؟ !

واستطردت بعد صمت .

ـــ إننا نحن النساء نتصور نفسنا (حور) هذه الدنيا ما دام فى الجنة (حور عين) لسن منا ... فنحن ليس لنا جنة إلا بيوت هذه الأرض . هل فهمتم قصدى ؟ ! فمن منا إذن تفرط فى الفرصة الوحيدة وهى راغبة مختارة ؟ !

فقال شكرى فى استخفاف :

ـــ ذلك لا يعنينا فالرجال لهم فرحتان .. حور الدنيا ، وحور الجنة ، ولذلك فمن الحق أن يبنى الرجل على نفقته جنة للنساء ما دام سيجد هناك



فاستردت كيانها قائلة :

ــ لقد خطفت احداهن زوجى ، ثم خطفت الثانية عشيقى .

كل شيء معدا ... في الآخرة !

وأكمل صديقه :

ـــ وأين سيكون يا ترى مسكن الحريم في الجنة ؟ ! سيكون الرجال هناك راغبين عنكن مائة في المائة ، وليس من المعقول أن يعذبكن الله في الفردوس ... إذن فإما أن تكن في جهنم . وإما ألا تدخلن الجنة !

فقالت :

ـــ كلام مضحك لكنه معقول ... هل آن لنا أن نتعشى ؟ .

وقام كامل فجهز المائدة .

ولما انتقلوا إليها ، وجلست بينهما ربتت بيدها الصغيرة على ظهر كامل العريض في طول ، وعادت تقول له :

ـــ ليتنى أتزوج رجلا في وزنك !

فسأل شكرى :

ـــ وماذا يعجبك فيه ؟ ..

ـــ ماذا يعجبنى فيه ؟ ! ... حياته تبدو هينة كالمسافر النائم في العربة على الطريق المرصوف ، همه كله السائق والكرباج والحصان .. (هيء هيء هيء) فلماذا لا أنام إلىٰ جوار مثل هذا اللوح ، وأضع رأسى على كتفه طول الرحلة؟ !

فرد شكرى موضحا :

ـــ إنك ذكية ...

وهمس وهو يمضغ حتى لا تسمع :

ـــ وهذا أحسن ما فيك .

ثم رفع صوته ، واللقمة في فمه :

ـــ فأبوه أحسن أغنياء الريف ، ومن أشهر زراع البطاطس في مديرية

المنوفية وقد باع الطن أيام الحرب الثانية بسبعين جنيها أيام كان أكل البطاطس وقفا على جيوش الحلفاء ، التي تحارب في الشرق الأوسط .

ثم سكت ، وترك صديقه يبتسم واستطرد :

ــ أما أبى فكان في هذه الأثناء موظفا يملك بدلتين ... الله يخرب بيتك وبيت كامل يا نرجس . فلا بد أنك كسبت أنت الأخرى مما كنت تبيعينه في تلك الأيام . قولى لى : بكم كنت تبيعين القيراط من الحب ؟ !

فاصفر وجهها ، ونظرت إليه شزرا ، وكأس من البراندى فارغة أمامها ، ثم قالت وقد اضطربت قليلا :

ــ أيام الحرب الثانية كنت متزوجة يا قليل التمييز .. وطلقت يوم سقوط ألمانيا بالضبط .

فأجاب شكرى :

ــ لا تغضبى ... أنا آسف ... وعندما يصبح صديقى صاحب الأمر والنهى ، وله أملاك خاصة ستكونين موضع رعايته حتما .

فدمدم كامل في الوقت الذى دق فيه الجرس ، وعندما فتح الباب انسربت منه دون استئذان ، امرأة يبدو على مظهرها أنها في مأزق ، وعرف فيها عندما سقط عليها النور أنها الغسالة .. لكنه لم يلبث أن تبين وراءها شبح رجل في ملابس كاكية اللون ، تقدم إلى كامل وأعطاه ورقة وهبط السلم .

ولم يفارق كامل مكانه بالقرب من الباب ، ووقفت المرأة التي تغسل له ثيابه تنظر مشدوهة ، وجاء إليه شكرى يستطلعه الخبر ، فإذا بعينيه دامعتان وبرقية في يده تنبئه بموت أبيه . فسحبه من يده إلى إحدى الحجرات في الوقت الذى رجعت فيه الغسالة طاوية صدرها على

حاجتها . وما لبثت المرأة الثانية أن سمعت نحيبا فى الحجرة المجاورة ، فدخلت لتتطلع فى وجه صاحب المسكن بعينين ثقيلتين من الشراب ، وشفتين متقلصتين ، وهى تقول مربتة على كتفة :

ـــ لا تحزن .. هذا مصيرنا .. ولا بد أنكما ستلتقيان فى الجنة ! ثم جمعت ثيابها وخرجت .

* * *

وعندما كان الأب يقص على سوسن مأساة فاطمة وهدان وموقفها الشريف ، وهما فى ظلام الغرفة كان يترقب بقلق دورة المفتاح فى الباب الخارجى . ثم عاد الابن .. وقبل أن يستقر على كرسى فى غرفة نومه كان الأب ماثلا بباب الحجرة على وجهه تقطيبة حزينة ، وفى عينيه تخمين يبلغ حد المعرفة .

وكان شكرى قد خلع سترته وأخذ فى تجفيف عرقه ، وتقدم نحوه أبوه وحملق فى وجهه ، وتشمم أنفاسه ثم وقف تجاهه وضغط بكفه على عاتقه قائلا له :

ـــ لن أسألك أين كنت ؟ فقد كنت تستمتع بسرورك ..

فأطرق ولم يرد . ولمعت ثم انطفأت على فمه البسمة التى ترسم الخط المتوازى مع ذقنه العريض ، ثم رد كأنه يناجى نفسه :

ـــ لا تغضب يا أبى .. إنها فرحة النجاح وينتهى كل شىء .

ـــ فرحة النجاح ؟ ! .. إنها ليست فرحة النجاح ولكنها الطبيعة . أنا لا أطالبك بأن تعيد خلق نفسك ولكننى أطالبك بتعديلات .. إننى أخاف عليك .. إنك تحول طاقتك إلى قسمين أحدهما يستهلك عقلك والآخرَ يستهلكه جسدك .

ثم صمت الأب وأخذ يهر كأنه قط ، ويده موضوعة على كتف ابنه . واستطرد :

ـــ إنك تملك بعض النقود ، ولا أستطيع أن أمنعها عنك ، وإلا كان معنى ذلك أننى أسلبك الحرية .. لقد آمنت أنا ـــ وانتهى الأمر ـــ بكل ما أفعله معك ، ولن يستطيع أحد من الشبان أن يملك شخصيته المقدورة له إلا إذا منح حريته ، فلن أضع شخصيتك فى قالب من الحديد ، كما كان يفعل اليابانيون بأقدام البنات ، ولكن لا تنس أن كثيرا من الأعمال فى مثل سنك تقع تحت نور وعى ناقص . وظلمة ميول فوارة ولن تحكم عليها بالصلاح أو الفساد إلا بعد أن يغلب نور وعيك على ظلمة ميولك ..

وضحك الأب مكملا بعد أن جلس على حافة السرير : ثم تذكر حوادث هذا العمر فى مستقبل العمر ، وكأنك تفسر حلما من الأحلام .

ثم سكت ، عاد يسأل ابنه الذى كان يفرقع أصابعه فى ربكة :

ـــ لماذا لم تعبر عن أحزانك بطريقة تهلك كما حدث لى ، وحدث لأختك أيام موت أمك ؟ لكنك اليوم على وشك أن تخر مريضا وأنت لا تشعر . آه .. لماذا لا ترد ؟

فأجاب مطرقا :

ـــ لقد علمتنى أن الأبوة جناح لا سلاح يا أبى ، وأنا لا أستطيع أن أكون إلا (أنا) وأنت لا تستطيع أن تكون إلا (أنت) ..

ـــ أنا لا أهددك وأنت واثق من ذلك .. لكن الإرادة رياضة ، فلا تبخل بها على نفسك . إنها ثمرة رياضة النفس وأنت لا تربى فى داخلك إلا الشياطين ..

وقهقه حتى سمعت بنته ضحكته وهى فى الحجرة الأخرى ، وعاد يقول :

ـــ بعض الكائنات يفرح فيرفرف فيغنى .. وبعضها الآخر يفرح فيهوى فيتمرغ فى التراب ..

ونهض واقفا ، ثم قال وقد علت فمه الصغير ابتسامة غامضة :

ـــ أنصحك أن تكلف نفسك ـــ ولو مرة واحدة ـــ زيارة مصنع الزجاج .

فظهرت الدهشة على وجه الشاب ، وعاد يستوضح :

ـــ مصنع الزجاج ؟ وما العلاقة بين الموضوعين ؟

فأجابه الأب وهو يوليه ظهره للخروج :

ـــ لترى كيف تحول النار الرمل إلى مادة جديدة شفافة لا تحجب ما وراءها . الإرادة يا بنى . الإرادة يا بنى .

هل أقفل عليك الباب أو تحب أن أتركه مفتوحا ؟ ..

تصبح على خير .

ـــ ١٠ ـــ

محسن بك عديل الأستاذ عزت وزوج السيدة اعتدال خالة أبنائه . التركى الأصل ذو الأنف المعقوف ، هل تذكره بوجهه المستطيل ، وسيجارته الثمينة فى المبسم الأبنوس والسبحة القصيرة والنظارة الملونة ؟

كان فى القاهرة ذات مساء فمر على منزل عديله ، وتناول عنده العشاء وسافر فى الصباح ، ولما ألقى نظرة على الأبناء استخلص من أبيهم (كلمة رجل) أن يأتى فى شهر أغسطس معهم ليقضوا فى عزبته بضعة أيام .

وهل تذكر الساكن الجديد فى الشقة المقابلة ؟ !

إنه الأستاذ بكير ، الموظف فى إحدى المصالح الحكومية ، ولم يكن

بينه وبين جاره (عزت) إلا السلام العابر إذا ما التقوا فى الطريق . لكن نظرة متوددة تلتمس الفرصة كانت تفيض باستمرار من عينى بكير العسليتين الضيقتين ، ذات الأهداب الصفراء .

وفى صباح يوم قريب ذهب عزت وكيل المساعدات مع البيه المدير ليكون أحد شاهديه على توكيل رسمى فى أحد فروع (الشهر العقارى) ، فإذا بالأستاذ بكير بصوته العالى ولهجته الآمرة هو الموظف المطلوب ، وكان حوله لمة من الناس من مختلف الطبقات .

كان منطويا على مكتبه المنخفض الصغير الذى لا يتناسب مع عوده الممشوق ، ومائلا على الأوراق أمامه منفعلا دون سبب ظاهر فى وجوه الناس ، فاحتقن وجهه حتى صار قرمزى اللون ، وانتفخت أوداجه ورسب على زاويتى فمه شىء من زبد لعابه لا يتناسب مع منظره النظيف كما لا يتناسب أنفه القصير مع وجهه الطويل .

ولم يكن مظهر هذا الموظف فى غضبه مما يبعث الغضب عند الذين يفهمون حقائق الناس ؛ لأنه لم يكن هناك دافع قوى لمظهره الغاضب إلا التعبير عن أهميته الشخصية ، وخطورة العمل من رجل هو فى الحقيقة طيب القلب ، ولما تقدم السيد المدير بشاهديه حملق فيه الأستاذ بكير بعينيه الضيقتين ، وكأنه يواجه نورا ، واختفى غضبه فى لمحة عين ، وقام من على كرسيه مرحبا بالأستاذ عزت حتى دفع الناس بذراعيه بطريقة أخجلت المرحب به ، وخطف ثلاثة كراسى من عدة أماكن ، وأجلس الضيوف .

ــ أهلا أهلا عزت بك .. أهلا بجارنا العزيز .. إننى أعرفك تمام المعرفة ، وأعرف خصالك وسيرتك الطيبة .. ومنذ شهرين من تاريخ سكننا ، وأنا أتحين الفرصة لأتعرف إليك .. أهلا وسهلا . أهلا

وسهلا .. قهوة بسرعة يا ولد .

واختفت علامات الإمارة لتحل محلها قسمات طيبة ، وترحيب يبلغ في رقته سذاجة الطفولة .

وزاد اهتمامه أكثر فأكثر حين عرف البيه المدير ، فإذا به ينهض مرة أخرى من على كرسيه ، ويصافح الرجل ويهز ذراعه ، وهو منحن بقامة ممشوقة ناحلة كأنها قدّ راقص ، واللون القرمزى يغطى وجهه وعنقه من الخلف . وأدى لهم الخدمة وسقاهم القهوة وودعهم إلى الباب .

ثم .. هل تذكر فاطمة وهدان ؟

في تمام الساعة الثانية من ظهر اليوم نفسه بعد العودة من الشهر العقارى التقى بها الوكيل عند باب الوزارة ، وهو فى طريقه إلى البيت ..

كانت واقفة على مقربة من الباب العمومى بثوب أكثر نظافة ، ولون أكثر صفاء . تتلفت حولها في حنان (لا يجد مصبا) ، كأنها أم تتفقد ولدها على مرمى البصر . ولم يكن على رأسها وشاح ، بل كان شعرها الكثيف متراميا عند كتفيها في سلوك سوداء ، ويبدو أنها لم تر (عزت) ، بل لعلها كانت تتظاهر بذلك ، وربما منعها الحياء أن تحدثه خارج مكتبه .

أما هو فقد كان على بعد خمسة أمتار حين تلفت فلم يجد عينا تقع عليه ممن يعرفهم ، فتفحص ظهرها وثوبها الخفيف ، وعودها الذى لم يستطع ظلم الفقر أن يمتص الخصوبة من أجزائه ، وكان واضعا يديه فى جيبه متشبثا بقدميه على الأرض ، كأنه يقاوم حركة مشى غير إرادية تتجه نحو المرأة فى اللحظة التى كانت هى قد وضعت كفها على جبينها ، كمن ينظر فى الشمس وأخذت تحملق فى اتجاه لا يمكن أن تراه فيه .

وتلوت وهى تستدير لتستأنف سيرها ، فإذا بهما يلتقيان ، فقالت

بصوتها المتمارض بعد شهقة خفيفة :

ـــ آه .. كنت آتية لأشكرك .. ولكنني ترددت لتأخر الوقت . لقد صرفت الإعانة وقضيت الليل أنا وأخواتي في الدعاء لك ..

فأجابها ، وهو يتحرك في اتجاه الترام وقد سارت إلى جواره :

ـــ أنا لم أعمل ما أستحق عليه الشكر ..

ثم ابتسم في ود ، وهو ينظر إلى موقع قدميه :

ـــ غير أني كنت حريصا على منحك هذا المبلغ ، لأني لمست قسوة الظروف التي مرت بها حياتك .

فأجابته في حماسة غطت على ليونتها المهزومة :

ـــ صعبها فات ... ولن تكون الأيام المقبلة أسوأ من التي مرت ..

ثم وقفا ريثما يعبران الشارع فرآها تبتسم وشفتاها مضمومتان ، ونداوة عينيها توشك أن تكون دموعا ، وعلى مقربة من كرسي خدها العالي زغب كأنه تخلف من عهد الصبا ، ووقفت بسمتها على فمها الكبير فوق شفتيها المتساويتين في الغلظ ، تسرد مرة أخرى في أسى واختصار واعتراف بالجميل قصة الضغط الذي تعرضت له ، من بعض الرجال في الأيام الماضية .

وتسربت هذه المعاني في وهلة إلى قلبه ، فأحس بفيض من الشفقة يغمر نفسه ، وأحس كأنه يريد أن يسألها عن تفاصيل تلك الليالي ، وبإحساس آخر أقل وضوحا ـــ كأنه همس بعيد ـــ تمنى أن يعرف قصة ذلك الرجل الذي حاول أن يتسلل إليها فيهصر هذا القوام ، ويقبل هاتين الشفتين . ولسعه شعوره بالنقمة عليه ، لكنه لم يكن قادرا على أن يفصل بين نقمة الملائكة الذين يدافعون عن الفضائل ونقمة الحيوان الذي تحرقه الغيرة المطلقة . وفي ومضة عين اختفت كل هذه الإحساسات ، واحتل

مكانها شعور بالشفقة مسح على قلبه بيد جعلته يخفق ، وقال :

ـــ هل تحبين أن تعبرى الشارع .. هل هذا طريقك ؟ ! ..

وعبرت دون أن تجيب ، ثم قالت له بعد صمت فأحس كأنها تعرض عليه فكرة هامة :

ـــ لا زلت أفكر فى الطريقة .. ؟ .. فى ..

ـــ أى طريقة ؟ !

فقالت بسرعة :

ـــ الطريقة التى أرد بها جميلك ..

ثم زاد صوتها تمارضا وهى تسأل :

ـــ ماذا أعمل لك ؟ ! ..

ولم يستطع بعد أن سمع هذا السؤال أن يرى تعبير عينيها ، لأن أهدابها المسبلة غطت على ما فيهما ، غير أنه أحس ـــ وربما كان مبالغة فى إحساسه ـــ أنه ملكها ، فتذكر اعتبارات لا حصر لها أهمها أنه منحها من مال الله ـــ وتذكر المعركة التى تقوم بينه وبين ابنه الشاب فى كل فرصة ، ثم فتاة تسمى سوسن يعلمها نظافة السر والعلن ، وثيابا داخلية فيها بقايا تعجب الروح من رائحة زوجته التى لم ينقض على وفاتها خمسة شهور ..

ومن تدافع الناس فى الشارع فى هذا الوقت الذى تنشط فيه الحركة التصق جسمها بجسمه ، فتأكد من لمسة التيار أن يدها المتراخية اللينة من الممكن أن تنثر فى نفسه بذورا أصغر من بذور الخردل تظل كامنة حتى تحين لها فرصة الإنبات

قال لها ، وقد استعاد مقاومته فارتفع صوته كالمحتد :

ـــ أؤكد لك مرة أخرى أننى لم أصنع لك شيئا ، كما يجب أن تعرفى أن هذا الذى عمل من أجلك يعمل لآلاف الناس !

فشملها الارتباك ، وظهر الذل في عينيها ، ولمعت فيها نداوة الدمع في الوقت الذى كانت بسمة استرضاء تولد على شفتيها ، وقالت :

ــ لقد جئت لأشكرك لا لأغضبك ... هل أخطأت ؟ !

فتكلف الابتسام ، وقال يودعها :

ــ أبدا ... غير أني لا أحب أن تنسبي إلى فضلا أكثر مما أستحق .

وعلى الرغم من كل ذلك ضغط على كفها وهى تسلم ، وألقى نظرة على قوامها بعد أن أدارت ظهرها .

* * *

ولم تكن سوسن فى (المدخل) كما هى العادة عقب رجوعه من الديوان .

واليوم شديد الحرارة ، وعلى مقربة من المائدة طبق من البطيخ ، متوقد كأنه شرار . وشكرى جالس على وجهه سكينة من فرغ من أداء واجب أو صلاة غير أن الأب أحس بركود يثقل جو المكان ، فتساءل عن سوسن بلهفة ، فأجاب ابنه بصوت فارغ :

ــ إنها نائمة .

ــ نائمة ؟ !

ــ نعم فى أحلى نومة !

ولم تفت الأب رنة الشماتة التى اندسنت بين كلماته فأدرك أنها قد رسبت فى التوجيهية .

كانت مقرحة الجفنين من البكاء عندما دخل عليها ، وبشرتها الناصعة زادت شحوبا ، وكأنما قد زاد أيضا عدد الأوردة الزرقاء فى عنقها الملفوف ، ورفع الأب ذراعها عن وجهها الذى غطته به ، وناداها فى حنان :

ــ سوسن ... سوسن ... قومى يا عروستى ... هل تظنين أنك

فقدت شيئا لا يمكن أن يعوض ؟ ! ...

وربت على خدها ، وهى مسبلة العينين ، وأعاد إلى جبينها بعض خصلات من شعرها المهوش ، وهو جالس على كرسى قريب من وسادتها ثم قال فى وله :

ـــ ستدركين القطار يا حبيبتى ... ستدركين القطار ... يا سلام ... وافرضى أنك تأخرت عاما فماذا سيصيب الزمن ؟ إنه طويل ... طويل ... ولم يحس الناس بقصره إلا بعد اكتشاف الطيران .

ثم ضحك وأجلسها فى فراشها وبدأ يقول بلهجة أراد أن يبكيها بها لأنه رآها فى حاجة إلى الدموع :

ـــ لا تحزنى على ما يمكن أن يعوض .. ليت كل خسائرنا كلها كانت من هذا النوع !

ولمح بذلك إلى موت أمها فبكت فأخذ رأسها بين كفيه وقبل جبينها .

وعلى مائدة الغداء أعاد على أسماعهم قصة جارهم (بكير) . وكان يعيد تمثيل حركاته بطريقة جعلت الفتاة تنسى همها ، خصوصا عندما قام جارهم مرة أخرى من على مكتبه ليصافح المدير فى انحناء مسرحى مدهش ، وانفتح باب الحديث فأخذت سوسن تحكى ما عرفته من أخبارهم التى كانت تأتى إليها عن طريق خادمتهم والخادمة أمينة .

أما شكرى فكان يأكل فى صمت ، وقد رفع كتفيه إلى أعلى وقرب رأسه من الطبق . وإذا ما التقت نظراته بنظرات أخته ومضت عيناه بسخرية أدركها الأب مرة بعد مرة ، وأحستها الفتاة فابتلعتها مع الطعام .

ولم يلبث الأب أن فاجأ ابنه سائلا :

ـــ لماذا لا تتكلم اليوم يا شكرى ؟ .

فأجاب وفمه مملوء ، وعيناه فى اتجاه أبعد :

ـــ لأن الكلام اليوم من فضة يا أبى .

فغمغم الأب قائلا :

ـــ تعنى بذلك أن السكوت من ذهب ! ... هذا حسن ، كأنك لا تريد أن تتكلم حتى لا تؤول كلماتك ... إن ما يظهر بينكما لا يعنى أن أحدكما يكره الآخر ... وأنا متأكد من ذلك لكن ... أخشى أن يورثكما فى المستقبل علاقات لا ترضون عنها .

ولم يرد أحد ، ولم يسمع إلا أصوات الملاعق عند التقائها بالأطباق ووقع خطوات الخادمة من بعيد فى شبشبها الواسع ، على أن الأب لم يلبث أن بدد السكون فسأل ابنه :

ـــ هل تعتقد أن العلاقات العائلية بين أفراد الأسرة تكفى وحدها لمولد الحب فى قلوبهم ؟ !

فهز رأسه فى جفاف وهو يقول : « لا » ، فعلق الأب :

ـــ نحن إذن مكلفون بأن نزرع ونسقى . أليس كذلك يا سوسن ؟

ثم استطرد :

ـــ إن شجرة الحب ليست من الأشجار البرية ... إنها لا تزرع إلا فى الحدائق ... ومحتاجة إلى الماء والظل والصيانة من الآفات .

فقال الابن :

ـــ أنت تذكر يا أبى من الذى خلق بيننا هذه الأشياء إنها سوسن ، إنها تتهمنى فى كل مناسبة بأننى لا أملك إلا حواسى ، وأننى مثل أى جهاز ، ولم ترض لنفسها أن أسميها دودة القز مثلا . لماذا ؟ ! ثم بعد ذلك اسألها عن الصورة التى رسمتها لى ، وأودعتها درج مكتبها ... ما معنى الثعلب والأرنب ؟ ! ... وقد حاولت أن أواسيها بعد رسوبها فاتهمتنى بالشماتة ، فلما انسحبت اتهمتنى بالجفاء ... وهذا هو الموقف .

ثم سكت ليستطرد فى حدة وقد احمر معها وجهه :

ـــ من المؤكد أننا إخوة يا أبى ، وليس من الضرورى أن نكون أصدقاء ، كما أنه ليس من الضرورى أن نكون أعداء !

فأمسك الأب بإحدى السكاكين ، وجعل يطرق ظهر المائدة ، ويهز رأسه فى هدوء مع كل طرقة ، وعيناه القويتان تنتقلان فى حنان بين الوجهين العزيزين . وأخيرا ركز نظرة مبتهلة على وجه الفتاة التى أحست بخفقان روحه الحائرة فحملقت بعينيها السوداوين تقوله له بدون كلام :

ـــ آأمرنى أطيعك ، لأننى ... أحبك !

وعندئذ ارتفع صوته قائلا :

ـــ سوسن ... لا تنسى أنك اليوم مرهفة الحواس ، وقد تؤولين أعمال أخيك بشيء من المبالغة ... لقد استرضاك من قبل ، وعليك أن تسترضيه الآن .

فنهضت وسارت حتى وقفت خلف أخيها ، ثم مالت عليه وجذبت رأسه إلى الخلف وقبلته فى جبينه . وبدت فى هذا الموقف كأنها جريحة نسيت جرحها ، ومسحت بالضمادة العرق عن وجه أخيها فأسبل الأب أجفانه على دمعة ، وما لبث أن قال بصوت شرخه الانفعال :

ـــ نحن ثلاثة على الطريق ... نحن ثلاثة ... ومن المألوف أن أتخلف أنا وتواصلان الرحلة . فلماذا لا تكونان صديقين ؟ ! .

ثم نادى الأب ؟

ـــ شكرى ...

ـــ نعم .

ـــ ألا تزال غاضبا ؟ !

ثم ابتسم :

ـــ إن الذين شربوا السم من أجل شيء أحبوه كانت وجوههم خالية من تعبير الألم حين ماتوا بالسم ...

وعندما سكت الأب كانت صورة « سقراط » وابتسامته وكأسه الفارغة مرسومة فى خيال الابن ، أما خيال سوسن فكان فيه (كليوباترا) مسجاة تحت الغطاء وعلى الوجه تعبير كأنه حلم لم يتوقف .

ولم تغب هذه الصور إلا بعد أن هتف الأب ، وهو ينهض من مكانه وبصوت أكثر حياة ومرحا :

ـــ وعلى كل حال استعدوا ... فنحن مسافرون بعد غد إلى عزبة محسن بك لنقضى هناك أياما أرجو أن تكون سعيدة .

ـــ ١١ ـــ

تقع عزبة محسن بك فى منخفض خصيب ، بالنسبة للترعة الرئيسية الكبيرة التى تسقى مزارع المنطقة . ومن خلال سيقان النخل من على البعد ترى العين بيتا أبيض زاهى الطلاء من بقية الدور القريبة ، فنعرف أنه بيت المالك . ويستطيع السائر على الطريق العريض الذى يؤلف شط الترعة أن يلمس بعصا طويلة ذوائب الشجر ، وسعف النخل الصغير عند مستوى الأرض المزروعة .

ولكى تصل إلى مبنى العزبة تسلك طريقا خصوصيا ضيقا ينحدر شيئا فشيئا إلى مستوى الأرض فى هدوء مريح ، وعرض واسع ، وقد غرست على جانبيه أشجار الجازورينا منذ ثلاثين عاما فطالت واحلولك لونها ، وألقت على الطريق ظلا نديا ، وأوراقا جافة كأنها إبر صدئت . وقد كانت هذه الأشجار ترمى بظل طويل ناحل إلى جهة الشرق فى ذلك الأصيل ، الذى وصل فيه الضيوف عابرين هذا الطريق .

وكانت السيدة اعتدال عند المدخل فى ثوب طرايشى من الحرير طويل سابغ ، تحليه أزهار بيضاء ... ووجهها عار من المساحيق ، لكنها على الرغم من ذلك كانت فى هيئة المنعمات خصوصا عند نحرها .. فعلى البشرة ليونة وصفاء تخالط الصدر العارى فتخاله من البلور الحى .

ونهض محسن بك من فوق أريكة وضعت فى (فراندة) واسعة عند الباب الرئيسى ، وترك المبسم والسبحة والنظارة ، وشرع فى هبوط الدرجات القليلة ليسلم على الضيوف . وكان هناك كلب له فروة بيضاء فى صفاء فرو الأرنب يطوف حول الأقدام فتعثر فيه ، ووجوه سمراء نحيلة لبعض النسوة تتطلع من فوق سطوح الدور تتعرف القادمين .

وجلسوا ليستريحوا ، وقدم لهم خادم فى زى فلاح كئوسا من العصير المبرد .

وأخرج محسن بك من جيب جلباب واسع أبيض منظارا أخضر اللون ووضعه على عينيه ، ثم تناول المبسم من على المنضدة وأشعل لفافة وأمسك بالسبحة القصيرة فى هدوء واكتسى وجهه فى التو طابعه الأصلى . !

لكن كبرياءه لم تخل من جمال ، فقد بددت وحشيتها ابتسامة لاحت علي شفتيه ، وتلفت حوله في زهو مبتكر ، وأشار إلى الأفق والشجر والأرض والنهر والناس ، ووجه الكلام نحو سوسن ، وكأنما أحس أن الأمر يعنيها أكثر من غيرها ، فقال وكأنه يباهى بمملكته التى خلقها :

ـــ انظرى يا آنسة ... هل يعجبك هذا يا حبيبتى ؟ !

فهمست وكأنها مخدرة تتنهد :

ـــ نعم ... هذا بديع .. بديع .. بديع للغاية !

وكانت العيون تتجه إليها فقد بدت شفتها السفلى وكأنها سمنت والتهب لونها فصارت كحبة الكريز ، وإن ظلت الأوردة اللازوردية التى توحى بالضعف والحنان والليونة واضحة فى بياضها الصافى .

أما هى فقد كانت عيناها تجوسان فى كل ما حولها ، فلم يسبق لها أن رأت الريف ، وهى فى هذه السن ! وكل ما فى ذهنها عنه ذكريات فى غموض الصورة التى تعرفها عن حظها وهى صغيرة ، وحيتها نسمة غريبة العبور فى مثل هذا الشهر ، فاهتزت أمام عينيها ذوائب الجازورينا ، كما اهتزت الأوراق المستلقية على السور المحيط بالمبنى ، واهتز قلبها أيضا فى ليونة النبات وترفه وأحست كأن جدارا عاليا مصمتا بلا نافذة ولا طلاء كأنه ظهر أعلى عمارة ـــ أحست أنه يختفى من الوجود فى لمحة عين . فلاح لها الأفق رحبا حنونا ، وتناهى إليها ـــ وإليهم أيضا ـــ غناء جماعى لبنات الفلاحين .

وقهقه محسن بك . وفاضت نفسه بذكرياته أيام كان غلاما يجرى فى الحقول . فقد كان أبوه مأمور زراعة أحد التفاتيش ، وكان محسن يملأ جيبه بالحلوى ، قبل أن يكبر ، ويختلس بعض اللحظات لينزل إلى حيث يعمل هؤلاء فيمنحهم كل ما يملك ثمنا لإحدى الأغانى الخشنة .

ثم ضحك ، وهو يمد ساقيه النحيلتين نحو كرسى قريب من الكنبة ، وقال :

ـــ إننا ونحن صغار نكون طيبين إلى حد لا نفرق فيه بين ضحكة الشرير ، وابتسامة الملك .

ثم أطفأ سيجارته ، ونفخ فى الهواء من خلال المبسم ، وعاد يقول :

ـــ وأظن أن الأستاذ شكرى أقدرنا على تعليل ذلك .

فتنحنح الشاب ، واستند إلى ظهر المقعد ، ورفع كتفيه نحو أذنيه

وقال وهو يهز رأسه ووجهه خال من التعبير :

ـــ لأن الطيبة علامة ملازمة للسذاجة يا خالى ... هى الغلاف الذى يحيط بالثمرة التى لم تنضج ... وهى لذلك أكثر شيوعا فى عالم الأطفال والبيئات البدائية كالقرى والواحات ... و ...

فوحوح محسن بك وقاطعه وهو يتعجب ، لأن الفكرة أدهشته ، وإن كان فى قرارة نفسه مؤمنا بها . فقد تذكر أنه بعد ما كبر لم يعد يروق له أن ينزل إلى الحقول ويوزع شيئا ولم يعد للغناء البسيط سحر فى أذنيه ، لكنه شاء أن يرد على أى حال فقال :

ـــ من الخير إذن يا عزت بك أن نعيش عمرنا كله فى سن الطفولة (ها ها ها) هل يمكن ذلك ؟ ! ثم وجه الكلام إلى زوجته :

ـــ هلمى إذن يا اعتدال فجهزى لنا العربة .. عربة الأطفال ...

ثم شرد لبه :

ـــ لكن ... آه ... من ذا الذى يدفعها بنا ؟ !

وغاب مرحه كما تنطفىء الفقاقيع . وكأنما تذكر فجأة حاجة الآباء فى المراحل الأخيرة إلى رعاية ناس أصغر سنا . فأطرق وسحب المبسم وعلبة السجاير والسبحة الصفراء القصيرة ، وشرع يعمل بكل هذه الأدوات . أما السيدة اعتدال فقد شحب لونها ، وبدا الانكسار فى عينيها فتحركت بقوامها المملوء المكتنز من على كرسى ، ودعت الضيوف إلى أن يدخلوا ليخلعوا ملابس السفر .

وفى المساء حين كان القمر بدرا وحفنات من النجوم مبعثرة فى السماء الصافية ، اقترحت سوسن على الجميع أن يقوموا بنزهة ليلية على الأقدام .

فضحك محسن بك وأجابها :

ـــ إننا هنا لا نملك أن نفعل غير هذا يا بنتي ... هلموا ، هلموا ...
وجمع أدواته ، عصا وسبحة وكبريت وسجاير .

واعتذرت السيدة اعتدال لانشغالها في تجهيز العشاء مع إحدى الخادمات والخادمة أمينة ، وخرج الضيوف في رفقة محسن بك ، يسبقهم حينا ويتخلف الكلب (لولو) ذو الفروة المنفوشة .

واختارت سوسن أن تسير وراءهم ، كانت تريد أن تلقى نفسها وجها لوجه بين ركام من الأشياء المتناقضة المبهمة ، التي لا يجمعهما لون ، وأحست وهي تجتاز الطريق المشجر بالجزورينا ، وقد ملأ سمعها صرير جندب ، وملأ أنفها عبير النبات ، أحست بنشاط روحي مثل الذي يخالط أعضاءنا بعد حمام الصيف . ولما انتهوا إلى الشاطىء اتجهوا نحو الشرق حيث يقع الماء ناحية اليمين والمزارع ناحية الشمال ونور القمر يتلألأ على الماء الذي يشبه شراب القهوة .

وكان محسن بك في جلبابه الأبيض بين عزت وشكري يمشي على التراب بحرص وأناقة ويشمر أذياله ، وهو يخطو ، وكان يثرثر عن تاريخ هذه الأرض قائلا : « إن هذه العزبة الصغيرة لا تعدو مائتي فدان ليست إلا فضلات من أملاك كبيرة كان يملكها أجداده حول هذه المنطقة ، وكانت سوسن المتخلفة عنهم ، والتي يمشي بجانبها (لولو) تراه حين يتوقف مشيرا بيده الممدودة وكمه الأبيض مملوء بالنسيم ، ووهج السيجارة يتوقد بين أصبعيه على طول ذراعه . وكان مثل هذا الحديث يجرها من الخدر الذي خامر حواسها إلى فترة ، ثم لا تلبث أن تعود إلى ما كانت فيه ، وبعد حين شعرت أنها تحلم ..

« إنها ستعود إلى العزبة بعد النزهة فلا تجد خالتها اعتدال هناك بل ستجد مكانها امرأة أخرى هي زينب ... هي أمها ... وستلقى بنفسها

بين أحضانها وتبكي وتعاتبها : « لماذا غبت عنا ستة أشهر يا ماما ؟؟ » ، وأن خطابا مسجلا هاما سيصل فى الصباح من صديقتها (نفيسة) زميلتها في الدراسة ، بنت عمر أفندى الموظف في إدارة الامتحانات ، وتخبرها زميلتها فيه أن رسوبها كان خطأ محضا ، وأنها ناجحة ، وعندما تدخل الجامعة ستلقاه هناك ... من هو هذا ؟ ! ... هو ذلك الذى لم تلقه حتى الآن ، والذى تدخر له الكنوز كلها ، سيصاحبها على الطريق حتى ... » .

ونبح الكلب (لولو) وتوقف الرجال الثلاثة حيث لاح لعيونهم مبنى دار عند السفح ، بين دور أخرى يتصاعد الدخان من سقفها المعرش بالحطب ، ويعوى على جدارها كلب مجهد الصوت ليس له فروة ، وكان في الجو رائحة عيش يخبز آتيا من الدار ، وعلى بعد مائتى متر تلة صغيرة عند نهاية الطريق غطتها الحلفاء ونباتات برية ، وصوت تدفق ماء الفيضان من فتحة الترعة ينش فيغطى على بقية الأصوات المبهمة التى يحفل بها ليل الريف ، وعند السفح أيضا شجرة بدت تحت القمر بيضاء كأنها حمامة لأن طيور (أبو قردان) تأوى إليها مع كل مغرب .

كانت رائحة الدخان الحاد عالقة بالأنوف ، وعزت يتنهد فى عمق ، ولم ير الرجلان الآخران ــ ولو أن الليل مقمر ــ ما يمكن أن يكون قد غطى وجهه من حزن ، لكن محسن بك أحسه في نبرة صوته حين سمعه وهو يشير نحو السفح :

ــ حسبت هذه الدار تحترق !

ثم صمت برهة ، ورجع يقول ، وكأنه يقرر الأمر من جديد :

ــ نعم ... حسبتها تحترق !

فرد محسن بك متجاهلا قصده فقال مبتسما :

ـــ لا ... لا يا أخي ... بل إنها تخبز . ألا تستطيع أيها الريفى القديم أن تميز بين رائحة الحريق ورائحة الخبيز ؟ ! آه .. هلموا بنا نرجع .

ثم استداروا فلحقوا بسوسن بعد قليل ، وكان نباح الكلب (لولو) لا يزال يجلجل كالجرس ، وصوت الكلب الآخر يأتى من أعلى الجدار مجهدا يؤذن بانتهاء ، وغلب على كل هذه الأصوات ضحكة محسن بك وهو يقول لعزت :

ـــ لو أننى أتحت لك الفرصة لتقيم هنا سنة واحدة تتعامل فيها مع هؤلاء الذين تشفق عليهم لتغير رأيك بسرعة ... نعم لتغير رأيك .

ثم عاد يكمل وهو يضحك :

ـــ أما سمعت عن قصة الكونت تولستوى الذى سبه الفلاحون فى أرضه أيام القيصرية ، لأنه سقاهم ماء صالحا ، وحجز أولادهم عن الحقول ليتلقوا العلم فى الصباح ؟ !

ثم استنجد بشكرى داعيا إياه :

تعال يا بنى ... ألم تقل لنا منذ ساعات إن الطيبة من علامات المجتمعات البدائية ؟ .. ماذا تقول إذن يا بنى فى أبيك الطيب ؟ ..

فرد شكرى مقتحما المناقشة ، وقد شاب لهجته تهكم غامض :

ـــ لا شك أنهم سيعوضون فى الجنة عن كل ما فقدوه فى الدنيا .

فضحك محسن بك منتصرا ، وربت على كتفه ، وهو يردد (برافو .. برافو) هذا هو أقصر طريق لحل المشكلة .

فقال عزت يذكر ابنه بقول قديم :

ـــ أنا لا زلت أومن بالجنة ، لأننى لا أستطيع أن أتخيل أحبابى إلا هناك .

ثم استطرد رافعا صوته :

ـــ وأومن بها أيضا من أجل المساكين الذين نتحدث عنهم يا محسن بك ، حتى إذا ما بناها لهم على الأرض واحد من الناس ، فإننا على استعداد لأن نلغيها من خيالنا ؛ ولن يندم أحد على ضياعها يومئذ ...

وتراجع الكلب (لولو) إلى الوراء وعلى بعد ثلاثين مترا وقف ينبح ، كأنه يستفز الآخر ، ونادته سوسن فعاد .. وتلقاه محسن بك بين ذراعيه ، وتحسس فروته البيضاء ، وهو مستلق على جلبابه وصار يقول في دعابة :

ـــ (لولو) .. احذر سيدك عزت بك يا لولو حتى لا يقص جزءا من فروتك ، ويصنع منها « حرملة » للكلب (سبع الليل) هذا الذى كان ينبح على الجدار تجاهك .

ثم أطلق سراحه فسبقهم على الطريق ، وعلق شكرى يقول :

ـــ إنها تنقص كرسيا يا بابا ... ولا بد لها لكي تكون صحيحة أن تنقص كرسيا .

فسألوه :

ـــ وما هذه ؟؟

فأجاب :

ـــ لعبة الكراسي الموسيقية . لعبة الحياة . عشرة لاعبين نظير تسعة كراسي . وتعزف الموسيقى والكل يدور ، وتتوقف فجأة فيسارع كل ليحتل كرسيا ويخرج منها أولا بأول من لا مكان له ، ويأخذ معه كرسيا ليدوم النقص ، وأخيرا ... لا بد أن يخرج منها ناس بلا شيء بعد سباق طويل .

فقال محسن بك مؤيدا :

ـــ والمواهب منح خصوصية لا يستطيع عزت بك أن يقدمها لكل

الناس ، ولا أن يقسمها بينهم فلا بد إذن من التفاوت .

وجاء صوت أرغول من ناحية الشمال ... تتصل أنغامه وتنفصل كأنها على موجات أثير محطة بعيدة . ومع هذا كانت طلقات نارية تئز فى فضاء السماء لعلها من بنادق خفراء الحقول أو بنادق الأهالى فى عرس بعيد . ومع هذه الأصوات تدخل صوت يسأل محسن بك :

ـــ من أين يأتى هذا الصوت الجميل يا خالى ؟ ! ...

فالتفت إليها ، ووضع كفه على كتفها النحيف وقال بلهجة يملؤها التدليل :

ـــ هذا الصوت الجميل ؟ ! ... ألا تعرفين يا حبيبتى من أين يأتى ؟ ! إنه من حنجرتك أيتها اليمامة ... هل تظنيننى أمزح ... صدقينى إننى أقول الحق ... حسن ... هناك إذن حق آخر . لعله آت من عزبة الاستانبولى التى تقع على بعد ستة كيلو مترات من هنا . انظرى كيف تنتقل عندنا الأصوات فى الريف بسرعة وسهولة . وعزبة الاستانبولى هذه على الطريق الرئيسى المؤدى إلى قرية (بابا) القديمة .

وزاد مرحه وهو يستطرد :

ـــ انظرى إليه يا سوسن . هذا هو التفكير باديا عليه . ولعله رجع بذاكرته إلى أيام الصبا . أيام جمع البلح من تحت النخيل والهجوم على الطيور فى الأعشاش .

ثم تنهد :

ـــ والحب الأول يا عزت لذوات الجلابيب التى تكنس بأذيالها الطرقات ، واللقاء فى الموالد يا حبيبى ..

وقال محسن بك فى مرح السكارى وطوق بذراعه الناصل عنق ضيفه ، وحاول أن يهزه فى سرور وهو يقول له :

ـــ إننى أحزن من أجلك ... إنك حمال الهموم .. وإن شقاء الآخرين ينغص عليك الراحة ، وماذا تعمل أيها المسكين ما دمت لا تملك للناس شيئا ؟ ! ...

وإذا كنت مؤمنا بالله فدعه ينظمها ... وإن كنت غير مؤمن به فهل تستطيع أن تنظم ملكا ليس له صاحب .

فرد عزت فى سهوم :

ـــ وإن كنت مؤمنا فأنا شريكه فيما كتبه على ، وإن كنت أنت لا تؤمن به فيجب أن تتكفل بتنظيم ملك لا صاحب له ... أنا حمال الهموم يا حسن بك ، لكن ... ألا ترى أن اتصال الإحساس بالإحساس ينظم اتصال المصالح بين الناس ؟

ثم نظر إلى القمر ولاذ بالصمت ، وعيناه تتبعان بنته فى ثوبها الأبيض والكلب لولو عند قدميها ، وطلقات تئز فى الفضاء يفصل بين وجدانها صوت الأرغول كما كان .

ـ ١٢ ـ

ولم ينغص عليهم الإقامة شيء ما ... ونسيت سوسن أحزانها ... وشربت الحليب ، وقطعت العنب ، ودللت الأرانب ، وقلدت لهجة الفلاحات ، وطالعت الشروق والغروب . وشربت من النسيم ، فجرت فى بشرتها بعد أيام نضرة سحرت كل عين .

وكان نبض الحياة جديدا على أعضائها كأن كلمة « البعث » كتبت على كل عضو . وعندما كانت خطا الليل تتقدم ، ويستغرق الأب فى النوم (وقد قاسمها الحجرة) ويغفو كل حى ، كانت تسمع فى أعماق الليل

من ينادى باسمها فتخال الصوت آتيا من الداخل ... من داخل البيت أو داخلها هى ، وتظنه أحيانا آتيا من الخارج ، من تحت النافذة ذات القضبان والمواربة المصاريع ، فتتسلل حافية حيث تطل على الحديقة فترى الليل على الجازورينا وتعاريش العنب ، حالكا أو مقمرا ، يبعث فى نفسها ألذ الخوف . وتتذكر فى وقفتها آلافا من القصص ... قصص التائهين فى الظلام ، أو الضالين فى الهوى ، أو الذين يغتصبون من الناس أشياء عزيزة ، أو الذين يرقصون ويتراشقون بالأزهار . ثم المسكن الجميل الدافىء الذى لم يسكن بعد ... وكل ما فى الأمر أن ناسا مروا من تحته وانصرفوا لأن الأبواب لم تفتح لهم ... وهذا المسكن هو قلب سوسن .

وتذكرت حكايات أبيها عن أمها ، وكلماته المختصرة فى ظلام الحجرة بعد أن يفرغ من سرد متاعب النهار ومشكلات العمل ، فيتحدث عن عهد شبابه الأول ، والمذكرات التى كتبتها أمها ، والتى لم تقع عينها على صفحة منها ، وكل ما هناك أن أباها حدثها عنها وألقى جملة منها على سمعها ليلة شاتية تئز فيها الريح فتهز النوافذ :

« كان حبه دافئا لنفسى ، ولم يكن نارا تدمر روحى » .

وجعلت ليلتئذ ترسم فى نفسها خطا دقيقا يفصل بين الدفء والاحتراق وبين الحذر والدلال ، ثم سألت والدها بعد صمت كاد يغفى فيه :

« متى أستطيع أن أقرأ هذه المذكرات يا بابا ؟!» .

فأجابها واعدا أياها أنه سيقدمها هدية إليها ذات مساء بعد أن يغلفها بالقطيفة الخضراء !

أما شكرى فكان ينام فى حجرة منفردا ...

وكان أول شيء عمله فى الريف أن ترك شاربه ينمو ، وكان ذلك على سبيل التجربة كما قال لمن حوله ... فترك له الحرية حتى ملأ شفته ،

وتألف من سواد الشارب وصفرة البشرة ، والنظارة السميكة والجبين المكرمش (عند تحديدة النظر) ، والذقن العريض والكتفين المرفوعتين نحو شحمتي الأذنين ـــ تألف من كل هذا منظر قا بس يذكر بسكينة تهوى فى قطعة من الزبد .

ولم يمنحه الطعام الراحة ، وتبدل الجو صفاء نفسيا كافيا ، أو متناسبا مع الصحة التى تسرى فى الأجسام فى مثل هذه المناسبات ، بل ملأ وحدته بالخيالات . فحن إلى لياليه بالقاهرة ، حيث يستطيع بوسائل مختلفة أن يقضى أوطاره . خصوصا بعد أن عثر على الصديق المطلوب بين مجموعة الطلبة ... الصديق الذى يشاركه مناصفة الطعام والسهر والملذات .

لكن أفكاره كانت تنازعه إلى كامل ..

لقد سمع الفلاحين فى يوم من الأيام يذكرون اسم بلده فعرف أنها على بعد خمسة عشر كيلو مترا ، ومن الممكن أن يسافر إليه .

لقد كانا متفقين فى نوازع أهمها أن الحياة لا تعدو أن تكون مجموعة من الوهلات ، كل وهلة منها جزء صغير من الدقيقة ، صغير جدا مثل الذرة فى عالم الملموس .

فقالوا : لماذا نحمل الحياة ما ينافى طبيعتها ، وننظر إليها على أنها كل متماسك .. لحظة الدهر ... الزمن .. فتصبح بذلك ثقيلة مثل الجبل ؟ ! وإذا كانوا قادرين على أن يعيشوها وهلة وهلة ببساطة ولذة ، أو على الأقل مع خلو من المتاعب ـــ فلماذا كل هذا العناء ؟!

لماذا .... الماضى ؟!

لماذا ... المستقبل ؟!

لقد قالوا : إننا نموت فى نهاية كل يوم ، ويولد من خلالنا شىء آخر .

فالماضى ذكريات عن ناس دفنوا . أما المستقبل . فكذاب كل من يقول إنه يتحكم فيه بالنسبة للجهاز المعقد المتمرد على الحتمية ، ذلك الإنسان الذى لم يخلق بعد جهاز آخر لفحصه بدقة .

وإذا كان شكرى وكامل يحسبان هذا الإحساس فإنهما كانا يحملان حاضرهما كل ما يمكن أن يحمل ، وتبعا لذلك أسقطا من حسابهما قيما كثيرة ، فلم تخلق القيم إلا لصيانة المستقبل .

ثم ما لبث كامل أن رحل عن القاهرة فى الليلة المعهودة ، ليلة دق بابه ساع يحمل برقية تخبره بموت أبيه ، فنزلت الغسالة ، ثم المومس ، ثم شكرى فى الظلام متتابعين . وعلم شكرى بعد ذلك أن والد كامل مات مقتولا ... كان هناك ثأر قديم بينه وبين أسرة ريفية فى نزاع على (العمدية) فأطلقوا عليه النار ، وهو على مقربة من نافذة مضيئة فى عزبته فى الليل . وحملته زوجته التى لم تكن هى أم كامل إلى فراش نزف عليه ما بقى من دمه ... و ...

وتذكر شكرى كل هذه الأحداث التى حكاها له صديقه بعد أن عاد إلى القاهرة ليأخذ متاعه ، ويخلى السكن ، وليقيم فى الريف حيث يزرع الأرض له ولأخواته البنات القاصرات من الزوجة الأخرى ...

وأيضا ... كان هناك أفكار غير محددة عن شاب مجهول ، تنبعث فيه رائحة التبغ والكولونيا ، اللتين تشبع بهما أنف سوسن مدة قربها من محسن بك ، وهذه الأفكار غير المحددة تخالط ليل سوسن ، فى نفس الحجرة التى شاركها فيها أبوها .

أما الأب ، فقد كان يستسلم كل ليلة للنوم بعد أن يشبع كلاما مع ابنته . ومن عادتها أن تنام قبله ، فيظل مغمض الجفن منصتا إلى وسوسة الورق على مقربة من النوافذ ومن خلالها يتسرب همس جميل ... هو

همس زينب زوجته . كان يأتى إليه مثل الوشوشة الحذرة من شفتين ذابلتين بعيدتين عن الأذن بمسافة ، وحين تنقطع الوشوشة يرى وأجفانه مسبلة جسمها المنعم يمشى فى تهالك ، وعنقها الصافي صفاء الجمار مائل برأسها نحو اليمين ، وعلى الشفتين ابتسامة لم تكتمل ، وكلمة لم تخرج ، وأسف يغلف الكلمة والابتسامة معا ... ويفهم عزت أنها تريد أن تسأله :

« هل أنت مرتاح يا عزت ؟ » .

ويتقلب ويفتح عينيه فيرى نور القمر المتلصص ، وقد عبر النافذة وانسكب في الركن خلف رأسه على هيئة بقعة كبيرة ، وسوسن غطت وجهها بذراعها فى الفراش الآخر ، ويغمض عينيه ثانيا فيخال زينب قد أدبرت تتثنى وتتكسر ، كأن جسمها بلا عظام .

ثم يتطفل على نطاق الرؤية خيال جديد ... خيال امرأة أخرى تنطبق شفتاها الغليظتان ذاتا المقاس الواحد على ابتسامة تعاضدها نظراتها والنداوة الظاهرة فى العينين والهزيمة المحيطة بدائرة الفم ، هى فاطمة وهدان ذات القوام الوافى ، والخدود العالية الكراسى .

ويتنهد ويسأل نفسه : « هل يبقى بعد الخمسين فى حياتنا فصل يسمى الربيع ؟ ! » .

وفى حجرة ثالثة كبيرة مؤثثة بأثاث وثير يرقد اثنان في فراش مشترك . واسع ، يسع اثنين آخرين ، محسن بك والسيدة اعتدال ، يرقدان هكذا منذ خمسة وعشرين عاما فى ليال لم تثمر إلا اللذة .

وقد عدها محسن فى هذه الليلة (خمسة وعشرون) بعد أن نامت اعتدال ، وأرقته الخواطر ، ففى حجرة يرقد (ولد) ، وفى حجرة ترقد (بنت) ، والمسكن مليء بالأرواح ، فقال فى نفسه :.

« ما أتعس الوحدة » !!

ولم يشأ أن يرجع إلى أصل قضيته حتى لا يتضايق ، بل تذكر سفالة الناس فعض شفته وكتم التنهيدة .

إنه لا يطيق أن يرى وجه هؤلاء القوم ، إنهم يذكرونه بضحى أسود ، أو ليل بهيم ، حين يتناهى إلى هؤلاء نعيه ... نعى محسن بك . فيأتى الأبعدون الذين انحدروا من ظهر ابن العم ليتفقدوا التركة قبل أن تدفن الجثة ، واعتدال فى ملابس الحداد وتحت عينيها بقع بنفسجية ترسم نصف دائرة ، ويطأ جلف على سجادة بحذائه القروى ذى الرقبة الطويلة ، ويبصق الجلف الآخر من النافذة ، ويأكل الثالث من الدجاج ، ويتجشأ ويطلب (على سبيل التهكم) قراءة الفاتحة على روح المرحوم .

هكذا كانت مخاوفه .

فزحف إلى اعتدال ببطء ، وتحسس قميصها ، وأدنى وجهه من وجهها ففاحت من بشرتها رائحة (الكريم) ، وناداها فردت عليه :

ــ لماذا أنت غير نائم يا محسن ؟ !

ــ لقد أيقظنى الكابوس . الكابوس ... خذينى فى حضنك ! خذينى !

* * *

وبعد يومين اثنين ، بينما كان محسن بك وعزت منهمكين فى لعب الطاولة تحت تعريشة العنب ، تقدم شكرى من أبيه مقترحا عليه أن يسمح له بالسفر لمدة قصيرة إلى قرية (...) ليرى صديقه ... كامل .

وتوقف الأب عن اللعب ، وكفه مطبق على (الزهر) ، وجعل يهزها وعيناه تحملقان فى السماء ، ثم سأل ابنه :

ــ وهل ترى ذلك ضروريا ؟

فأجاب ببرود :

ــ لا أراه ضروريا إلا إذا أقنعك ذلك .

وعلق محسن بك فى دعابة :

ــ سئمت الإقامة عندنا (يا إكسلانص) .

ثم استطرد :

ــ لعلك يا أستاذ لم تجد فى أرضنا ما يغنى عن القاهرة ، وعلى كل فأنا سعيد بهذا الشارب الذى يدل على خصوبة الأرض . دعه يا عزت بك دعه ... فإن تشابه الأوقات فى الريف تقلق شبان المدينة . آه ... إننى أعرف هذه الأسرة التى ستزورها إنها حديثة نعمة ، لكن شيطان غرورها أعرق فى النسب من شيطان غرور أسرة الاستانبولى ، التى يمتد عزها إلى أربعة قرون ، لعن الله البطاطس والجيش الإنجليزى اللذين خلقا هذه الكبرياء .

وعاد ينبه عزت ويده لا تزال معلقة بالزهر :

ــ العب يا عزت . وأنت يا شكرى ... اذهب فالعب عند صديقك لعبة مناسبة .

ثم كف عن الضحك ، وخلع منظاره الأبيض العدسات ، وتناول من على منضدة منظارا أخضر حالك الخضرة ، وتمتم وهو شاحب ينظر إلى أول الممشى المؤدى إلى الظل قائلا :

ــ خير ... خير ... إن شاء الله ... اللهم اجعله خيرا .

والتفت عزت فى تشوف فرأى فى منتصف الممشى فلاحا ضخم الجثة يمشى مندفعا كأنه يهبط من منحدر ، ويلوى كفه على كف صبى صغير لا يكاد يلاحق خطاه ، ففهم أنه ولا شك أحد أقربائه الذين يعرف أمرهم .

فألقى الرجل السلام بطريقة يبلغ الاحترام فيها حد الذل وسلم وانحنى . ولم يمد محسن بك يده للصبى ، ولم ينهض لأبيه ، وسلم عزت واقفا ومد يده للصبى فلثم كفه بطريقة خائفة موقرة ، مثل التى يقبل بها أضرحة الأولياء ، وجلس القادم ، وكف محسن بك عن اللعب ، وأطرق إلى الأرض كأنه يفكر فى حل لغز ، ولم يسكت عن التدخين ولم يتكلم بل كان ينفخ باستمرار ، وأحس عزت بحرج ثقيل ، فأمسك إحدى الصحف يقرأ كل ما تقع عليه عينه ، وبين فترة وفترة كان يختلس نظرة إلى المشهد فيرى تعلق عين الصبى بعناقيد العنب .

أما أبوه فقد كان فى الثلاثين من عمره يلبس جلبابا من القطن ، وحذاء طويل العنق ، وتحت بشرته دم يشبه دم محسن بك ، وكان يتسم بلا مناسبة فتظهر أسنانه الصدئة ، وينحنح بلا داع ، وقد احتوى ابنه الواقف بين وركيه وهو جالس .

ومن خلال الخجل الذى خلقه الصمت قال الفلاح أى كلام :

ـــ كل سنة وأنتم طيبون .

ـــ وأنت طيب .

ولم يكن الرد مشجعا لكن الشاب قال :

ـــ هل علمت بالخبر يا عم محسن بك ؟

ـــ قامت الحرب مرة أخرى ؟ !

فأجابه الفلاح بدعابة كثيرا ما تخالط روح المحزونين :

ـــ إى والله قامت .. لكنها فى هذه المرة جاءت فى المواشى ، فلقد ماتت جاموستى أول أمس .

وتسلل عزت تاركا المجال ، فى اللحظة التى استطرد فيها الفلاح قائلا :

ــ .. وكانت تعطينا حفنة من اللبن كل يوم ..

فسأل محسن بك سؤالا خارجا عن الموضوع :

ــ وكم ولدا عندك ؟

ــ ستة .

فرد عليه بحدة :

ــ ولا تزال فى هذه السن ؟ ! ستة تعولهم جاموسة ؟ ! حرام عليك . اتق الله .

ثم قال من خلال أسنانه :

ــ وها هم أولاء بعد موتها أصبحوا كالرضيع الذى ماتت أمه . المهم .. ماذا تريد مني ؟ !

فقال وهو ينبش الأرض بطرف عود من الخيزران :

ــ سلامتك .

ــ نعم . نعم .. أنا متأكد . متأكد أن سلامتى تشغل بالكم جميعا ... عد بعد أسبوع فأكون قد دبرت الأمر ..

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا سيدى .. تشرفنا !

وسار الرجل دون أن يلتفت ، أما الصبى فكان يتلفت بين لحظة ولحظة نحو أشجار الحديقة .

— ١٣ —

وفى أصيل اليوم التالى مشى على الطريق ثلاثة بين الحقول . هم محسن بك وسوسن وأبوها .

وكان شكرى عند صديقه كامل . وتخلفت السيدة اعتدال التى لا تحب المشى فى النهار تحت عيون الفلاحين ، فضلا على أنها تشكو تضخما فى إحدى كليتيها .

وكانت سوسن فى فستان أزرق خفيف الزرقة ، ينسدل عند طوقه المقور من الأمام والخلف شعر غزير حالك رفع مقدمه على هيئة حلقات مفتوحة ، ولم تكن تشعر بالرضا ، كانت تستمع إلى حديث أبيها عن مشكلات نشبت بين موظفى المكتب فى القاهرة كتب بها سكرتيره عثمان أفندى إليه ، فجعله يتلهب غضبا . وكان محسن بك يستمع إلى عديله وعلامة اشمئزاز تخالط ملامحه المتكبرة ، فيبدو كأنه أحد سلاطين آل عثمان فى سالف الزمان .

كان الطريق ضيقا يؤلف شطا لأحد المصارف الواسعة العميقة ، يركد فى قاعه ماء قليل ، وعلى الناصية الأخرى من الطريق قامت حقول القطن واعدة بالرخاء . وفى نفس سوسن ذكريات عن خطاب جاءها صباح اليوم مع بريد أبيها . وكان من نفيسة عمر ، صديقتها ، بنت عمر أفندى الموظف فى إدارة الامتحانات . ومن غريب الأمر — مع ثقتها من رسوبها — أن يعاودها الحلم الذى راودها على الطريق ذات مرة أنها رسبت خطأ ، وأن هذا الخطاب يحمل إليها بشرى النجاح ثم أدركت أن هذا وهم كله ، لكنها سرت بالسطور الطيبة التى كتبتها إليها صديقتها الدميمة ذات البشرة السمراء والنحافة والبوز .

وكانت الشمس على الأفق محلقة وراء الأشجار ، وجوه المتنزهين نحو الشمال تصافحها بين لحظة ولحظة نسمة عليلة . وفي الحذاء الخالى من الكعب كانت سوسن تدوس على تربة حية ، نبتت الأعشاب والحشائش فى كل زاوية يمكن أن تدب فيها حياة . والرجلان مشغولان بحديث كله جد ، فتكلم عزت عن أخلاق الموظفين من حوله ، وعن التنافس غير المشروع بينهم ، وينتهز محسن بك بعض الفرص فيتكلم عن أخلاق المزارعين من حوله ، وعن الكسب غير المشروع الذى يحصلونه من أرضه !

وتخلفت سوسن بضع مئات من الأمتار ، وهما منهمكان فى الحديث فقد وقفت على الشاطىء محاولة أن تجتذب أعوادا من الغاب الذى يحمل فى طرفه مذبة قطيفية تشبه ذنب القط ، ولما أدركت السائرين وجدتهما مشغولين بالترحيب بشاب بدا أطول من الرجلين فى قميص أبيض مفتوح عند صدره ، وسروال رمادى عادى جدا .

وجذب محسن بك رأس الشاب بحنان فخضع له حتى قبله . وسقطت من هذه الحركة سبحته على الأرض فانحنى الشاب والتقطها ، ومسح عنها التراب ، ثم قدمها فى احترام .

ونسى عزت ما كان يجيش فى نفسه حول أحقاد الناس ، وانقشعت الظلال التى ألقاها خطاب سكرتيره ، عندما شاهد الموقف المختصر من الحب . وكأن الجميع قد نسوا سوسن فى موقفها قريبا منهم ، وكأنما تنبه محسن بك فجأة من أغفائه وسأل بلهفة :

ـــ الله .. أين الآنسة سوسن ؟

وعلت فمه ابتسامة راضية ، وأشرق وجهه بالمرح وهو يستطرد :

ـــ تقدم يا وحيد تقدم .. سلم على الآنسة سوسن بنت الأستاذ

عزت عديلي .. وهذا ابن أختي يا آنسة .. نعم .. نعم هكذا السلام وإلا فلا . ليحيا الشباب ، ثم سألهم وكأنه يقترح عليهم : هل تريدون أن نعود ؟ !

ثم عادوا أربعة .

محسن بك بجوار وحيد وعزت بجوار سوسن . وكانوا يتزاحمون على الطريق حينا بعد حين في المناطق التي يزداد فيها ضيقه ، وكان محسن بك يسأل ابن أخته بعض أسئلة عائلية مختصرة سريعة ، لا تجعل من معه يحسون بغربتهم ، ثم رفع عقيرته من جديد وقد توقف على الطريق ، ونادى على سوسن التي تقدمت حتى صارت بين أبيها وبين الشاب ، ومد محسن بك يده فأخذ منها إحدى مذبات ذيل القط ، وهو يداعبها في الوقت الذى كانت أشعة ما قبل الغروب تلهب بشرتها الناضرة ، وروحانية في عهد الشباب تخالط حيويتها الفوارة .

ومن خلال أهدابها المرخاة جزئيا كانت تتأمل صورة الشاب في صمت ، وهى تحرك المذبة في الهواء .

كان يبدو أنه يخطو نحو الثلاثين ، وأنه رياضى انقطع عن الرياضة ، في صفاء بشرته ونضرة وجهه ما يؤكد خئولة محسن بك له ، طويل نوعا له رأس مستدير وجبين مرتفع ، وأميز شيء في ملامحه عيناه وأرنبة أنفه .

أرنبة أنفه فيها الارتفاع الذى يسمى شمما ، وماء عينيه لا ينتمي إلى لون ، فيمكن أن تراه عسليا ، ويمكن أن تراه أسود ؛ لكن لعينيه أغوار تموج فيها التجربة والحيرة والندم على شيء فات . وحينما ينبع الحنان من أبعد أعماقها فإن موجه يغمر كل شيء فيه فيتحول إلى كائن وديع قابل للاختلاط والامتزاج .

وتأملته سوسن من الخلف حينما تقدم هو وخاله ، وتأملته من جانبه

حينما ساروا فى صف واحد ، واستمعت إلى نبراته المكسورة التى تحسب أنها تخرج من جهاز غير مضبوط .. عائمة المقاطع ، ساحرة مثل بعض عيوب النطق فى كثير من الناس .

وتحدث لخاله عن مرض أمه ، ثم عن بعض أخواته المتزوجات ، ثم سأله خاله عن حاله فى العمل ، وكان ذلك على مسمع من الجميع فأجابه بابتسامة ، وإشارة اختلط فيها الرضا بالندم :

ـــ آه ربما .. يكون المستقبل خيرا يا خالى !

وعلق الأستاذ عزت قائلا :

ـــ وهذا عين ما يصبو إليه كل إنسان .

ثم استطرد محسن بك فى لهجة عتاب يؤطر الحب نواحيها :

ـــ إن وحيد يا أستاذ عزت شاب ممتاز. لكن أسوأ ما فيه أنه مرن . وضحك :

ـــ وقد تعجبون من أن مرونته أسوأ ما فيه .. أنها تمنحه طاقة كبيرة من الحب للمجتمعات ، وقدرة على خلق صلات بينه وبين غيره ، لكن هذه الناحية قد تجعله أسوأ بكثير من جلف منطو يستطيع أن يحفظ كتب الاقتصاد والمحاسبة ومسك الدفاتر ، إنه كالغانية التى لا تملك دخلا ، وقد تعثر فى حياته الدراسية فى كلية التجارة ، وتعثر فى حياته الوظيفية فاستقال من الحكومة بعد ستة أشهر ، لماذا يا وحيد ؟ قل أنت فقد نسيت السبب .

ولما هم الشاب أن يقول شيئا بعد أن ملأه الخجل إذ بخاله يشير مستمهلا إياه وهو يردد : تذكرت .. تذكرت .. لقد قال لى إننى يا خالى سأحال إلى المعاش وأنا فى سن الثلاثين إذا ظللت جالسا على هذا المكتب ، لقد أصبت بتشنج فى العضلات (ها . ها) ، ثم استقال دون

أن يستشير أحدا .

ثم .. وسكت محسن بك بعد أن قال لابن أخته أكمل أنت فقال الشاب في دعابة :

ــ لا تجعل ضيوفك يأخذون عنى فكرة سيئة ، فهذا أول لقاء بيننا .

ثم راقب الابتسامات على شفاه سوسن وأبيها قبل أن يقول :

ــ ثم مشروع تجارى فاشل ، ثم التفكير في العودة إلى الحكومة ، ثم العدول عن ذلك إلى وظيفة في إحدى شركات الأخشاب حيث كان لنا ــ في الخشب ــ عيش لا زلنا نأكله حتى الآن ..

وضم شفتيه في عذوبة ، ونظر نحو الغرب في اتجاه عزت وسوسن ، ووقع على وجهه ضوء فالتمع على جبهته حيث تقع نظرات الفتاة التى استردتها سريعا ، فأحست أنها قطعت زمنا ليس بالقصير حتى وصلت نظراتها إلى الأرض عند حذائها الصيفى الذى كانت تنقله على الحصا بحالة غير شعورية خالطتها ذكريات ، وبعض كلمات .. عذبة عن الحب ، سمعتها قديما من زميلات أو قرأتها حديثا فى روايات ، أو نجمت فى داخل نفسها من تلقاء نفسها من بذور لا تدرى ما أصلها ، مثلما يراق الماء على الأرض فينبت من بذور لا نراها . وشعرت ــ بمقدار طرفة عين ــ كأنها معلقة فى ذراع هذا الشاب ، أو كأنها فى يمينه بدل هذا العود البرى ثم تذكرت ــ مثل المذنبين ــ أن أباها إلى يمينها يحملق فى هذا الشاب بعينى رجل يفحص . ولما ظلل الصمت على المجموع تناهى إليهم صوت صبية صغيرة كانت تغنى عبر الحقول :

« انتى يا إنتى ولا فى القلب غير انتى . قلبى جنينه ومفتاح الجنينه انتى .. » .

فتلفت عزت نحو مصدر أغنية لا زالت باقية ، وأطرقت سوسن .

ونظر وحيد جهة الشفق حيث الحقول والغناء ، وضحك محسن بك بصوت خافت وهو يفتش فى جيب جلباب من التيل كان يلبسه وقال :

ــ ليت معى شيئا من الحلوى ، التى كنت أحملها وأنا صغير فأقدمها لهذه الصبية . إن نبراتها سطحية . إن قلبها مقطوع . لكن .. آه .. تحسون معى أن لصوتها سحرا ؟ !

ــ نعم .. نعم .. نعم ..

هكذا أجابوا .

* * *

وعند هبوط المساء امتلأ جو الريف برطوبة عالية ، وتجمد الشجر فلم يكن هناك غصن يهتز ، واقترح محسن بك على المجموعة أن يخرجوا فيجلسوا فى الخلاء فى بقعة من الجنينة لا تغطيها الأشجار .

ووضعت مائدة ذات مفرش أبيض عليه أدوات محسن بك التى لا تفارقه : سجايره وسبحته ومبسمه وكبريته ، وبعض أقداح من القهوة . وعلى الضلعين المتقابلين من المنضدة جلس وحيد فى تجاه سوسن ، ومحسن بك وعزت على الضلعين الآخرين .

وكان خط الجزورينا نحو المشرق مواجها لجلسة الفتاة ، وهو بالتالى خلف ظهر وحيد ، ولم تكن ظلمة الليلة تساعد العين أن ترى الآخرين ، لذلك كانت المشاعر معلقة بالأصوات والانفعالات ناتجة عن النبرات ، والكلب (لولو) يجلجل نباحه الصغير على مقربة من المكان .

وتكلم محسن بك وسيجارته تتوهج ، فعرض لذكرى المرحوم والد (وحيد) ، وعن الحب الذى كان يربطه به . وكان صوته وهو يحكى حنونا لطيفا ، فيه شيء من التهدج ، وحينما كان يسكت كانوا يسمعون تساقط الثمار على أرض الحديقة .

ـــ لقد كنت أحبه ، ولو أنه كان متلافا لا يستمع إلى النصيحة ، وكان لا يؤمن بخرافة التوريث .. كان يقول لى : إنه يجب على الآباء أن يمتعوا أنفسهم وأولادهم بما يملكون ، وعندما يموت الأب ، فليبدأ الابن كما بدأ أبوه ..

فاعترضت سوسن :

ـــ لكن ... أليس هذا ظلما يا خالى ؟ !

فرد محسن بك ضاحكا :

ـــ لا تظنى أيتها اليمامة أن صهرى كان لا يملك دفاعا ، إنه فرض لذلك فرضين لا ثالث لهما : فإما أن يكون الوارث ذا مواهب تؤهله للحياة وإما ألا يكون . وهو فى الحالة الأولى قادر على الكسب وفى الحالة الثانية قادر على تضييع ما ورثه .. ألم تسمعى قط أيتها اليمامة ، عن فقراء مجتهدين اشتروا أملاك الأغنياء الوارثين ؟ ! . هذا كان رأيه .

قال عزت مجاملا :

ـــ وعلى كل حال فقد ترك تركة غالية ... تتمثل فى ابنه وحيد .

فضحك الشاب ، وهو يميل نحو المنضدة التى ربع عليها ذراعيه ، ومد ساقيه نحو الأمام وقال :

ـــ لا تجعلونى أشكركم . على أننى واثق يا أستاذ عزت تمام الثقة من أنه لو كان أبى ترك لى ميراثا ، أي ميراث ، فإننى كنت سأبدده بأقصى سرعة .

وسمع سؤالا سريعا لم تخل لهجته من الإنكار وصل إليه على أثر انتهاء كلماته كأنه كرة ارتدت إليه بمضرب من يلاعبه :

ـــ لماذا ؟ !

فتأوه وهو يرد :

ـــ لماذا يا آنسة ؟ ! لأننى مولع بالمشروعات منذ كنت طالبا فى المدارس الثانوية ، كنت صاحب مشروع جمعية تعاونية لأدوات الكتابة فى السنة الأولى ، وصاحب مشروع اليانصيب المدرسى فى نهاية كل سنة ، ولكى أجعله لصالح المعوزين أو اليتامى أو الغرباء كنت أزور فى السحب فلا يفوز إلا الذين يستحقون المعونة ، وصاحب مشروع الغرامات المالية على الذين يخالفون عادة أو تقليدا متفقا عليه .. وأخيرا .. كبر معى داء المشروعات فلما مات أبى ، وأنا لم أنته بعد من دراستى الثانوية فكرت فى أن أعود إلى الريف فأستأجر أرضا زراعية وأغامر ، لكن خالى وقف لى بالمرصاد ؛ لأنه لا يثق فى الفلاحين . ثم تخرجت فى كلية التجارة ووظفت واستقلت ، فقد خطفنى بريق مشروع جديد هو إنشاء حظيرة فى ضواحى الإسكندرية تضم عددا من الضروع لتجارة الألبان ...

وعندئذ أغرق محسن بك فى الضحك ، حتى حشرج صدره فأطفأ السيجارة ، ونما إلى سمع سوسن ضحكة خجلة خافتة صدرت من الشاب كانت دليلا على أنه من الذين لا يبالون بذكر أخطائهم . وكان القمر قد نهض من وراء الجازورينا فبدا كأنه قرص من النحاس فى الفراغ الواقع بين جذعين لشجرتين ، وتعلقت به عين الفتاة تتأمله لحظة كان الصمت فيها لا يزال سائدا ، لأن الشاب لم يستأنف كلامه .

على أنها لم تحس بأن ضوءه الواهن قد سقط على وجهها ، وأن عين وحيد بدأت ترعاها . كان وجهها المستدير تحت النور فى إطار الشعر الأسود مثل وجه إحدى عرائس الخيال .

ولما كف محسن بك عن ضحكه كان الشاب قد فرغ من النقر على ظهر المنضدة ، ثم أمسك بسبحة خاله يعبث بحباتها حتى سمعوا

اصطدام بعضها ببعض . وغلب على كل هذا صوت لين متلطف يهتف في رجاء هو صوت سوسن تقول :

ـــ هل هناك مانع من أن نسمع بقية القصة يا أستاذ وحيد ؟

فضحك عاليا للمرة الأولى وقال :

ـــ ليس هناك مانع ، بل أعتقد أن تجربة أى شخص ليست ملكا له .

ثم استطرد مبتسما :

ـــ بل إننى كشاب درست الاقتصاد أعتقد أن اكتناز التجربة الشخصية مثل دفن الجنيهات الذهبية تحت الأرض ، أليس كذلك يا خالى ؟ !

ـــ أكمل يا بنى ؟ !

ـــ نحن فى زمن البنوك ، وعصر الائتمان يا آنسة ، فكما نساهم بأموالنا فى خلق الرخاء ، يجب أن نساهم بتجاربنا فى خلق مجتمع متنور ، ولن يتوفر هذا إذا بخل كل بماله ، أو بخل بتجربته ، لذلك فأنا لا أخجل من أن يعرف الناس ـــ حتى ولو من يشمتون بى ـــ تفاصيل مشروع باء بالفشل .

قال الأستاذ عزت دون أن يشعر :

ـــ أنت شاب عظيم .

ثم استطرد مداعبا :

ـــ وحتى (الدم) بدأوا ينشئون له بنوكا ، فلماذا لا ينشأ فى المستقبل القريب ... (بنوك) للتجارب ؟ !

ـــ اعتبرنى الآن من المساهمين حتى أقص عليكم هذه الحكاية :

أخذت الغالبية الكبرى من ميراثى لعمل مشروع من المشروعات ، وأذكر أن أمى كانت تهتف بى يومئذ قائلة : « اذهب فإن العرق دساس ،

اذهب فقد أضاع أبوك الحليب والراتب . وأنا واثقة أنك ابن حلال ... اذهب » . وأقفلت ورائي باب الدار .

واستأجرت قطعة أرض على مقربة من الإسكندرية في خلاء فسيح ، وبنيت عليها الحظيرة طبقا للشروط ، ثم اشتريت عشرين ضرعا ، واستتبع ذلك حلابا وعلافا وخفيرا ، وعربة ننقل عليها اللبن إلى المدينة ، وحصانا نشده إلى العربة ، وفجأة رأيت نفسي مسئولا عن كل هذه الأرواح في غمضة عين ... آه ... أصبحت رب أسرة بطريقة فذة ... فمع كل شمس كنت أدخل إلى مبنى الحظيرة : فأرى عشرين زوجا من العيون الوحشية تنظر إلى ، وكأنها تطلب مني الكفالة ، مضافا إليها المخلوقات الآدمية التي كانت إلى جوارها ...

ثم سكت حتى احتسى كوبا من الماء ، كان على المنضدة بين أدوات خاله ، واستطرد :

وأذكر أنني بدأت المشروع خلال شهر يناير في سنة كانت شديدة البرد ، حتى أن الحلاب والعلاف قالا لي أثناء خلاف نشب بيننا فيما بعد : « لو لم يكن حظك سعيدا يا سعادة البيه ما بدأت مشروعك هذا في سنة مثل هذه ، جفف البرد فيها ضروع المواشي ! » ...

وضحكت سوسن . وكانت نبراتها تحمل معنى المرح والتسامح وعدم الاعتراف بما يسمى نحسا ، واستلقى رأسها إلى الخلف أثناء الضحك فوقع على عنقها ضوء القمر ، وتغنى طائر أو اثنان في الفضاء البنفسجي الصالح لهيام كل روح من فوق رءوسهم ، في اللحظة التي انتهت فيها ضحكة الفتاة . ولم يستأنف الشاب كلامه حتى قالت الفتاة برقة :

ـــ أكمل يا أستاذ ... من فضلك .

فوضع السبحة على المنضدة . ومال عليها بذراعيه واستأنف :

ـــ وفى الشهر الأول سار كل شىء حسب الخطة ... سار على ما يرام ... كان العلف فى المخزن ، والبرسيم فى الحقل يكفل للضروع سخاء فى الحلبتين . وكنت بطبيعة الحال ساكنا فى المدينة ، ولما كان الانتقال إلى الحظيرة لا يمكن أن يكون بالمواصلات العامة ، فقد اشتريت موتوسيكلا أذهب به فى الصباح الباكر أو المساء أو أى وقت أشاء . ولما كان كل مشروع ينبغى أن يكون فى أوله ملكا لنفسه ، يعنى أن ما ينتج منه يجب أن يعود عليه ، ويدخل إليه ، فإننى لسوء الحظ لم أستعن بهذه النصيحة التى أعرفها ، وكان ذلك ناشئا من أن يدى كانت خلوا من النقود . ولما عدت إلى أمى لأستعين برأيها فى الموقف عسى أن تعطف على بقدر من المال ، لم ألق منها إلا الإنذار والصراخ ، ودعتنى بكلمتها المشهورة : « اذهب فإن العرق دساس » ...

قال الأستاذ عزت :

ـــ وذهبت !

فأجاب ضاحكا :

ـــ نعم وذهبت . كان المرعى غاليا فى هذه السنة ، لانتشار دودة البرسيم فى أول الموسم ، واستتبع ذلك غلاء بقية العلف . ووجدت نفسى بعد مرور شهرين على المشروع ، مطالبا بنقود خلال ثمان وأربعين ساعة بشراء طعام الأسرة الكبيرة ، ودفع نفقات البنسيون الذى أقيم فيه ، ودفع المرتبات ، وما إلى ذلك . وكان موقفى على الأرض باختصار يشبه موقف الطيارة فى الهواء فى الوقت الذى تسكت فيه محركاتها ، فلا مفر لها من الهلاك . فماذا أعمل ؟ ! هل منكم من يستطيع أن يبتكر مخرجا من المأزق لو أنه كان مكانى !

فقالت سوسن بمرح :

ــ سهلة . تأتي إلى خالك محسن بك ، وتقترض منه مبلغا حتى يتحسن الموقف .

فأجاب محسن بك ، لكن بحنان :

ــ لو رهن لى نفسه ما أعطيته شيئا ، يجب أن يتحمل مسئولية عمله ، على أننى لو فعلت ذلك ما نجوت من صراخ أمه فى وجهى .

ثم أشعل سيجارة واستغرق فى التدخين ، لكن وحيد ما لبث أن قال :

ــ لقد أخذت من المشروع نفسه ما سد حاجة المشروع .. سحبت إحدى المواشى من الحظيرة وعرضتها للبيع ، واستطعت بثمنها أن أقف على قدمى فترة أخرى ، وكان فى ذلك فائدتان : إحداهما أننى حصلت على نقود ، والثانية أن التموين خف بنسبة خمسة فى المائة .

وسمع وقع أقدام على الممشى ، وهرير الكلب (لولو) فى مرح وسرور : فقد كانت السيدة اعتدال فى طريقها إلى الجماعة ، لتسمر قليلا قبل أن تدخل إلى المخدع . فلما أخذت مكانها تنفست بشيء من العسر ، وشكت شدة الرطوبة ، ونظرت إلى القمر والنجوم ، وكان الصمت لا يزال مخيما على المجموعة حتى جاء صوتها متهالكا طريا يقول :

ــ وحيد .. أما عندك حكاية ؟ مالك ساكتا هذه الليلة ... قص علينا قصة مشروع حظيرة المواشى إذا لم يكن عندك ما تقول .

فضحك الجميع ، وأجاب وحيد :

ــ لقد وصلنا فيه إلى نهاية الفصل الأول ... هل تعرفين خاتمة الفصل ؟ لقد بعت أول جاموسة .

ثم استطرد :

ـــ وفى إحدى الليالى ، قرر المطر ألا ينقطع عن الهطول ، وكان لا بد لى أن أعود إلى المدينة ، لكن منظر السماء كان مخيفا ، فقال لى العلاف فى تشجيع ، اسمع يا سعادة البيه ... إذا كان فى الحظيرة مواش فإن فيها أيضا آدميين ، ألست أنا من بنى آدم ؟ ! ابق معى وسأوقد لك نارا ، وأشوى لك بطاطا ، وأصنع لك شايا ، ولندخن حتى الصباح إذا كنت لا تريد أن ترقد ، نم معنا الليلة ، وعد مع عربة اللبن قبل طلوع النهار ، فذلك خير لك .

وبث حديثه الحماسة فى روحى ، وخيل إلى أنه أحرص منى على مالى . وصحتى ، فقررت البقاء ، لكننى بعد ثلاث ساعات من رقادى أحسست أننى سأموت ، فكأنما جمع بعوض الملاحات نفسه ، ودعا معه براغيث مركز أبو حمص ، وجاء الكل للسهر على راحتى .

وسمعت قهقهة العلاف وهو يقول لى : كده يا سعادة البيه ... إنها ليلة .. واحدة !

قال محسن بك معلقا :

ـــ بشرة أتراك ، لو كنت فلاحا ما هربت من برغوث أيها الجبان .

ثم استطرد وحيد يكمل القصة :

ـــ وخرجت من المخزن الذى ينام فيه العلاف ، والليل لا يزال مرخيا أسداله ، ونظرت إلى السماء فوجدتها وقد خفت حدة غضبها ، فركبت الموتوسيكل عائدا إلى دفء المدينة .

فهتف خاله فجأة وعلى غير انتظار :

ـــ فاسد !

وضحكوا عاليا ، وغمغمت سوسن ، ثم قال الشاب :

ـــ ولأمور خارجة عن إرادتى ... آه ... أمور ـــ أمور تقهر كثيرا من

الأقوياء لم أسهر جيدا على مشروعى لمدة كان مجموعها شهرين حدثت خلالهما أحداث كثيرة .

أولها أننى بعت جاموستين ثانيتين ... لا تضحكوا فليس هذا بسبب طعامى ، ولا علف المواشى ولكننى وظفت رأس المال فى عدة وظائف ، فقد دخلت شريكا فى صفقة شاى قائلا إنه إذا كان مقدرا لرزقى أن يكون ضيقا فى (اللبن) ، فإنه ربما يكون واسعا فى (الشاى) ، أما إذا قدر لرزقى أن يكون واسعا فى الاثنين فإننا ...

فأكملت سوسن لأول مرة ، وهى غارقة فى الضحك ونور القمر :

ـــ فإنك ستغمس فيه البسكويت .

وقال محسن بك عقب ذلك :

ـــ آه أيتها اليمامة ... إنك خفيفة الظل .

وأكمل وحيد :

ـــ وفى فترة انشغالى عن المشروع نوعا بما هو قادر على أن يغلب عزم الرجل ، كان الحلاب والعلاف قد اتفقا على أن يتركا ثلث اللبن فى ضروع المواشى ليحلباه عندما تسنح الفرصة خلال الليل ، فلما اعترضت على النقص الظاهر فى الإنتاج إذا بى أرى الرجلين يجمعان أمتعتهما معلنين استقالتهما من العمل ، فهل معنى ذلك أننى سأشمر أكمامى لأحلب وأعلف ، فملت مع العاصفة حتى أتدبر على مهل ، لكن الخفير تركنى احتجاجا على موقفى اللين ، معلنا أنه لا يطيق أن يغمض عينيه على كل هذا التراب ! ... آه ... آه ...

وجاءت أصوات مداعبة محبوبة :

ـــ لا تتنهد ... سلامتك .

فأكمل :

وتحيرت بين الحزبين ، ولم أستطع أن أجزم أيهما أكثر إخلاصا لى ، لكننى استبقيت غير المخلص لشدة حاجتى إليه ... نعم .. استبقيت العلاف والحلاب ، وتركت الخفير يرحل ، فانظروا كيف تحكمنا حاجاتنا ؟ !

وسألت سوسن :

ـــ ثم سارت الأمور على ما يرام بعد ذلك يا أستاذ وحيد ؟ !

فأجاب ساخرا :

ـــ جدا جدا . ففى الأسبوع التالى ، بينما كانت عربة اللبن فى طريقها إلى المدينة فى الصباح مرقت إحدى عجلاتها فانهارت بحملها . وبما أن هذه الحوادث تقع فجأة ، فلا يستطيع السائر على الطريق أن يقدر أنها ستحدث أمامه ، فإن عربة النقل التالية أجهزت على عربتى وحولتها حطاما ...

وسألت سوسن فى تعجل :

ـــ والحصان ؟ !

ـــ والحصان ؟ ! جرح فقط . وقد يكون من غريب ما يحدث أننى عندما استدعيت من البنسيون بالتليفون ؛ لأرى المنظر لم أكف عن الضحك . حتى إن بعض المارة قال لى معاتبا : « لا تسخر من مصائب الناس أيها الشاب حتى لا تقع فى مصيبة » . وعندئذ أجبته قائلا : إننى بضحكى هذا أخفف البلوى عن المسكين الذى أصابته هذه الكارثة ، فحملق الرجل في وجهى ببلاهة وقال لي ... هل تدرون ماذا قال لى ؟

ـــ ماذا قال لك ؟

ـــ أما مغفل !

وطلب محسن بك صينية من القهوة ، وقذف بعلبة سجاير فارغة إلى

ممشى الحديقة فى الوقت الذى استطرد فيه وحيد :

ــ وعشت بعد ذلك فى ورطة ، إذ كيف أنقل اللبن إلى المدينة ؟ !

وبقيت أربعة أيام أرمم حطام العربة ، وأحلب فى (متارد) على طريقة القرى ، وتولت امرأة الحلاب تحويل القشدة إلى زبدة والرائب إلى جبن ؛ غير أنى كنت أحلم بعوض يأتى من مكان آخر ... من صفقة الشاى ، فإذا ما ربحت فيها بعض ما أتوقع استطعت أن أعوض الخسائر ، لكن الشاى ضبط على الطريق العام أمام إحدى نقط المرور ... فضاع الشاى ... وضاع اللبن ، وأكلنا خبزا جافا !

وارتفعت ضحكاتهم ، واختلطت ، وامتدت قدم ما ... أثناء الضجة فلمست قدم سوسن فسحبتها بطريقة آلية ، ولم تكن تدرى صاحب القدم ، ولا الدافع لهذه اللمسة ، ولما سكن الضجيج عاد الشاب يسأل :

ــ وماذا تظنوننى فاعلا بعد هذا ؟ ومن أين لى بالنقود ؟ !

فأجابت سوسن فى تأكيد :

ــ بسيطة ! تبيع جاموسة !

ــ لقد بعت اثنتين يا آنسة ... لكننى وجدت بعد فترة أن المشروع أصبح كالنار ، يأكل بعضه بعضا ، وأنه لا بد لى من المدد ، فذهبت إلى أمى لتدعمه ، وابتهلت إليها بكل ذكريات مقدسة تربط امرأة بابنها فأجابتنى بحزم :

ــ اسمع يا ولد انت ! ... هناك ناس مستعدون لأن يموتوا ، وهم يتسولون على عتبات الجوامع ، فإذا كنت أنت واحدا منهم فأنا لست من هذا النوع ، وبعد أن أموت خذ بقية مالى واشرب به خمرا ، لكن وأنا حية سأظل أعيش منه ...

ثم صرخت فى وجهى :

ــ ألا يكفيك كل ما صنعت ... قل لى ماذا تم فى مشروعك .. اذهب فإن العرق دساس !

فذهبت ، ثم تنهد ، ونظر إلى النجوم ، ثم ابتسم فى عدم مبالاة قائلا :

ــ ولا زلت أذكر نظرات آخر زوج من المواشى خرج من الحظيرة وكان سمينا مربع الكفل ، وتلفت إلى مواطنه بعد أن سحب على الطريق العام ، وكأنما أحس أنه متغرب ، ثم ركض الحصان بالعربة بعد أن بعتهما لصاحب مخبز ، ووقفت أنظر إلى جمالونات الحظيرة كأننى قائد مهزوم ، لكننى لم أبتئس قط ، بل سمعنى بعض الناس وأنا أضحك حين رأيت امرأة العلاف تجمع أقراص المسكة من مكان قريب من الحظيرة ، وكأنها تنهب الأسلاب ..

ولما ارتعد بى الموتوسيكل لآخر مرة قبل أن أغادر المنطقة ، أخذ الضيق بمجامع قلبى ، لكننى ما لبثت أن نسيت ضيقى حين صافحنى نسيم البحر .. أجل .. إننى رجل أنسى الهزائم .. يجب أن ننسى الهزائم .. أظن أننى أطلت عليكم . طاب مساؤكم جميعا .

فقال محسن بك معترضا :

ــ ماذا لو بت معنا ؟

ــ إنهم لا يتوقعون مبيتى هنا يا خالى ، والليل مقمر والطريق قصير ، وسأنظر إلى القمر حتى أصل إلى دارى .

فأحست سوسن أنه يعنيها بكلمته الأخيرة . أحست كأنها وجهت إليها وحدها من دون الناس ، فأخذت نفسا طويلا فى الوقت الذى بدأ فيه وحيد يصافح الجميع ، وكانت الفتاة آخر من صافحهم ، فضغط على

كفها الصغير ، وقال لها وهو يدني وجهه من وجهها حتى شمت رائحة جسمه :

ــ لا تنسي يا آنسة سوسن ، قبل أن تنامى أن تأخذى قرصا من الإسبرين .. فقد سببت لك صداعا :

فأجابت دون شعور :

ــ بالعكس .. نحن سعداء !

وظلت وهي فى مكانها تتابع النظر إلى قميصه الأبيض ، الذى كان يرف تحت القمر حتى اختفى فى آخر الطريق .

ــ ١٤ ــ

كان البريد الآتى إلى العزبة للضيوف فى صباح اليوم التالي يعتبر مثيرا ، فقد تلقت سوسن خطابا من نفيسة عمر . تقول فيه : إن أباها صحبهم إلى الإسكندرية فى رحلة ، لا تتجاوز نصف شهر ، غير أنها خبرت على الشاطىء ألوانا من السعادة لم تعرفها من قبل : « فلأول مرة عمت فى الماء الحقيقي يا سوسن ، لا فى الحمامات ، وعانيت الجهد العنيف فى عملية العوم ! وعذبت الذين علموني ! ثم أكلت بشهية ، ونمت بعد أرق وفكر غير متعب ، لأستيقظ قبل أن يضيع اليوم فلا أستطيع أن أفعل مثل ما فعلته بالأمس .. ليتك معى ! » .

ولأول مرة أحست سوسن أن كلمات صديقتها تحمل رائحة غريبة ، وانطوت بها فى ظل إحدى الأشجار تعيد قراءتها فى لذة حذرة ، تدخلت فيها بلا عناء روائح (وحيد) بلهجته المكسورة الحلوة ، وأسنانه الشديدة البريق ،ووجهه المتطلع إلى فوق بعرنين أنفه الأشم .

شيء كطلائع المرض أحسته في جسمها ، وخوف مبهم من الليل أن يجيء بدون هذا الشاب ، وعندئذ ستبدو كئيبة بين ناس مرحين وأذكياء كذلك ..

ثم سألت : « وماذا أعجبني فيه » ؟! ، لم تمهلها الظروف حتى تستعرض ما فات ، فتعلم أن طبيعته المرحة الحزينة المندفعة الشاعرية التي تهب بلا حساب من كل ما تملك .. من دمعها وضحكها ونزواتها ومالها ، وحتى من ندمها ، لم تكن قد علمت بعد أن هذا هو اللولب المسحور ، الذي أيقظ قلبها .

نعم لم تمهلها الظروف ، فقد سمعت أباها ينادى من شباك حجرته فلما خفت إليه قال لها وعلى ملامحه شيء من الهم :

ــ لقد اشتبك في غيابي موظفان في مكتبي ، ثم كتب كل منهما يشكو الآخر إلي . والخطابان يحملان تاريخا واحدا ، لكن خطاب نوفل يحمل من الخبث والدس على خصمه ما جعلني أتألم . لأن فيه أمورا تناولتني شخصيا ، وادعى أن عثمان أفندى نسبها إلي .

وعض على شفتيه وقطب ، وهمت الفتاة أن تحدثه عن خطاب صديقتها ، فإذا به يقول بصوت مرتفع وكأنه تذكر شيئا نسيه :

ــ ثم .. أين الأستاذ شكرى ؟ ماذا جرى له ؟ ! لقد أقام عند صديقه أربعة أيام ولم يعد ، فهل طابت له الحياة هناك حتى نسينا .

وهز كتفه في مضض ، وضرب بكفه ظهر كرسي قريب منه ، في الوقت الذى مثل فيه محسن بك على الباب في ثوب من التيل ، وابتسامته المعهودة قائلا وهو يشير بمبسم من الأبنوس :

ــ تعال أيها الرجل نلعب الطاولة ، لا تبحث عن الهموم ، ويكفينا أنها تبحث عنا .. تعال إنها ستلحقنا بإذن الله فلا تمهد لها الطريق أنت ..

وأنت أيتها اليمامة عليك أن تجلسي إلى جانبنا تحت الظل ، وتقولي لنا بين فترة وأخرى : « وحدوا ربكم .. وحدوا ربكم ! » .

ولم يملك عزت إلا أن يبتسم أمام هذا الرجل ، الذى غمس لسانه فى العسل والسم على التوالى ، ونهض حيث جلسوا فى ظلا ل الحديقة ، وبدأ عزت يلعب بفكر شارد من أثر الخطابات التى تلقاها من القاهـرة ، وسوسن إلى جوارهم مشغولة بما يشغل أباها . وبما ظهر فى أفقها من ناس .

ولم يطل الوقت حتى سمع الرجلان المنهمكان فى اللعب سوسن وهى تهتف :

ــ آه لقد جاء أخى !

كان عند أول الممشي المؤدى إليهم فخفق قلب الأب ، ولما وصل إليهم عانقه وقبله ورأى آثار الراحة بادية عليه ، وأخذ محسن بك بعد هنيهة يسأله فى تخابث مرة بعد مرة :

ــ هيه .. وكيف قضيت لياليك يا أستاذ شكرى ؟..

وفى آخر إحدى هذه العبارات ، سمع الحاضرون محسن بك يصل كلامه هاتفا فى سرور :

ــ لقد تجمع الحبايب ، وعاد كل غايب .

ونظروا فإذا بوحيد قادم ونهض الكل وصافحوه ، وأحست سوسن وهى تعطيه كفها أنها أودعت فيها شيئا ما ، ثم أحست وهى تنظر إلى عينيه تحت جبينه الذى سقطت عليه دائرة من نور الشمس..أحست أن هاتين العينين لم يخالطهما النوم ليلة البارحة..فهل كان من أجلها . وعندما كانوا يستعيدون أماكنهم خطر على بالها كلمات كتبت فى خطاب صديقتها :« فلأول مرة عمت فى الماء الحقيقى.. وعانيت الجهد العنيف

من عملية العوم .. وعذبت الذين علموني !».

* * *

ـــ أهلا وسهلا أستاذ وحيد .. كيفما أصبحت ؟ هذا ابنى شكرى الطالب بكلية الآداب ويسعده كثيرا أن يتعرف عليك ..

وجلس الشابان يتكلمان فى شئون شتى وكان طابع المجاملة يصبغ حديثهما ونظرات وحيد تجتاز إلى سوسن عبر أخيها ، وفجأة احمر وجه وحيد وهو يدعو سوسن أن تقترب من مجلسهما قائلا لها :

ـــ تعالى نلعب الورق نحن الثلاثة ، مادام بابا وخالى يلعبان النرد ، فلما سألت الفتاة عن الطريقة التى يفضلها فى اللعب أجاب مبتسما :

ـــ أفضل الطريقة التى تضع الحظ تحت تجربة قاسية ، لأننى كما تعلمين أخاف من حظى .

واندمج الثلاثة فى لعبة « البصرة »، ولم يلبث شكرى بعد مدة أن أعلن فى تأفف وهو يمسح عرقه توقفه عن اللعب قائلا :

ـــ يا له من عذاب .

ثم انسحب يبحث عن شجرة المانجو ليأكل ، وخلا الجو للفتى والفتاة .

وعلى الرغم من أن منضدة الأب والخال كانت على مقربة منهما ، فإن الفتاة أحست وكأنهما فى خلاء ، وبدأ الشاب يرمى الورق فى تكاسل ، وتتابعت هزائمه ، وكان يقول لها بعينين فاترتين قويتين :

« خذى كل شىء .. خذى كل شىء فأنا أريد ذلك !».

وتوقفت سوسن عن اللعب ، وعضت شفتها ، وبدا على وجهها كأنها غاضبة ، ففاضت عيناه بالحنان قائلا لها : ماذا حدث ؟ فأجابته : «يبدو أنك أقوى مما أرى.. يبدو أنك تغلب بمطلب مشيئتك».

فتلاعبت على فمه ابتسامة لم تخل من نداء ، وقال بصوت يكاد يصل انخفاضه إلى حد الهمس :

ـــ هل شككت لحظة واحدة فى أن هزيمتى معك ناشئة من قوتك الحقيقية ؟

فأومأت بالإيجاب وأهدابها مسبلة ، فاستطرد :

ـــ تأكدى أننى غلبت ! وكان يجب أن تشعرى بذلك !

فأحست أن شيئا قد دس لها .. أحست به فجأة ، كمن يكتشفه فى شراب قد فرغ من جرعه . ودارت بها الأرض كأن الكرسى ذا الذراعين الذى تجلس عليه صندوق فى أرجوحة . فبلعت ريقها وهى تحملق فيه ، وكان فى يمينها ورقة «بنت» وعلى كومة الأوراق التى أمامها ورقة «آس»، لكنها سألته متجاهلة :

ـــ عن أى شيء تتكلم ؟!

فأجاب بعينيه :

ـــ أنت تعرفين عما أتكلم .

فاستطردت :

ـــ طبعا عن اللعب .

فأجاب مبتسما :

ـــ لا .. عن الجد !

ثم تحول كلامه بمهارة :

ـــ وهل فى الدنيا أحد يكره الجد ، ثم وضعوا الأوراق التى فى أيديهم ، ثم نظر فى ساعة معصمه وقال : كان يجب أن أكون الآن على المحطة ، فى انتظار هذا القطار المسافر إلى الإسكندرية ، هذا القطار الذى ترينه يزحف نحو الشمال ، لكن .. ما يفوتنى اليوم فى العمل قد

أدركه في يوم آخر ما دمت موظفا . أما هنا .. فما يفوت منه قد لا يدرك .
فسألته وقد سحبها التيار :
ــ وهل انتهت إجازتك اليوم !
ــ نعم . ولكننى بعثت إلى الإسكندرية بما يفيد أننى سأتأخر .
ــ ولماذا تأخرت ؟
فأجابها ، وكأنه يعاتبها على أنها لا تعلم :
ــ لا أعلم !

وكان لا بد أن يسود الصمت برهة ، كان كل منهما لا ينظر إلى الآخر بل ينظر إلى الفضاء حيث تقع العين على أشجار وعصافير تتشابك ، وكانت الأيدى والأرجل تهتز بلا دافع كأنها الطرق الفرعية التى يتسرب منها قلقهم .

ونظر محسن بك إلى الشاب والفتاة ، وابتسم ثم ألقى نظرةعلى وجه عزت الذى تظاهر أنه لا يحس بشىء .

* * *

وظل وحيد عند خاله طول النهار ، وتناول الغداء مع الضيوف ، ونامت سوسن فى فترة القيلولة ، فلما استيقظت من نومها واغتسلت ونزلت إلى الحديقة ورأت وحيدا لم يرحل بعد أحست كأن نسمة معطرة قوية دخلت بدفعة واحدة إلى صدرها ، بعد أن امتصت عطر كل زهرة ، ورائحة كل ثمرة ، ونداوة كل ورقة في الريف ، وتحسست بأناملها عقدا لؤلؤيا طويلا كان بعضه حول عنقها ، وبقيته على صدرها ، وسمعتهم يتحدثون عن خرافة ولدت ضحا اليوم عن شيخ طريقة طار بنعشة ، كأنما حملته قوة بخارية غير مضبوطة ، وظل أتباعه يهيمون وراءه فى كل مكان حتى اختار بقعة طاهرة هبط فيها بسلام ، فعرفوا أنه اختار مكان الضريح .

وكان وحيد يصف المنظر الذى وصفه له بعض الفلاحين فى العزبة من أن الجهد فى متابعة النعش أجبر كثيرا من الأتباع الذين حملوه عن التخلى عن نعالهم الثقيلة فخلعوها من أرجلهم ... لكن شيئا من هذه الأسلاب لم يتخلف عن الطريق ، ولم يعثر عليها أحد ، لأن الحفاة الذين كانوا فى آخر الجنازة دسوا أقدامهم فيها ، ثم انصرفوا بسلام !

واستطرد الشاب بعد فترة صمت :

ــ لكنى على كل حال أومن بالروح ، هل تؤمن بها يا أستاذ شكرى ؟!

فالتفت شكرى نحو أبيه الذى بدت على فمه ابتسامة مترقبة ثم قال :

ــ أنا أومن بها على أنها مجرد إشعاعات تطلقها الجوارح .. الجوارح المحسوسة التى تؤلف أجسامنا ، فمن بريق العينين ورنة الصوت ولون الشعر والنسب التى فرضت على جسم ما ولون البشرة ، وربما ترتيب الأسنان ...من كل هذا يأتى الشعاع الذى سميناه الروح ... أما بعد ذلك ، فأنا متنازل عنه لك يا أستاذ وحيد .

فسأله هذا فى لطف :

ــ ألم تحس شيئا ما مقدما قبل أن تدركه إحدى جوارحك ؟ ثم إذا كانت المسألة مجرد إشعاعات تنطلق من الجوارح ، فلماذا لم يتفق الناس عليها كما اتفقوا على (الألوان) ، ولماذا ترانى ثقيل الظل ، ويرانى غيرك على العكس . لقد أحسست يوم قابلتكم وقبل أن أراكم لأول مرة وأنا فى طريقى إلى هنا أننى سألقى ناسا لم أرهم من قبل ، وأننى سأسر بلقائهم فما معنى هذا ؟ ! ...

فردت سوسن فى ضميرها قائلة : « معناه الحب يا عزيزى » .

أما شكرى فكان يقول :

ـــ ذلك شيء يسأل عنه فقراء الهنود . لكننى أستطيع أن أقنعك بأن الروح لا تعدو أن تكون بريقا للجوارح مثل خيال المرآة على الحائط ، فإذا تحطمت المرآة اختفى الخيال .

وسأل :

ـــ هل تستطيع أن ترى الروح من خلال العين العمياء ؟ لنفرض أن لك صديقة عمياء يا أستاذ وحيد . فهل من الممكن أن تتفاهما على شيء بينكما بالعيون دون أن يشعر من حولكما ؟ وهل تستطيع هذه الصديقة أن ترضيك بنظرة أو تغضبك بنظرة . لا بد لها من طريقة أخرى لإرضائك أو إغضابك ، ربما باللمس ، ربما بالكلام . فأنت ترى الآن أن جزءا كبيرا من الروح قد غاب عندما انطفأ نور عينيها ... والمسألة سهلة ... تحطمت المرآة فاختفى الشعاع المعكوس ، فما بالك إذا ما حطم الموت كل شيء فينا ؟ !

وعندئذ قال الأب دون أن يشعر وبنبرة تكاد تكون غضبا :

ـــ إنك تحيا حياة مخيفة . إننى أحترم الأوهام التى تقوى ذاتى ؛ لأنها نفس الأوهام التى تجعل أحد المتبارزين يقتل الآخر بشجاعة .. إنه الإيمان . أنا لست لحما ودما وعظما وعصبا فقط ، إننى أشعر أننى أملك أشياء أخرى أنفس من هذا ؟

فصفق وحيد بمرح ، وبحركة غير إرادية ، ونظر إلى شكرى فى شيء من الشماتة ، لكنه عاد يسأل :

ـــ والدليل على ذلك يا بابا ؟ !

ـــ أنا الذى أسألك دليلا على رأيك ما دمت ستسجننى . أنت المطالب بتقديم (دليل الاتهام) ما دمت ستسلبنى الحياة الأوسع .. ما دمت ستربطنى فى وتد إلى هذه الأرض مثل المواشى فى هذه

الحظيرة ... إننى أحلق فى مكان أوسع ... فدعنى .

وضحك وحيد فى تلطف وقال لشكرى فى لهجة رجاء تلفت النظر :

ـــ بالله يا أخى لا تضيق علينا الفضاء ... لا تتلف لى الحديقة التى زرعناها تحت نافذة سجننا المحبوب .. أرجوك .

وكانت هذه الكلمات تقع موقع الرضا من قلب سوسن وقلب أبيها ، ونظرات التشجيع والإعجاب تتسرب خلسة من عينى الفتاة إلى (وحيد) ، وأحست بالراحة التي يحسها الغريب على ظهر مركب يوم يصعد إليه ، على غير انتظار من أحد الموانى شخص يبدد وحشته ويمنح مودته .

وتلفت محسن بك نحو الأفق فرأى الشفق معقودا على هيئة قبة نقشها الفنان العظيم ، فنادى على زوجته التى أعلنت أنها مشغولة بطعام العشاء ، فضلا عن أن كلاها تؤلمها وأمينة قد رحلت إلى قريتها فى زيارة منذ أيام . فرد عليها وكأنه يخاطب نفسه :

ـــ إذن فلن تكونى معنا . هلموا بنا نذهب فى نزهة قصيرة فأنا أشعر بحاجة إلى المشى .

وقبل أن يتحرك الجميع أحست سوسن بقدم تتحسس الطريق إلى قدمها من تحت المائدة .. وفى هذه المرة لم تجفل ، بل تركتها لمدة عشر ثوان . وكانت عيناها نصف مغمضتين ، وأناملها تعبث بطيات عقدها الأبيض ، فى الوقت الذى كانت فيه نسمة وانية تعابث الأغصان التى ألقت ظلمة طرية على أرض الحديقة ووجوه الضيوف .

— ١٥ —

وعندما انطفأت الأنوار فى عزبة محسن بك فى هذه الليلة وبعد عودة وحيد إلى قريته فلم يبق إلا الفانوس المعلق على واجهة المسكن ـــ كان هناك عيون لم تغمض ، رقد أصحابها لا يتكلمون ينصت كل منهم إلى صوت ذاته ، فمحسن بك يتقلب من جنب إلى جنب ، فى حالة بين التكذيب والتصديق لما قصه عليه أحد المزارعين من أن قريبة يتوعده بحدث مهم ، لأنه لم يمد إليه يد المساعدة يوم جاء يطلب منه المعونة ، وجعل محسن بك العنيد يسأل نفسه : لمن يدخر كل هذه الأشياء ؟ ! وجاءه هاجس يقول له : ربما طال الأجل ، واشتدت الحاجة ، وعندئذ تندم على التفريط . ثم ما لبث أن قال : إنه لو منحهم ، وهو حى تسعة أعشار ما يملك لابتهلوا إلى الله عقب كل صلاة .. أن يعجل بوفاته ليئول إليهم العشر الباقى .

وتنهد وتبسم . ثم وافق على أفكاره بتنهد وابتسام آخر قائلا :

ـــ إن ورثتى ليسوا من صلبى ! هذه هى المشكلة ! إنهم متربصون !

أما عزت فقد كان يستعرض أشياء أخرى :

لقد قرر ألا تدخل سوسن امتحان الدور الثانى لأنه واثق من رسوبها ، ولن يعرضها لصدمة أخرى . وهو يعرف أنها غير نائمة ، لأن أنفاسها تدل على ذلك ، ويعلم أنها تقف على باب تجربة ... وهو يخشى عليها الظمأ كما يخاف عليها من الغرق . ويعلم أن السلامة قلما تصحب العائد ، بالنسبة للاتى يقفن على النبع وهن صغيرات ، منهن من تزل قدمها ، ومنهن من ترمى بنفسها ومنهن من ترتشف حتى تروى وترجع دون أن يبتل ثوبها .

لماذا لم يكن ينظر إليهن بكل هذا الحرص من قبل ؟ وسأل نفسه هذا السؤال ، فتذكر أن كثيرا من الذين يخربون المزارع لا يملكون حقولا . فهو اليوم يخاف على كل عذراء ، كمن يتلفت من نافذته نحو السماء ليرى صلاحية اليوم للطيران ، ثم يدعو الله أن يحفظ كل مسافر لأن بين المسافرين إنسانا عزيزا عليه .

واقتحمت عليه الموقف صورة امرأة جاء ذكرها فى إحدى الرسائل وهى فاطمة وهدان ، وخفق قلبه ، وتنهد وأدار وجهه إلى الناحية التى تنام فيها ابنته ، وبصوت هامس يسمعه المستيقظون ، ولا يقلق النائمين هتف برفق :

ـــ سوسن .. سوسن .. سو ..

لكنها لم ترد . فقام إلى النافذة وفتحها ، وأطل منها على الليل ، وتذكر ما كتبه إليه مجهول فى رسائل الأمس ، يخبره أن عثمان أفندى يذيع بين الموظفين أن البر والمعاملة التى يلقاها من الأستاذ عزت ، ليست إلا فخا ومصيدة ينصبها له ، لأنه يريد أن يتخذ منه زوجا لابنته ، ثم ما كتبه إليه مجهول آخر ، من أن نوفل أفندى أذاع بين الموظفين ، أن الأستاذ عزت قد غرق حتى أذنيه وشعره الأبيض فى هوى امرأة ، تدعى فاطمة وهدان ، وقد رآهما بعينى رأسه هائمين فى الطريق لا يعرفان إلى أين يتجهان ، كأنما أصيبا بحادث واحد سبب لهما فقد الذاكرة .

وكان عزت يتطلع إلى الأفق الغامض تحت أستار الليل ، وينظر إلى كوكب الزهرة بين وهلة ووهلة فينبعث فى قلبه وهج حى ، نصفه شوق ونصفه ألم ، مثل الذى كان يتهدد قلبه ويتعهده وهو فى ريق الشباب .

وقطع عليه ما هو فيه حركة بنته تتقلب ، ثم سعال متقطع يصحبه شهيق كأنها شرقت وهى تشرب ، ثم ساد الصمت ، وارتفع نباح الكلاب

- على دور العزبة ، وسمعت نحنحة الخفير ، ثم رجع الصمت فسيطر على الموقف مرة أخرى .

وعندما رجع إلى فراشه ، كانت سوسن تستعرض أفكارها للمرة الثانية ، وهى فى فراشها ..

لم يكونوا مجموعة واحدة عندما عادوا من نزهة المساء فى الليل الذى كاد ينقضى فقد آثر الشبان أن يعودوا من طريق فرعى أكثر طولا . وكان شكرى بطل الحديث فى هذه المرة ، وبدا أخف ظلا فى عينى وحيد من أى يوم مضى ... كان يتحدث عن موقف صديقه كامل بعد انقطاعه عن الدراسة ، وعودته إلى الريف ، ويفلسف الموقف بأن الذين يطلبون السلام على هذه الأرض قلما ينالون السلام ، وأن العدوان يقع أول ما يقع على الذين يكرهون العدوان ، وأن الريف خير مكان يصلح لإثبات هذه النظرية ، ثم قال :

ـ لم يكن صديقى كامل يعلم أن أباه سيتخلف ، ويتركه فى منتصف الطريق ... نعم ... لو أنه أكمل دراسته ما فكر فى أن يشغل وظيفة ولا حتى يشتغل بالمحاماة . كان يريد أن يدعم مركز والده الاجتماعى فى الريف بالشهادة الجامعية التى يحصل عليها . هذا فقط ما كان يرمى إليه الأب والابن فى وقت واحد ، لكن بعد ما أريق دم أبيه فى ثأر ، كان عليه أن يعود ليواجه عدة مشاكل : أولها أنه سيكون وصيا ، أو شبه وصى على ست بنات من أبيه من زوجته الجديدة ، وأنه سيدير مزرعة تبلغ مساحتها مائتى فدان ، وليس هذا كثيرا عليه فقد كان بطبيعته ميالا للزراعة ، وكان ساعد أبيه طوال شهور الصيف ، وكثيرا ما كان يغيب عن الدراسة فى مواسم حصاد البطاطس ..

وكان الطريق يتسع ويضيق ، ويستوى ويعرج ، وأجسام السائرين

تتلامس بقصد أو بغير قصد ، وسوسن تمسك إذا تعرضت للعثار بيد أقرب شخص منها ، فأحيانا يكون أخاها ، وأحيانا يكون (وحيد) ... وتحت الضوء الخافت الندى الذى ترسله النجوم وحدها فى السماء الصافية أحست الفتاة بما يمكن أن يسمى (بهجة الحب) ، ولو أنها بينها وبين نفسها لم تسلم به بعد . والذين سموا الحب مرضا ربما لحظوا وجه شبه أصيل بينه وبين الأمراض ، هو أننا نكون فى أشد حالاته ، ولا نعترف بوجوده .

وكان يبدو عليها وعلى وحيد أنهما مسروران بما يقصه شكرى عن صديقه ، فى حين أن كلا منهما فى هذه اللحظة كان يملك من المشاعر ما يستغرق انتباهه الشخصى لمدة شهر ، ثم استطرد شكرى يقول :

ـــ على أن البلوى كلها يا صديقى ، لم تكن إلا فى مسألة الثأر ؛ لأن كامل المتمدين الحديث قرر بينه وبين نفسه ألا يفكر فى أن يثأر ، على الرغم من أن زوجة أبيه كانت تعمل فى سبيل ذلك أعمالا لا تصدق ، فلقد احتفظت بالصدارى ذى الأزرار الصدفية الذى شرب من دم أبيه ، احتفظت به فى صوان لتعرضه على كامل فى ليالى الأعياد بعد جدل ونقاش ينقلب عراكا ، وتقوم المرأة فجأة لتحضر الصدارى قائلة : هذا هو دم أبو البنات ... أبو البنات ... أبو البنات .

وأخيرا قال الشاب لها فى غضب :

ـــ اسمعى يا سيدتى : اعتقدى منذ هذه الليلة أن أبى لم يترك ست بنات وولدا ، بل قد خلف مع الأسف سبع بنات .

ثم زاد حدة غضبه وهو يقول :

ـــ هذا هو أبو السبع بنات الذى حكوا عنه فى الحواديت يا سيدتى ... هل فهمت ؟ ! ليس من المعقول أن تحب امرأة ابن



وعندما رجع الى فراشه ، كانت سوسن تستعرض افكارها للمرة الثانية ، وهى فى فراشها .

ضرتها . ولكن من المعقول أن تحرص عليه إذا كان مدبرا لشئون أولادها وأنا هو هذا الأخير ، فهل تريدين أن أقتل أنا الآخر ؟

واستطرد شكرى يصف الموقف : وعند ذلك سحبت المرأة نفسها وهى تقول فى هدوء : أبدا ... أنا لست حزينة على ما فات ، بل خائفة من المستقبل .. اقتل عدوك قبل أن يقتلك .

قالت سوسن وهى تشهق :

ــ يا ساتر .. يا لها من حياة .. أنا لا أطيق أن أقتل فراشة .

فجلجلت ضحكة وحيد فى سكون الليل ، وكانت يده قد وصلت إلى كفها فضغط على أصابعها وهو يقول :

ــ ولا أنا .

فردت سوسن : صحيح إذن فأنت غير مخيف !

ثم سحبهم صوت شكرى من جديد :

ــ على أن كامل أخذ (يتفقد الموقع) بواسطة الفضوليين الذين يجتمعون حول كل فتنة ، فعلم أن الشاب الذى قتل والده يسعى فى قتله هو كذلك ... نعم يا سوسن فى قتل كامل ؛ لأنه إن فعل ذلك فإن حدة إدراك الثأر ستخف ، إذ تنتقل إلى أبناء العم . عندئذ شعر كامل أنه لا يطالب بثأر ، وإنما يدافع عن حياة . عن حياته هو شخصيا . وقال لى وهو يصف هذا الموقف :

ــ تصور يا شكرى أى إنسان كنت ... أنا الذى كنت لا أعرف من الحياة إلا نورها أصبحت أعيش فى ظلام .

فقلت له :

ــ ولماذا لا تترك الريف بدستوره الدامى ، وتعيش أنت وأخواتك فى المدينة ؟

فسأل ضاحكا لكن فى مرارة :

ــ والأرض ؟ !

قلت :

ــ أجرها .

فأجاب فى نفس الأسف :

ــ إنها لن تكون مؤجرة ... إنهم سيعتبروننى هاربا ... مهزوما ، وستكون هذه الأرض إما غنيمة حرب وإما أسلاب قتلي . ها أنت ذا ترانى قد كبرت يا شكرى ! إن عدة الشهور التي افترقتها عنك قد غيرت حالى . هل تذكر يا شكرى سخرياتنا من الأشياء العزيزة والمقدسة ؟ ! لقد تبينت اليوم تحت وطأة عبثى ، أن السخرية لا تصدر إلا فى حالة رضا بالغ ، أو حالة يأس قاتل . وأنا الآن فى الدوامة يا صديقى ، فلا أستطيع أن أسخر من شيء إلا من شيء واحد ..

ثم نظر شكرى إلى من يحدثهم سائلا :

ــ هل تستطيعان أن تخمنا ما هو ؟

قال وحيد :

ــ آه .. ماذا عسى أن يكون ؟ ! .. من القدر !

فأجابه شكرى :

ــ لا . قولى أنت يا سوسن .

فردت وهى تتضاحك مرددة كلام وحيد :

ــ آه ... ماذا عسى أن يكون ؟ ! .. القدر !

وعندئذ عاد شكرى يفسر الموقف :

ــ إن كامل يعتبر أن أكبر بلية تصيب إنسانا هو أن يقع فى مشكلة لا تحل إلا بمشكلة ، مثل الثأر ، لكن الجديد فى أمره هو أنه طلب إلى

كامل أن يتزوج ها . ها . ها ... تصوروا ... قبل أن يقتل !

فقالت الفتاة فى خوف :

ــ ولماذا يفعلون ذلك ؟ ألكى يترك أيتاما ؟ !

فقال شكرى :

ــ لا ... بل لكى يترك وارثا لأنه الذكر الوحيد بين أخواته ، ثم لكى يصاهر أسرة ذات شوكة يكسب بقوتها قوة جديدة ، كما كان يفعل الملوك فى قديم الزمان ! .. اللهم كن فى عونه ! عن إذنكم ..

ثم عرج على أحد الحقول بعد أن وثب من فوق القناة ليقضى حاجة لا تستغرق نصف دقيقة وكان واقفا ... وواصل وحيد وسوسن سيرهما ، وانتهز وحيد فرصة اختلائهما وقال للفتاة بصوت ضخم الليل كل سر من أسراره :

ــ سوسن ... هل تعرفين بماذا كان يستطيع هذا الشاب الذى حكى قصته أخوك أن يتغلب على بلاياه ... بالحب ! » .

ثم أمسك بيدها يعاونها على أن تثب إلى الرقعة الجافة من أرض الطريق ؛ لأن مياه الفيضان كثيرا ما تفعم القنوات فتفيض بالليل على طرقات المزارع ، واستطرد وحيد مكملا :

ــ لو كنت أحببت بصدق قبل مشروع الحظيرة ما فشل مشروعى ، هل تضحكين ؟ !

فأجابت هامسة ، أيضا ... بصوت ضخم الليل كل سر من أسراره :

ــ ليس منك يا وحيد ... ولكن تذكرت الطريقة التى حكيت بها الحكاية ، آه ... هل تذكر أنك خلعت عليها ثوبا من الخيال أضحكنى ليلتها وأنا حزينة من أجلك ؟ ! ...

وكان الطريق قد بدأ يتعرج نحو مدخل الحديقة من الشمال حيث

يفتح باب كبير فى رأس الممر .. وخط الجزورينا إلى اليسار نحو الشرق وظلمة أشجار الفاكهة فى الحديقة إلى اليمين نحو الغرب .

ولم يكن شكرى قد لحقهما بعد ، ووقفا على الطريق معا كأنهما قد اتفقا على ذلك ، ونظرا إلى الخلف ، ولم يكن هناك حس ، وبالطريقة التى نعرض بها عن فحص أسباب تخاف شيء نحب أن يتخلف ، لكى تتاح لنا فرصة من السعادة ولو قصيرة ، أعرض الشاب والفتاة عن النداء على شكرى ، أو حتى التساؤل أين هو ، وعبرت نسمة حملت من تلافيف الشجر رائحة أزهار وفواكه ، وكأنما غمست نفسها فى الماء لتصبح معطرة ندية ، ولما تغلغلت فى غصون الجزورينا أزت فى صفير حرك أوتار المشاعر في الواقفين على الممر ؛ لأنهما ليسا إلا قطعة من هذا الوجود الذى اطمأن إلى رداء الظلمة الناعمة ، وخفقات النجوم فى سلام . فامتدت يد (وحيد)وتلمست طريقها نحو كف سوسن فناولته أنامل لا إرادة فيها . ونظر الشاب إلى الوراء فلم يسمع خطوا ولم ير شبحا قادما فترك كفها ورفع ذراعه نحو عنقها ، وقد قرب بجسمه منها حتى أحست لفح أنفاسه ، وبحركة منها لا داخل للإرادة فيها أيضا لم ترتم على صدره ، بل وثبت إلى الوراء ، جافلة من قبضة التجربة . وسمعت صوت وحيد خافتا مبتهلا خائفا يقول لها :

ـــ ما هذا !! ماذا فعلت ؟ ! مكانك .. مكانك ؟ ! .

وردتها إلى الوعى ضحكة متدفقة ساخرة عاتية فى وقت واحد ، تبعها صوت شكرى وهو يقول لهما على بعد :

ـــ أيها الشريران ... ماذا فعلتما ...

وغاص قلب الفتاة ، وجف ريق وحيد ، واستطرد شكرى يقول وهو يضحك :

ــ ماذا فعلتما ... أما كان يجب أن تنبهانى إلى أن الطريق موحل ؟ !
وحيد ... ألم تر فى النهار أن سمك نظارتى يكاد يكون مثل قعر الزجاجة . حاولت أن أغسل قدمى فى القناة فرأيت العلاج شرا من الحادث .. هلموا هلموا ... عندما نصل إلى هناك سأخلع الحذاء والجورب ، وأنظف أسفل البنطلون .

ثم ساروا يظلهم الصمت ، وأدرك وحيد الذى لم يكن يتمالك أعصابه أن السكوت يدعو إلى الريبة فبدده بصفير استغرق مدة سيرهم على الممشى ، حتى وصلوا إلى المسكن .

وسارعت سوسن إلى الداخل ، وكان محسن بك وعزت قد وصلا وجلسا منذ قليل ، وسمعتهما الفتاة يتناقشان حول قريب محسن بك الذى جاء يوما يطلب منه المعونة ، وشد ما ملأها الرعب عندما تحسست عنقها فشعرت فجأة أن العقد ليس موجودا ، إذن لقد قطع العقد وتناثرت حباته فى الظلام عندما جفلت من وحيد ، وكانت يده قد علقت بالجزء الذى تدلى على صدرها .. أمن أجل هذا كان يقول لها : « ماذا فعلت . ماذا فعلت » .

ولم يطل مكث وحيد فى الخارج فقد استأذن وانصرف ، ولم تستطع الفتاة لفرط اضطرابها أن تغادر غرفتها ، ولم تشعر وهى تغير ثيابها إلا وجزء من العقد فى ثنايا صدرها . سقط من فتحة الفستان فحجزه (السوتيان) بعدئذ أخفته بسرعة فى حقيبة يدها . ثم تحيرت فى تخير من يذهب ليجمع الحبات من فوق أرض الممر ، إنها لن تستطيع أن تقول لخالتها شيئا فقد كانت مع شكرى ووحيد وستسألها خالتها : لماذا لم يجمع أخوها حباته بعد ما قطع ؟

وعضت شفتها حين تناهت إليها قهقهة أبيها من الخارج مفعمة بالسرور ، وقالت في نفسها : هأنذا بدأت أسبب له الأحزان : ماذا يجب أن أقول لك يا بابا ؟ ! ودمعت عيناها في أسى عندما تذكرت العنق الغض الذى تحلى بهذا العقد من قبل . عنق أمها ... « كان بديعا ناصعا فى بياض الجمان ، جديرا بهذا العقد » .

هكذا قالت فى نفسها .

ثم عتبت على الظروف التى جعلت من أمينة غائبة فى هذه الفترة .

وسمعت صوت أبيها يناديها فسارعت بالخروج ، ولزمت الصمت طوال الجلسة ، ولم تأكل جيدا على مائدة العشاء .

وهذا هو الليل قد تقدم خطاه ، نعم . وصوت أنفاسها يدل على أنها مستيقظة ، وها هو ذا أبوها ينادى بصوت يسمعه اليقظ ولا يزعج النائم ، لكنها لم ترد ، ولا يزال الأب واقفا فى النافذة ينظر إلى الليل ويستمع إلى السكون ، ثم عاد إلى الفراش ، وما لبث أن نام أما هى فقد كان نومها خطفا .

وعندما بدأت الأشياء تظهر تحت نور النهار نهضت الفتاة من فراشها . كان لا بد لها أن تعمل عملا ، وهمت أن تقول لأبيها إننى ذاهبة لألتقط حبات العقد لكن ... يبدو أن الحقائق عندما تخرج من ضمائرنا تتخذ فى العالم الخارجى شكلا آخر ، فقد بدا لها أن الكلمة التى رأتها سهلة معقولة إذا آزرها العفو أو الصراحة أو حسن التعليل ــ بدت لها جريمة كبرى عقب نطق اللسان بها ، لكنها كانت قد نادت قائلة :

ــ بابا ... بابا ...

وكان النهار قد وضح .

فانفتحت أمام وجهها عينان ناعستان ، وتخايلت ابتسامة تحت ثقل

النوم على شفتى (بابا) فاستطردت سوسن :

ـــ إننى .. أنا .. أنا ذاهبة إلى الحمام ..

وأغمض الرجل عينيه لكنه كان قد أحس فى نبرات الفتاة بشىء يرتعش ، وأقفلت عليه باب الغرفة بعد أن خرجت وفتح الأب عينيه وحملق فى كل شىء حوله ، فى الوقت الذى كانت الفتاة تستعيد فيه وصف أخيها لموقف كامل « إن أفظع مشكلة هى التى لا تحل إلا بمشكلة أخرى » وحملق الأب فى السقف ثم الأرض ... ثم نقوش السجادة ... ثم نهض كالملسوع ، وذهب برفق إلى الحمام فلم يسمع صوت أحد . ونقر ... فلم يأته صوت ، وذهب إلى باب الشقة فألفاه مفتوحا فوضع (الروب) على جسمه وخرج يتلفت ، ولم يلبث أن قابله أحد الخدم وقال له بعد تحية الصباح :

ـــ لقد ذهبت الآنسة فى هذا الاتجاه لتشم نسيم الصبح .

وحرص على ألا تراه ، وكمن فى موقف مناسب بعد أن تبين اتجاهها وقد عرف أنها ذاهبة لتجمع اللآلىء ، لأنه قبل أن يمر بها أخذ ، لأنه رأى حبتين على السجادة ، سقطتا من صدرها فى الليل حينما استخرجت البقية الباقية من العقد من زوايا (السوتان) . وعلى مرمى البصر رآها تنكب على الأرض وتجمع ما تجده ، لكن راعه بعد قليل أن رأى (وحيد) يدخل من باب الممر الشمالى ويشاركها العمل ، ثم افترقا بسرعة . وأدرك الأب أن الشاب والفتاة سيطر عليهما فى الليلة الماضية خاطر مشترك ، لأنهما وقعا تحت ضغط مشترك لحادث واحد ، فتسلل خافق القلب إلى المسكن حيث استلقى فى الفراش من جديد ، لكنه تذكر أن شكرى كان معهما ! وبعد وقت مناسب دخلت سوسن إلى الحجرة بشعر مبلول ، وجلست إلى مرآة الزينة تسرح ، ولم تلحظ أن

والدها يرقبها فى المرآة من تحت أهدابه ويكتم تنهده كلما أرسلت إحدى التنهدات ، ثم لحظ الأب أن عينى الفتاة أخذتا تتسعان ، وظهرت فيهما حيرة ، ثم هتفت لتوقظ أباها :

ـــ بابا ... بابا ...

ولم تسمع ردا ، فالتقطت من فوق منضدة الزينة ، حبتين من لآلىء عقدها وأضافتها إلى ما جمعته ، ثم شردت تسأل نفسها :

ـــ ماذا أتى بهما إلى هنا ؟ !

ثم أجابت مغالطة :

ـــ أليس من الجائز أن أكون وضعتهما هنا فى لحظة شرود وارتباك ؟ ...

ثم نظرت نحو أبيها فألفته كالمستغرق فى النوم ، وكأنه لم ينهض منذ قليل ليلتقط اللؤلؤتين ، ويضعهما لها على منضدة الزينة .

لكننا ننحاز دائما نحو الفكرة التى نراها فى خدمة موقفنا .

ـــ ١٦ ـــ

ثم ظلت طول النهار تترقب شيئا يحدث ... أن يقولَ أبوها لها كلمة أو أن يحضر (وحيد) ، أو أن يستجيب أخوها إلى استفزازها فتشتبك فى عراك ، لكن سكون الطبيعة وجمود الموقف جعلها تحس بوضوح كأنها تبكى وحدها .

وعلى مائدة الغداء قالت خالتها توجه السؤال إلى شخص غير محدد :

ـــ لماذا لم يحضر وحيد اليوم ؟ ! ألم يره أحدكم ؟ !

وتحولت اللقمة فى فم سوسن إلى شىء أشبه بقطعة الإسفنج عندما

خطفت نظرة إلى عينى أبيها ، وشعرت أنها تحب أباها أكثر من أى وقت مضى ، ثم بحاجة قصوى إلى الدخول إلى قلبه لترى ماذا يكن لها الآن ، ثم بحاجة قصوى إلى البكاء ، ثم بكره شديد للشخص والفكرة اللذين ألجآها إلى هذا الموقف . فشعرت بنقمة على (وحيد) ، وبكره للحب نفسه ، وأدركت أن عذاب بطلات الروايات الذى تمنت أن تقع فيه ذات مرة أشبه بلوحة زيتيه جميلة لمعركة حربية دامية علقت فى مدخل قصر ...

ـــ ألم يره أحدكم ؟ !

كان سؤال خالتها لا يزال عالقا بسمعها ، كشىء يتطلب ردا محتوما ، ولم يجب عليه أحد إلا محسن بك الذى قال بطريقته المرة الحلوة ، وفى نبرة تشبه التهكم :

ـــ وحيد ؟ ! .. أوه .. إنه يستجيب لخواطره وبوادره بسرعة .. إنه ولد أرعن لطيف . من يدرى ؟ ! ربما بدا له فجأة قبل شروق الشمس أن ..

ثم توقف محسن بك ليستطرد ، وهو ينظر إلى سوسن :

ـــ ماذا تفعلين يا سوسن ؟ ليس هذا ملحا إنه فلفل يا بنيتى : غيرى طبقك فلم يعد صالحا لأن تأكليه .

ثم استطرد فى لطف :

ـــ وغيروا لنا هذه الملاحات المعدنية التى لا نعرف ما بداخلها ، إلا إذا قرأنا اللافتة المكتوبة عليها ، لقد أتلفت طعامى مرة وأنا شارد .. وماذا كنت أقول ؟ .. آه .. لعله سافر إلى الإسكندرية دون عزم سابق ، لأنه يفعل فورا كل شىء يظنه مناسبا .

وبعد نومة الظهر جلست سوسن منعزلة تحت إحدى الأشجار ، تلضم عقدها ، وتقرأ فى كتاب . كانت فى بياض الجير كل شىء فيها شاحب حتى شفتاها ، واسترجعت الملاطفات العذبة التى رأتها منه يوم

أهدى إليها هزيمته فى لعب الورق ، وليلة لامس قدمه قدمها من تحت المنضدة ، فهربت بها فى المرة الأولى ، وأسلمتها له فى المرة الثانية ، ثم سألت نفسها : « هل يعذبه الآن شيء مما يعذبنى ؟! » .

أما هو فقد كان فى حقيقة الأمر خائفا أن يلقاها . سار نحو العزبة مرتين ثم رجع من منتصف الطريق .

وانقضى اليوم فلم يحضر . وصحبت سوسن شكرى فى نزهة خلوية بعد غروب الشمس فرارا من أن ترى حبل الصمت الممدود بينها وبين أبيها . فنحن نضطر إلى استعمال أردأ الأشياء بعد أن نفقد النفائس بقوة قاهرة .

وانقضت السهرة على صورة ما ، وأويا إلى الفراش ، وشعرت الفتاة أن أباها لم ينم ، وكانت طبيعة الاعتراف مستيقظة فى نفسها لكنها خشيت شيئا ، خشيت ألا يصدق أبوها ختام القصة ، وكانت صائبة الرأى ، وإن لم تكن تدرى العلة ، لأننا نفترض مقدما أن الذين يعترفون بأخطائهم يعلنونها بالأعذار أو يخففونها بالأكاذيب ، ومن على قمة شجرة بعيدة كان يأتى إلى أذنها بين فترة وفترة صوت معدنى صارخ لأحد طيور الليل .

وفجأة هتفت فى الظلام :

ـــ بابا .. لم تنم ؟ .. هل أنت متألم من شيء ؟ !

فاغرورقت عيناه بالدموع ، وأحس كأن يدا مسحورة فتحت أبواب قلبه ، وأدرك فى طرفة عين كيف يعفو الناس عن الخطايا العظيمة إذا ما وفق الخاطئون إلى كلمة السر ... يهمسون بها مترفقين ... فتفتح النفوس لهم أضخم الأبواب !

وابتلع ريقه ، وقال ووجهه ناحية فراشها :

ـــ نعم .. هناك شيء يؤلمنى .

ـــ لماذا لا تشتكيه إلى ؟! ..

واختنق صوتها ، وهى تردف :

ـــ ولماذا أشتكى إليك كل شىء يا بابا ؟!

ثم ارتفع بكاؤها .

وهم الأب أن يقوم ليشعل النور ، لكنه آثر أن يتكلم فى الظلام ، فقال وهو يتنهد ، قال برقة :

ـــ لا تبكى يا سوسن .. لا تبكى يا حبيبتى .. أنا أعرف جيدا ما الذى يبكيك ، لقد عشت معك فى نفس المتاعب ، وشخص واحد هو الذى خلقها لنا ..

وسكت قليلا ، وحاولت الفتاة أن تتكلم فجمد لسانها ، واستطرد الأب بعد صمت ، محولا مجرى الحديث :

ـــ إن خالتك هى التى أيقظت أشجانى طول النهار الماضى ، وقد لاحظت عليك أنك وقعت تحت التأثير . ألم تلاحظى أن روح أمك كانت تطل من عينيها ، وتسرع مع نبرات صوتها خصوصا بعد ما خف وزنها ومالت إلى النحافة ولبست ثوبا أبيض آه .. كدت أناديها باسم زينب ، وأمشى خلفها وهى تعبر الممر . نعم .. ثم تذكرت حادثا عظيما لم يغب بعد عن أذهاننا .. و ..

وتأوه وسكت ، وتنفست الفتاة الصعداء ، وتيقنت أن حبتى اللؤلؤ اللتين وجدتهما على منضدة الزينة وقت الصباح قد وضعتهما هى بيدها فى لحظة ارتباك ، وغنى طائر فغطى على الصوت المعدنى الجارح للطائر الآخر . ثم تكلمت تواسى أباها بطريقة جعلته يمسك نفسه حتى لا يضحك ، وبعد أن فرغت من عبارات ساذجة شرع الأب يقول بصوت هامس ، كأنه تحذير ملىء بالحنان :

ـــ حسنا يا سوسن ، لا بد أن أحتمل ، واعتقدى أن كل عذاب يزول إلا عذاب الضمير .. عذاب الضمير .. عذاب الضمير ، نامى .. تصبحين على خير ..

* * *

وفى مساء اليوم التالى حمل البريد إلى الأستاذ عزت خطابا من الأستاذ بكير ، الذى يسكن الشقة المقابلة فى القاهرة . يخبره بحماسة وشهامة أنه عرف بعنوانه عن طريق الوزارة ، وأنه عندما كان يصعد السلم فى ساعة متأخرة عائدا من حفلة زفاف أمسك بأحد اللصوص ، وهو يحاول فتح باب شقتهم بعد أن كسر القفل المتدلى من الباب ، وقد حرر محضرا بالحادث ، وليس هناك ما يدعو إلى القلق ، ولم ينس الأستاذ بكير أن يكتب ما يناسب المقام من حقوق الجار ووجوب سهره على جاره ، وأن الجار القريب خير من الأخ البعيد .

وأحس شكرى بنفاسة الفرصة ، فأوحى إلى أبيه بضرورة السفر ؛ لأن اللصوص عادة لا يكونون فرادى ولكنهم عصابات لكل واحد مهمة ، ومن الجائز أن يعاودوا السطو ، ولو على سبيل الانتقام . ومسح نظارته وأعاد وضعها على عينيه ، وتحسس شاربه الأسود الغزير ، وتنحنح وسكت . أما سوسن فقد وافقت على كلام أخيها بارتياح لم يسبق له مثيل فى تاريخ الرأى بينهما ، فأحس الأب أن كلا منهما يعانى ضيقا من نوع معين ، فضلا عن الشعور الغامض بالحنين إلى العودة .

وفى المساء كان كل شىء معدا ولم يبق إلا الرحيل . وعندما قامت الجماعة للمرة الأخيرة بالنزهة بين المزارع أحست الفتاة على الخصوص بأن علاقة حية ــــ قد يطول أجلها ــــ ربطت بينهما وبين هذه الأماكن . ولما بحثت عن السر فى هذا الموقف أخافها قليلا أن لوحيد دخلا فيه .

وكان محسن بك يتكلم بنبرة يشوبها الأسى ، وفى هذه الليلة رأوه أليفا إلى حد الوله ، كالنهر الذى فاض على غير انتظار ، وكان يقول لهم بعد أن يشتد اللغط أو الجدل أو المزاح ثم يسود الصمت : « حقيقة أن فى الحياة أشياء جميلة .. حقيقة أن فى الحياة أشياء جميلة » ويهز رأسه ، ثم يعود إلى جوه الأصلى الذى انغمست فيه نفسه منذ يئس من الذرية .. جو الخوف من الموت المسلح بالنهب ، والمتمثل فى وجوه أقاربه الذين عرفهم ضيوفه .

وعند ارتفاع الضحا صعدوا المنحدر مرة أخرى فى طريقهم إلى محطة السكة الحديد . كانت أشجار الجزورينا تلقى ظلها تحت أقدامها على التقريب ، وتهمس فى خفوت جعل سوسن تسمع بين طياته كلمات « مع السلامة » . وتلفتت خلفها ، كأنها تفتش عن شخص كان ينبغى أن يكون فى وداعهم ، لكنها فى نفسها بعد أن استوى بهم السير على الطريق الرئيسى : « من يدرى ؟ .. من الممكن أن يكون قد سبقنا بالسفر » . لكن المنظر كان مبتورا فى عينيها على كل حال ، وكان شكرى متلألىء الوجه ، أسود الشارب ، انفرجت شفتاه حتى نهايتهما بالابتسام فرسمتا الخط المتوازى مع ذقنه العريض . أما الأب عزت فقد خيل إليه ، وهو يسلم على السيدة اعتدال أنه يودع زوجته زينب كأنما كانت روحها تحرسه فى كل مكان .

وكانت المحطة الريفية المكشوفة الرصيف . الخالية من المظلات مزدحمة فى هذا اليوم بشكل يلفت النظر ، ولو خطر على بال المسافرين أن الحال ستكون هكذا لتأخروا يوما .

وبعد عدة دقائق بدأت الدفوف تدق ، والأناشيد الصوفية الولهى يتغنى بها جماعة لمعت حبات العرق على وجوه بعضهم ، وجرت على خدود

الآخرين ، وعلى ظهور الذين يحملون الدفوف كانت دوائر مبلولة من العرق مرسومة على لوحات الأكتاف ، وزغاريد لبعض النسوة عند نهاية الرصيف ، وأطفال يتصايحون ، وشبان يحملون جريد النخل ، وهرج ومرج ، وشمس أغسطس حارة متوقدة ، والجو فى لون قشر البرتقال .

كان القطار سيقل فوجا من الحجاج ، ومن بينهم أحد مشايخ الطرق فحتمت زحمة الرصيف على المسافرين أن يكونوا متقاربين ، حتى لا يضل بعضهم عن بعض ، وبدت أمينة خائفة ترتعد كأنها فى يوم البعث . وعلى مقربة من سوسن كانت صناجات بائع عرقسوس ترن ، وفى درابزين المحطة من الخارج كانت الحمير المربوطة تتبارى فى النهيق ، وأثار هذا المنظر الفوضوى غير المألوف لدى سوسن إحساسات من السرور بحيث أصبحت وأى شيء يضحكها .

وتبرع ريفى شيخ بلحية سوداء كان فى وداع الحجاج ، ومعه مظلة أن يميل بالمظلة نحو الفتاة ، ورآه عزت الواقف على مقربة منه فابتسم يشكره ...

ومن بين الزحام ظهر لعينى سوسن شاب فى قميص أبيض لامع الجبين قلق النظرات ، يفتش بين الناس عن وجه يعرفه . وعرفت فيه وجه (وحيد) فخفق قلبها وكان أن لقى أباها وأخاها أول الأمر ، ولم تسمع ما كان يدور بينهم من حديث وهى على بعد ثلاثة أمتار من موقفهم ، لقد تأخر القطار عن ميعاده وليس هناك من يدرى كم دقيقة سيتأخرها . فأخذ الواقفون ممن يحملون الدفوف يتسلون بالدقات والأناشيد .

واختلطت الأصوات العادية بالأغانى ، وترنح الصبيان يرقصون بالسعف ، ومر قطار بضاعة يحمل أخشابا فى بعض عرباته المكشوفة فابتسمت سوسن ، ونظرت إلى الناحية التى يقف فيها (وحيد) ، ورأى

الابتسامة على فمها فى الوقت الذى كان قد استأذن من أبيها ليسلم عليها ، وتحرك معه الأب ووقف الثلاثة ، واضطر الشيخ أن يحول المظلة عن رأس الفتاة من تدافع الناس حولهما ، وكان قطار البضاعة لا يزال يمر وسوسن مشغولة بعد العربات ، وبحركة غير شعورية تحركت شفتاها بالرقم فمال نحوها وحيد يسألها هل توجه إليه حديثا ؟ !

وكان ناى ودفوف . وأصوات شجية جماعية فى هذه اللحظة تتغنى قائلة :

يا زارع الريحان حول خيامنا لا تزرع الريحان لست تقيم

وأى كلمة بجانب الأذن فى هذا الجو لا يمكن أن يسمعها إلا من قيلت له فهمس وحيد لسوسن يقول :

« ربما فى الإسكندرية .. ربما فى القاهرة .. لا بد من اللقاء » .

وتدخل الصوت الخارجى أكثر فأكثر ؛ لأن المجموعة عادت تقول :

يا زارع الريحان حول خيامنا لا تزرع الريحان لست تقيم

ومن خلال هذه الضوضاء قالت له الفتاة :

ــ سببت لى متاعب ..

ــ العقد ؟ لم أكن أقصد .

ــ ورجلك من تحت المنضدة ؟ !

ــ أنا ؟! أقسم لا !

وبدا الصدق فى عينيه فارتعبت ، وسألت نفسها من إذن يكون ؟ أبى أم محسن بك . إنى أخشى أن يكون .. أبى .

ولم يكن فى الحقيقة إلا أباها !

وجاء صوت الأب عندئذ يقول :

ــ استعدوا .

وارتفع صوت جماعة تغنى فى وله مع ناى آخر : « أحبه حتى فى المنام .. وأحبه حتى فى المنام .. » وزغردت نسوة ، ودخل القطار يصفر فغطى على الزغاريد .

واستقرت الأسرة فى أحد الصالونات ، ونزل (وحيد) بعناء ووقف على الرصيف يمسح العرق بالمنديل مرة ، ويلوح به مرة أخرى .. حتى إذا ما غابت نافذتهم عن عينيه مسح بنفس المنديل دمعة لم يكن يتوقعها فى الوقت الذى كانت سوسن تنظر فيه إلى معالم هذه البقاع التى أيقظت قلبها بطريقة خالية من الضوضاء ، كما تفعل الأم بطفلها النائم ، وكانت أشباح الشجر ورقعة المزارع ، ومعالم الريف كلها تخاطب سوسن بكلمة واحدة ، وبلهجة رتيبة لا تتغير :

« ذكريات » ، « ذكريات » ، « ذكريات » ..

تصاحبها موسيقى العجلات على القضبان ، حتى امتزجت الكلمة باللحن .. ثم غابت الكلمة ، ولم يبق إلا اللحن الذى أنصتوا إليه حتى وصلوا إلى القاهرة .

— ١٧ —

وكأنهم جميعا لم يروها منذ عام ... حتى الحر فيها كان حبيبا إلى القلب !

ووقفت سوسن فى المساء تنظر إلى الطبيعة من شرفتها ، فخيل إليها أنها تراها للمرة الأولى ، وخفق قلبها خفقة الحب عندما هبط المساء على ذوائب الشجر ، وعلى الحدائق والمبانى ... مثل أول أغنية نسمعها ونحن نحادث حبيبا فنستشعر حلاوة الحديث كلما سمعناها .

وبدا المكان جميلا لعينيها ، كأنه جزء متمدين من عزبة محسن بك .

أما (وحيد) فإنه بعد وصوله إلى الإسكندرية أحس بضيق لا مثيل له ، وأطل من غرفته في (البنسيون) على البحر يفكر فيما عسى أن يفعل ، كان يحس أن في داخله شيئا يتساقط مثل حواف الشاطئ ، إذا نخرها الفيضان . وعندما رأى صاحبة (البنسيون) العجوز تمنى أن يكون في سنها ... أن يمر به قطار الشباب ، وينطفئ الوهج فيستريح ، ولم يلبث أن وضع ملابسه على جسمه ، وخرج حيث اجتمع (بشلة) تتفنن في قطع أوقات الفراغ ، والتقى بإحدى النساء ، وخرج أكثر انقباضا ، وفي الطريق سأل نفسه :

« لماذا أنا في الإسكندرية وهي في القاهرة ؟! ... أليس هذا الرسم خطأ ؟ » وسكت ثم عاد يقول : « ولماذا لا يكون ذلك سببا للنسيان ؟ ! لعنة الله على هذا ! ... » .

ونام مرهقا آخر الليل . وأخذ البحر يحكي له قصة الأزل ، بصوت يعبر من الشباك ، وهو مغمض العينين ، يتخيل وجه سوسن ليلة كانت أمامه على المائدة بعد أن نهض للقمر ، فألقى نوره على وجهها الطيب ، ثم ضحكها الناعم وهو يقص عليهم قصة « فشله » ، ثم أخذ يشم رائحة ملابسها في المركبات العامة ، كانت تفوح من رداء كل حسناء ، ومن عطر كل امرأة ، وطاردته الذكريات كفراشة تجري وراء يعسوب ... حتى أحس لفرط هيامه أنه مغموس في لجة من الخمر .

ولم يسعه إلا أن يعمل ما يعمله الناس إذا نابهم قلق ... ألا يدخل إلى فراشه إلا وهو مرهق ، فكلفه إرهاق نفسه أشياء باهظة ... وبعد أسابيع ... سكن اللهب وبقيت النار مستورة .

* * *

وعندما رأى الأستاذ بكير في الليلة الأولى النور يلمع من خلال باب جاره ، طار به الفرح ورأى واجبا عليه أن يذهب إليه فيهنئه بسلامة العودة ، ويطمئن على أن المسكن لم يصبه شيء من يد اللصوص .

وقبل أن يتهيأ عزت للخروج ، وأن يناقش الفكرة التي راودته في الذهاب إلى النادى ، أو المرور على جاره ليشكره على اهتمامه ، دخلت الخادمة تعلن لسيدها مقدم الأستاذ بكير .

ورآه عزت كعهده به : في رشاقة الراقص ، ونظافة العريس ، وسذاجة الطفل ، واحتضنه الأستاذ بكير بشوق شديد ، وقبله في خديه ، ولما أفلته من بين ذراعيه عاد يصافحه ، وهو منحن يحملق بعينيه المنتوفتين ، ووجهه محتقن ، ولعابه متجمع عند زاويتي فمه ، ويصيح بأعلى صوته :

ــ أهلا عزت بك ... حمدا الله على السلامة يا افندم ... ما هذه الغيبة الطويلة ؟ ! .

ومن الغريب أن عزت ارتبك فلم يجد ما يفعل ، فعندما يرحب بك الضيف في منزلك ، فما تستطيع أن تفعل من أجله ؟ ! ، وكل ما عمله عزت أن جعل الابتسامة لا تفارق وجهه ، ولما شكره على حسن اهتمامه بما فعل إزاء اللص انفتح باب الحديث ، فأخذ الأستاذ بكير يقول :

ــ لا . لا . لا . لا شكر على واجب ، على أنه واجب عام وخاص يا عزت بك ، وإذا كنا ندفع الأذى عن الطريق العام فما بالنا بالجار الملاصق .

وضحك طويلا في سذاجة ، ثم رجع للموضوع :

رجع يصف كيف أنه كان يصعد السلم ببطء شديد ، لأنه كان شبه نائم ، وعن الطريقة التي أمسك بها اللص حتى لا يباغته بسلاح .

واستطرد يحكي ذكريات عن أيام تلمذته ، يوم استعمل حيل المصارعة

اليابانية فى جندلة أضخم طالب فى المدرسة على أرض الحوش المرشوش ، فتلطخ بالطين ، وضحك منه التلاميذ .

وانسجم الأستاذ بكير مع الذكرى فانخرط فى الضحك ، ثم سأل عزت :

ــ هل تعرف شيئا من أصول المصارعة اليابانية ؟ !

ــ لا .

ــ لا ضرر .

ثم سكت قليلا ، وسأل :

ــ وكرة القدم ؟

فابتسم رب الأسرة :

ــ لا .

ــ ولا كرة السلة ، ولا الجولف ، ولا السباحة ، ولا ركوب الخيل ؟ !

ــ لا .

فرد الأستاذ بكير ، وكأنه وضع يده على باب المشكلة :

ــ ليس ذلك عيبا ... فأنت رجل تميل إلى التفكير .

وشرد ، ثم نظر فى الساعة وقال :

ــ هل وراءك ميعاد ؟ ، أخشى أن أكون شغلتك .

وابتسم .

ــ ولا أنسى أن أقول : إن (سوزان) آتية لتسلم عليكم ... سوزان زوجتى ..

ــ أهلا وسهلا ..

فسارع يقول كأنما قبل أن ينسى :

ـــ قل لى يا عزت بك . ما رأيك فى الزواج على حب ؟

فاستعان رب البيت بالله ، وقال للضيف باسما :

ـــ أنا الذى أستفيد منك ، فأنت فى سن الشباب ، ومن المتأكد أن تجاربك أكثر من تجاربى . أما أنا فقد جاوزت الخمسين بكثير ، وأصبحت أملك من التجارب أنواعا لا تناسب العصر .

وسر الأستاذ بكير من الإطراء فضحك ، وهو منحن فى خشوع ويفرك كفيه فى سرور ، وأجاب فى اعتزاز :

ـــ العفو يا فندم . أنا فقط كنت أريد أن أعرف رأيك ، لأننى تزوجت على حب ، وهذا هو السبب فى زواجى المبكر . عندما أخذتنى الدوامة يا بيه فلم أستطع إلا أن أتزوج ، وفى الحقيقة إن حملة شبان اليوم على الزواج كانت ترعبنى من الزواج ... لكننى بفضل الله وفقت ... وفقت .

وأخذ يقلب كفه ظهرا لبطن ، وهو يقبلها ناظرا إلى السماء . يشكر الله الذى وهبه هذه المنحة ، ثم استطرد :

ـــ وزوجتى موظفة فى شركة (......) ومما يخجل أن مرتبها أكثر من مرتبى فى الحكومة (ها . ها . ها) .

ـــ الحمد الله على كل حال .

ـــ آه ... وكيف حال الآنسة سوسن ، لعلها غير متضايقة من رسوبها ... طول الأجل يبلغ الأمل ، وعلى كل حال أنا أنصحها بألا تيأس ، لا بد لها أن تنال شهادة فلم يعد الجمال ولا كرم الأصل كافيا فى هذه الأيام لإسعاد الفتاه ...

فرد رب البيت بملل :

ـــ صحيح .. صحيح .. صحيح .

واستطرد الضيف بتدفق :

ـــ زمن معقد . تصور يا سعادة البك مثلا أن زوجتي لا وظيفة لها ، فماذا كنت أعمل ؟ !

وصفق بكفيه فى ذعر وهو يردد : « ماذا كنت أفعل ... ماذا كنت أعمل ؟ » ثم نظر إلى عزت يحملق فيه بعينيه المنتوفتين وخفت صوته كأنه يذيع سرا للمرة الأولى ، وقال :

ـــ والله العظيم ثلاثة يا عزت بك أن مرتبى يضيع فى أجرة المسكن والخادمة والنور وحساب الصيدلية من أجل طفلنا الصغير .

ثم ضحك ورفع عقيرته يسأل فى حماسة :

ـــ قل لى إذن وأنت رجل مجرب عاقل كيف إذن نعيش ؟ .. يا ساتر ؟ ... أهلا وسهلا . أهلا وسهلا .

وفطن عزت إلى كلمة الترحيب فترقب أن يدخل أحد أبنائه ، لكنه رأى امرأة فى حدود الثامنة والعشرين من العمر كانت هى السيدة (سوزان) نفسها تحيى وتدخل ، فتسلم على رب البيت بطريقة تدل على أنها خالطت وسطا أرقى ، كما تدل حياتها على أن زوجها لا يزيد عليها بأكثر من ثلاث سنوات فقط .

وكانت فى ثوب مسائى يكشف عن صدرها وظهرها ، وعن أصل كتفيها المستديرتين فى طراوة ، وقوامها أشبه بقوام الغلام لكنه مثير ، وساعد على إظهار ذلك شعرها المقصوص ، وكان قصيرا جدا ، ولو أنه ناعم فبدت قناة عنقها من الخلف وعليها خضرة الحلاقة ، تميل إلى النحافة وتلبس حذاء عالى الكعب جعلها تتأود بطريقة السكارى .

وتأملها رب البيت على قرب فى النور الساطع فى حجرة الاستقبال ، فألقى البساطة والاندفاع من أبرز خصالها ، ووجهها المستطيل تبدو عليه النضارة ، وفى انكسار عينيها ونظرتها الجانبية دربة من غازلت وأغوت ،

تفوح منها رائحة عطر أعلى من مستواها وتتكلم بنبرة عالية فيها إمارة ، يشتهيها الرجال صامتة أكثر مما يشتهونها إذا سمعوا صوتها ، لكن الذى لا شك فيه أنها من نوع تجيد ... اللعب !

وفى خطرة سريعة عرف عزت كيف تزوج الأستاذ بكير على حب ، وكيف أن بيتهم خال من الأثاث كما ذكرت الخادمة أمينة .

وسألت الضيفة عن الآنسة سوسن فنادى الأب يطلبها ، وسأل الضيف عن الأستاذ شكرى فنادى الأب يطلبه ، وتجمع الخمسة فى المكان .

وبعد مرور دقائق كانت السيدة (سوزان) سيدة الموقف كله ، لأن كل واحد من الجالسين رأى لاعتبار مناسب أن يتركها تتفوق ، فرب البيت جعل يوافق على كل ما تقول ، لأنه مضيف . وسوسن ... أحست إزاءها بإغضاء العذراء أمام المرأة المجربة فضلا على فرق السن . وشكرى ... كانت الشهوة تنبثق من عينيه وراء النظارة يطرى بعض ما تقول فى تملق ، والأستاذ بكير مائل بعنقه نحوها فى ابتسام دائم يتفرسها بإعجاب ، وكأنه رآها لأول مرة ، أو كأنه يباهى بثروته فى المجتمع .

كانت نبراتها لا تخلو من التكلف ، وضحكاتها مليئة بالإغراء . وقد فتحت ـــ عفوا ـــ حقيبة يدها بأصابع رشيقة وأخرجت مرآتها وراجعت زينتها . وأحس عزت بالفرق الشاسع بين شخصيتها وشخصية زوجها ، ثم شرد يتصور ما يجرى بينهما فى الخلوات ، فخيل إليه أنها تأمره فى الليل بأن يخلع لها جوربها ، ثم يقبل أطراف أصابعها ! وأن الأستاذ بكير يفعل ذلك عن طيب خاطر ، فترحم على امرأة ماتت كان اسمها زينب ، وأخذت السيدة سوزان تتكلم عن متاعب الأعمال ، وعن غباء كثير من

الموظفين ، وكيف أن « ذكاء المرء محسوب عليه » فصلتها القوية بمدير الشركة ، وحسن تدبيرها للعمل جعلها شبه مديرة لمكتبه ، كما جعلها تعود فى أكثر الأيام بعد الظهر .

وأخذت تتكلم وتتكلم ...

فعلم رب البيت أنها تعرف الطريقة التى ماتت بها زوجته ، وتعرف العلوم التى رسبت فيها ابنته ، والدرجة التى تنجح بها ابنه . فأخذه انقباض من كل ما سمع ، وتأكد أن مثل هذا دائما يكون عن طريق الخدم .

ولم يكن هناك مجال للسهر ، لأن الفرصة كانت للتعارف فقط كما قال الضيوف ، فاستأذنوا وانصرفوا ، وكان الوقت لا يزال مبكرا فلبس عزت وخرج إلى النادى .

وخرج شكرى يجوب الشوارع والطرقات حائرا ، كأنه يبحث عن شىء لا يعرفه .

ولم تلبث فرحته بعودته إلى العاصمة أن انقلبت إلى حسرة ، وتذكر (كامل) ولياليه كل هذا وهو يجوب الطرقات على غير هدى ، ثم بدا له أن يقف على إحدى محطات الترام المزحومة بالناس ، ينظر من خلف نظارته إلى أشياء يشتهيها ، وفجأة وقع بصره على امرأة يعرفها ... إنها هى ... إنها (نرجس) تلك التى سهرت معه هو وكامل فى ليلة الوداع . وكانت فى انتظار الترام الذاهب إلى القلعة ، ولم يكن يبدو عليها أنها فى (العمل) لأنها كانت متأبطة ذراع امرأة ربعة كفيفة تلبس معطفا خفيفا من الحرير الأسود ، عليه بقع فى عدة جهات . وأخذ شكرى يخمن من عسى أن تكون ؟ إنه افتراض واحد غير قابل للازدواج فلا بد أن تكون أمها ، وأخذ شكرى يتزحزح شيئا فشيئا كلما سنحت فرصة حتى إذا ما لاصقها تماما نظرت إليه فعرفته وربما أخذه شىء من العجب حينما رآها تبسم له ،

ثم تحدثه وتحييه وتقول : « هذه ماما » ، ثم همس فى أذنها عندما علا أزيز ترام قادم أن يلتقيا غدا في مثل هذا الوقت على نفس هذه المحطة .

أما سوسن فقد كانت كأنها تستقبل الحياة لأول ليلة ... لم يكن معها في الحجرة أحد ، ولا حتى فى المسكن ، إلا أمينة التى لاذت بالمطبخ مشغولة بعمل ، فجلست سوسن إلى مكتبها كأنها تريد عمل شيء لم تتضح معالمه ، ومن الشرفة المفتوحة كان هواء سبتمبر يعبر إليها مع حفيف الشجر وصرير مضغوط من ترام الجيزة الداخل إلى المخزن .

وأحست بشوق غامض من ذلك النوع الذى يبكى ، وتذكرت أمسيات بطلات الروايات اللاتى قرأت عنهن ، وشعرت أنها تحس حقيقة بوطأة الليل .

وتمنت في قرارة نفسها أن تنجو من هذا الوجد ... أن تحوله إلى كلام ... أو إلى اعتراف ... أو إلى دموع ، أو تنسجه (صداريا) من الصوف أو أن ترسمه شيئا على الورق ! وعز على نفسها أن تتجه هذه المشاعر كلها نحو (وحيد) لأنها خافت أن تكون مخدوعة فيه .

وأخرجت كراسة من درج مكتبها ، وأمسكت بالقلم تريد أن تكتب أى كلام .

وكان أزيز الترام عند المخزن متواصلا كأنه أنين ، وأصيب النسيم برعونة لا تناسب الفصل ، فتدفق كثيرا من الشرفة حتى خشخشت به أوراق الشجر وأوراق الكراسة .

وكتبت سوسن أول كلمة فى قصة حبها ...

ولم تكن فى واقع الأمر حروفا ، بل كانت رسوما ، فبيدها التى تعرف الرسم رسمت لهب شمعة ، فى الناحية اليمنى من الصفحة من جزئها العلوى ، وعلى الناحية المقابلة تماما رسمت قلبا ، ومن الغريب أن اللهب

على هيئة قلب قاعدته إلى أسفل ، والقلب فى الجزء المقابل من الصفحة كان على هيئة لهب قاعدته إلى أعلى فكأن هناك قلبين ... وتحت هذين رسمت عقدا ، وبعد العقد رسمت حبة من اللؤلؤ منفردة ضالة .. كأنها مفقودة .

وتمنت أن تكتب شيئا ، أن تقول : يا أبى إننى أحببته ، لكنها لم تكن واثقة من الموقف .. لا من حبها ولا من حبه ، فقبل ذلك ناوشتها مشاعر ثم غابت ، ألوان تظهر بالليل لا تلبث شمس النهار أن تمحوها ، فمن المحتمل أن يكون موقفها من وحيد من هذا النوع أيضا .

على أن الصباح ما لبث أن جاء بالنسبة للثلاثة ، فخرج شكرى ذاهبا إلى إحدى المكتبات ، وبقيت سوسن فى البيت ، وذهب عزت إلى ديوانه .

* * *

وكان دخوله إدارة المساعدات فى هذا اليوم شيئا حبيبا إلى نفسه ، ومال (نوفل) يقبل كفه ، أما (عثمان) فقد انحنى بخضوع . وقضى يومه فى تصريف أعماله ، ثم استمع إلى الشكايات الخاصة ، وبكى نوفل فلم تكن الدموع مناسبة لمشيبه وهو يقص على الوكيل أحد (المقالب) التى عملت فيه ، والتى تشبه أعمال صبيان المدارس . فقد سرقوا حذاءه وهو ذاهب يتوضأ آخر اليوم العملى ، فلما جف ريقه فى البحث عنه جعل يفتح أدراج مكتبه ويغلقها بطريقة لا شعورية ، فإذا به يجده ملفوفا فى جريدة موضوعا فى أحد الأدراج .

أما عثمان أفندى فقد كان متحذلقا يقول أشياء ربما كان الوكيل غير فاهم منها شيئا ، فقد كان مشغولا بنبرات صوته أكثر من شغله بمعانيها ، كل حرف كأنه خارج من مصنع سباكة يخرج الحروف من مخارجها ،

بطريقة تحبب الضد إلى الأسماع .

وتذكر عزت في هذه الحالة قصة خاله ...

فقد كان له خال فحل عنيد ، يمثل جيلا من الرجال والتقاليد مضى وانقضى ، وكان زوجا لامرأتين لكل منهما معنى يحببه فيها ، وكانتا كثيرتي الشجار شأن الضرائر خصوصا في الريف .

فإذا ما عاد من الحقل بدأ في استعراض الشكاوى ، وتختلى به كل واحدة ، فيجد الحق في صفها ، فإذا ما جمعهما الاثنتين ضاع الحق بينهما ، وانطمست معالمه ، وأخيرا قال لإحداهما ذات ليلة أمام ضرتها « أنت صاحبة الحق » فصرخت الأخرى وضربت صدرها ؛ فقال لها : « لا تغضبي فأنت صاحبة الحق أيضا » فنظرت كل منهما إلى الأخرى ، ثم نظرتا إليه فقال لهما : سأضربكما معا ، وأهجركما معا إذا شكت إحداكما من الأخرى . لأنني بذلك أكون قد نصرت الحق فهو ضائع بينكما ، أما إذا نصرت إحداكما فربما أظلم الأخرى .

ومنذ ذلك المساء ظلت نارهما تأكل بعضها حتى انطفأته .

وهز (عزت) رأسه ، وقال لعثمان أفندى : سأصدر أمرا بنقلكما معا إذا ما شكا أحدكما من الآخر ، وراقب كفه وهي تضطرب على زجاج المكتب ولم يسمع إلى لجلجته .

وفي آخر النهار وهو خارج خيل إليه أنه يحس بوقع خطوات فاطمة وهدان عند الباب ... تذكرها ؟ فقال في نفسه : ترى كيف حالها الآن ؟ !

وسار يفكر : إنه لم يزر قبر زوجته ، ولعل أصيص الصبار قد جفت ، وهز رأسه وهو يقول في ضميره : كل شيء يجف ! الأزهار والصبار ... والحي والميت ... وسمع ضجيج السيارات من كل جانب ، حين بدا له

أن يقف أمام واجهة أحد المحال ، ليتأمل رسم وجه على لوحة زيتية ، كانت تعابير الطيبة بادية عليه فخيل إليه أنه وجه فاطمة وهدان ... وتأفف وسأل نفسه : ما كل هذا ؟ !

وكانت رائحة الجوافة تصل إلى أنفه من فاكهانى مجاور ، فعادت إليه ذكريات الشباب أيام كانت رائحة الجوافة والفتيات الريفيات مقرونتين بعضهما ببعض ، وشفتاه على الخدود ذات الزغب ، وعاد عزت يتنهد ، وكانت يداه معقودتين على صدره . وثناياه تعض شفته السفلى ، والوجه فى اللوحة أمامه فيه طيبة ونداء . نعم ... ثم أخذت الأصوات تختلط ، وبدأت فى الهدوء حتى وصل إلى أذنه الصوت الواهن المتمارض المألوف :

ـــ عزت بيه ... عزت بيه ؟

كانت تنادى وتستفهم كأنها لم تكن واثقة من وجوده . ولما استدار إليها ألفى قلبه يدق ... يدق ... دقة أيام الشباب الباكر ... أيام لم يكن عالم المرأة فى خياله أوضح معالم من قاع المحيطات ، لكنه كان واثقا أن فيه لؤلؤا كما أن فيه أحياء مهلكة ، فنصب قامته وهو يقول لها :

ـــ هل جئت ؟ !

وسارا جنبا إلى جنب ، وكان كلا منهما لا يريد أن يراه الناس ، ومضت فترة بلا كلام كان كل منهما ـــ فى الحقيقة ـــ متشبثا بزمام نفسه ، ثم رفع إليها عينيه فرأى لون ثوبها ووجهها وحالتها الصحية : وتفرس خديها العاليين اللذين تقف عند نهايتهما أمارات ماض ذليل ، وزاويتى فمها وشفتيها المتساويتين ، ثم .. عودها الرطب الذى يبدو له أكثر نعيما كأنه زرع روى حديثا فطرى وتأود .

وخيل إليه أن الدنيا تغيرت .. حولها على الأقل ، وأحس ـــ بما يشبه

الأحلام ـــ كأنها راحلة أو مسافرة إلى مدة طويلة ، أو على وشك أن تموت فتأججت في قلبه ذى الحس المرهف نار يعرف من أى نوع هى !

ونظر إليها بجد ، وهم أن يقول لها : ارجعى .. وحاولى ألا تظهرى أمامى ، لكنه عاد فأيقن أنه هزيمة مرة في صورة احتياط ، وأن فاطمة وهدان ستدخل عليه ظلام الغرفة كل ليلة فى الحلم أو اليقظة ، وإلى هذه اللحظة لم تكن هى قد قالت شيئا ، ثم نطقت :

ـــ أنت فى أحسن صحة .. أنا سعيدة ، لأنى رأيتك هكذا .. سألت عنك بالتليفون ، ولم أترك اسمى .. انتظرت عودتك بعد أن عرفت ميعادها .. أنا .. فى هذه المرة غير محتاجة إلى معونة .. ! ..

فأخذته نخوة المطمئن ، وقال بحماسة :

ـــ على كل حال أنا لا أزال مستعدا لخدمتك .

وكان كاذبا فيما قال ، لأنه قرر بينه وبين نفسه ألا يعطيها شيئا من مال الدولة ، وخيل إليه أنه نهاب ، ولو أن ما يحسه اليوم نحوها من شعور إنما ولد عقب أخذها المنحة الأولى ، لكنه ما لبث أن تذكر أن هناك ما يجب أن يسألها عنه :

ـــ وإلى أى شيء أنت محتاجة إذن ؟ !

ـــ إليك ، إلى رأيك . أنا .. ليس لى أحد أعتقد أنه يخاف على حياتى ، ولو كان من أهلى .. وأنت أقرب لى منهم ، أنا لا أريد إلا رأيك .

فهزه الفضول :

ـــ خير أن شاء الله .

ـــ أنها مسألة تتعلق بمستقبلى ، وكنت أريد أن أتحدث إليك فيها إذا كان ذلك لا يضايقك .

وأخذت تتلفت كأنها تستنكر أن يقال هذا فى الخلاء ، وكأنما تفتش بعينيها الناديتين ذواتى الأهداب المهوشة والمقلة السوداء عن مكان يجلسان فيه .

وكانا قد وصلا إلى النقطة التى يفترقان عندها عادة من الميدان الكبير ، وكان الترام الذاهب إلى الجيزة يمر واحدا بعد الآخر ، وعزت لا يركب كأنه يفكر فى مغزى القرار الذى سيصدره ، أما هى فقد كانت الدموع متأهبة فى عينيها ... متأهبة لأن تتساقط بمجرد أن تلفظ شفتاه كلمة تعتبرها جارحة لإحساسها .

ونظر فى الساعة بعد أن قرر شيئا ، قال لها :

ــ تريدين إذن أن نجلس فى مكان لنتكلم ؟

ــ إذا وافقت أنت .

وصمت قليلا ثم قال :

ــ وهل عندك فكرة عن مكان معين ؟

فهزت رأسها نفيا وهى تزم شفتيها ، وبدت الدموع أكثر تأهبا من قبل حتى همت يده أن تمتد فتمنعها من السقوط ، أما وجهها فقد كانت تعابير الثقة والحب بادية عليه .

وعندئذ مد إليها يده مودعا ، وقد رأى الترام مقبلا وقال لها :

ــ حدثينى غدا فى التليفون فربما وجد أحدنا حلا .

ـــ ١٨ ـــ

وفى ظلام الحجرة فى هذه الليلة كان هناك اثنان يتنهدان .. سوسن ، تفكر فيما عسى أن تسير نحوه مشاعرها الجديدة نحو (وحيد) ، إنها فى بعض الأحيان تكاد تشم رائحة عابرة على مقربة منها . فاحت ذات يوم وهو واقف يودعها على المحطة عندما اشتد الحر ، وكانت ممزوجة بنغم ساذج من فرقة تعبث بالدفوف قبل قدوم القطار : « أحبه حتى في المنام ، وأحبه حتى فى المنام » .. « أحبو حاتا ! .. فى المنا ا م .. وأحبو و حاتا .. فى المنام » وكانت تود ـــ على لذة الإحساس ـــ أن تنساه ، وتنتظر فعل الزمن الذى يأسو كل جرح .

أما الأب فقد كان راقدا يتنهد ، متقلبا من جنب إلى جنب فسألته الفتاة :

ـــ ماذا بك يا بابا ... هل تحس ألما ؟ .

وكان عزت يؤمن بأن المشاعر كائنات لا أجنحة لها ... لا يمكن أن تنتقل من نفس إلى نفس ... ولا يمكن أن يكون لها أجنحة ، ما لم تكن صادقة ، لذلك فإنه تنحنح وقال محاولا أن يكون صادقا :

ـــ نعم يا سوسن . أنا لست على ما يرام فى هذه الأيام .

فسألت بحنان :

ـــ ليتنى أستطيع أن أحمل عنك همومك !

فقهقه فى تدفق عذب ، كأنما يستكثر عليها الحمل ، وقال :

ـــ ليس كل ما يعانيه الآباء يقدر على حمله الأبناء يا سوسن .

فأرادت أن تسرى عنه حين سألت فى غموض :

ـــ ماذا يا بابا ؟ ! قل لى هل بدأت تحس بالوحشة ؟ ...

وضحكت فى لطف ، واستطردت :

ـــ إذا كان هناك شيء فأنا مستعدة أن أعاونك فيه .

ثم ضحكت لكن باب الدعابة انفتح على مصراعيه فى هذه اللحظة ، ووجدها الأب فرصة فقال :

ـــ حسن ... إذن ماذا تعملين يا سوسن إذا دخلت عليك ذات مساء واستدعيتك وأجلستك إلى جوارى ، ثم وضعت كفى على كتفك فى حب وحكمة وقلت لك : تشجعى يا بنيتى .. فإننى أحببت وسأتزوج من أحببتها ؟ ! ماذا تعملين ؟ !

فأجابت بنبرات مبتورة ، ونفس متقطع :

ـــ إن الذى يحب إنسانا يعمل من أجله كل شيء !

ثم ساد الصمت ! صمت لم يكن يسمع فيه إلا عزف منفرد على عود حزين يتناهى إليها ونشيش السيارات الرعناء فى الشارع الرئيسى ، وأزيز الترام فى الطريق إلى المخزن .. واستعادت سوسن هذا الاعتراف ، وتلذذت به كأنها تمضغه على مهل ، وكأنها وجهته إلى (وحيد) . أما هو فقد كشف جزءا آخر من نفسها ، وميولها إزاء أى شاب تثق فيه ... فدق قلبه ونسى ما كان فيه ، وخاف أن تكون حادثة العقد فى عزبة محسن بك نهاية لموقف كان عنيفا .

وفى لحظات تمر مر البروق ، جعل يزن الموقف ويقيس بين الزلات ، وتذكر أن أنفاس بنته معلقة وأنها بانتظار جوابه ، فقال :

ـــ آه ... نعم . نعم . يعمل من أجله كل شيء ! ... لكن يا بنيتى ليس على هذا الإطلاق ، فلا بد أن نختار نوع الخزائن التى نودع فيها جواهرنا .

ثم فطن إلى أنه يجب أن يعود للحديث عن نفسه فقال باسما متكلفا الدعابة :

ــ لكن ... هل أنت مستعدة حقيقة ، لأن تستقبلى فى هذا البيت المرأة التى يحبها أبوك على صورة زوجة له ؟ !

فأجابت بحماسة أقل :

ــ نعم والله يا بابا .

فاستطرد يذكرها بأشياء عزيزة :

ــ ولا تذكرين عند ذلك حقيبة الملابس التى احتفظت بها من آثار أملك ... إننى أشم رائحتها فيها .

فعاد إلى ذهنها كيف أن الناس يستطيعون أن يتنسموا رائحة من يحبون على القرب والبعد ، بدليل أنها تشم رائحة وحيد ...

ــ وقد زرت اليوم مقبرتها فى الصباح ، وسقيت الصبار ، ورأيت مشرق الشمس على المكان الذى ...

فقاطعته :

ــ لا تقل هذا يا بابا فإننى أحبك .

فعاد يداعبها :

ــ سوسن ... هل تحبيننى حقا ؟ إذن فاغفرى لى أن أقول لك إن الحب بدأ يناوش قلبى .. وبهذه المناسبة يجب أن أحدثك عن مناوشاته . أوله قلق وكأسه دموع ... والرابح فيه هو من يستطيع أن يحتفظ بشىء أخير ، يقدمه لصاحبه فى الوقت الذى يظن صاحبه فيه أنه لم يبق شىء يمكن أن يكون مدخرا ... هل تفهمين يا سوسن . آه ... إن الساعة تدق الثانية عشرة ، وشكرى لم يعد حتى الآن !

وتأوه مرة أخرى ، فردت عليه سوسن فى هدوء وشرود :

ــ سيعود حالا يا أبي .

ــ إذن ... طابت أحلامك يا حبيبتي .

* * *

وكانت هذه أيضا هي الليلة التي التقى فيها شكري مع نرجس ، على محطة الترام كما تواعدا . ولم يكن لقيها منذ وداع (كامل) ، وعندما عثرت به سخرت من رجولته المتمثلة في شاربه الجديد ، وسألته عن صديقه وكأنما أثر في نفس هذه المرأة أن ترى (كامل) واقعا في هذه الأزمات ، ولم يكن في ذهن شكري مكان معين يلجآن إليه ، لذلك كانا يجوبان الشوارع ليبحث عن بيت صديق ، وكانت تقول وهي تسير متأبطة ذراعه ، وخصرها يكاد ينخلع من التثني لنحافة عودها وارتفاع كعب حذائها :

ــ كان شابا طيبا ... (كامل) هذا .

ــ هل تحبينه أكثر مني ؟ !

فنظرت إليه بجانب عينيها ، وقالت بلا مبالاة :

ــ طبعا .

ــ لأنه أكثر مالا ؟ .

فمصمصت بشفتيها استهزاء ، وكأنها تنفي فكرته ، فلما عاد يسألها بالحاح كأنه يقرر أمر رجولته أجابت قائلة :.

ــ لأنه إنسان طيب .

ــ وأنا ؟

ــ حيوان ردىء .

فقهقه إذ أعجبه جزء من هذاالقرار ، ثم فطن إلى الجزء الناقص منه فسألها :



فعاد يداعبها : سوسن ... هل تحبيننى حقا ؟

ــ حيوان فقط ؟

فردت وقد خفضت صوتها :

ــ لقد عرفت كثيرا من الرجال ، ولكن هناك ناسا لا أنساهم ، لكل واحد منهم علامة أذكره بها ، كما تعرف الطويل وسط المظاهرة أو الأعرج فى زحام السوق ، فأنت مثلا ... أعرفك بأنك حيوان تصلح أن تكون عشيقا لأميرة عجوز لا تزال تستعمل نفس العطر الذى كانت تتعطر به قبل لقاء عشاقها أيام شبابها ، ثم ... ذهب عمرها فلم يبق منه إلا التصابى ، والبحث عن إنسان يحقق لها الرغبة ...

وضحكت :

ــ وإذا لقيتنى هذه الأميرة فإنى سأعطيها عنوانك .

فبدا الغضب على وجهه ، لكنه لم يجد فرصة للرد ، لأنه كان على مقربة من بيت أحد الأصدقاء الذين عودهم أن يزورهم ، ومعه (هدايا) . لكنه بعد أن صعد سبعين درجة من سلم ضيق ، كأنه فى جوف مئذنة هبط ساخطا يلهث وسحبها من قبوة السلم .

واستأنفا السير وكان التذمر باديا عليهما معا ، فهو لا يزال متألما مما وصفته به وهى متألمة من أن ليلتها على وشك الضياع ..

وكانت أوراق أشجار الشارع تخشخش بالنسيم ، وفى السماء نتف من السحاب فى صفاء الشبة ، أما الجزء المجلو منها فقد كانت تلمع فيه النجوم ، ونظرت (نرجس) إلى أعلى وتنفست بعمق ثم قالت له :

ــ عندى فكرة .

فنظر إليها متلطفا ، فاستطردت :

ــ ولو أننى لا أحب أن أذهب بأى شخص إلى بيتى لكننى مضطرة فى هذه الليلة أن أفعل ذلك .

فسأل :

ـــ إذن فأنت تحبيننى ؟ !

فردت لتنهى الموقف :

ـــ نعم .

لكنها كانت محتاجة إلى نقود .

وبعد أن نزلا من الترام أفضى بهما السير إلى حارة يؤمن فيها المشى ، شديدة الظلام كثيرة التعاريج ، وحتى النوافذ المضيئة المفتوحة فى الطوابق العليا ... لفها الصمت . وفتحت باب سلاملك بمفتاح معها وأجلسته فى الصالة محذرة أن يصدر صوتا ، ثم ناغت أمها التى جاءها نداؤها الحنون سائلا : « هل عدت يا عواطف ؟ » . فشهق قائلا : عواطف ؟ أم نرجس ؟ ! وكانت أمها فى حجرة فى الطرف النائى من الشقة فاستمهلتها قائلة : إنها ستأتى حالا . فى الوقت الذى فتحت له حجرة قريبة من الباب ، وأدخلته بعد أن أشعلت نورا ، وتركته وانصرفت بعد أن أغلقت عليه الباب .

وجلس شكرى يتأمل كل شىء حوله . كان البلاط عاريا والسرير منخفضا ، والأثاث يدل على الرخص والنظافة . ومال إلى الجدار المقابل فرأى عليه صورا معلقة . استرعى انتباهه منها صورة المرأة التى لقيها معها على محطة الترام فى الليلة البارحة ... فى مسوح سوداء وعلى عينيها المكفوفتين نظارة فى سواد المسوح ، ووجهها فى استدارة رغيف العجين وفى لونه أيضا ، وشفتاها مزمومتان فى ضيق .

وعلى ناحية أخرى من الجدار صور لطفلة فى أدوار مختلفة من العمر أكبرها عشر سنوات ، ووجهها قريب من وجه أمها ، خصوصا فى النظرة والأنف ، وصورة ثالثة لرجل فى ملابس بلدية عريض الصدر ، مفتول

الشاربين على رأسه طربوش يغطى نصف حاجبه الأيمن ، وصورة هى آية قرآنية مكتوبة بخط جميل و ...

وكان صوت نرجس يقترب ويبتعد ، وهى تروح وتجىء ، وتتكلم بلغة مليئة بالليونة غير التى عهدها منها فهناك كلمات « حاضر يا حبيبتى » . وكلمة « طيب يا روحى » وكلمة « من عينى » ، كانت كلها تتناهى إلى سمعه ، وهو جالس على كرسى منجد بالقطيفة الحمراء قد نصل لونه ، فخيل إليه أنه فى حجرة ضيوف فى أشرف بيت !

ولما نظر فى الساعة ألفاها قد قاربت الواحدة صباحا ، ثم أخذ الصمت يخيم على الشقة ، حتى خيل إليه أن نرجس قد نامت فى حضن أمها ونسيته ، وأخذته المخاوف بقدر غلب على كل شىء ، فسولت له نفسه أن يخطو بحذر نحو الباب ويفتحه ويتسرب فى ظلام الحوش ثم الحارة ، لكنه خشى الطوارىء التى لا تدخل فى الحساب ، فسلم أمره إلى الله ونظر إلى الحائط يقرأ الجزء المعلق من (آية الكرسى) ...

ومن روح هذا الصمت ، ونظره معلق بالآية أخذه خجل أن يطلب النجدة من لا يؤمن بوجودها ، فكف عن التفكير متسمعا لوقع الخطوات المقبلة .

وانفتح الباب ودخلت « عواطف » لا « نرجس » فى ثوب ليلى أبيض واسع طويل ، هو صورة طبق الأصل من ثياب الرجال . وعلى رأسها منديل من الشاش متزحلق إلى الوراء ، ولما أقفلت الباب قال لها شكرى مؤنبا :

ـــ لقد جفت كل قطرة فى دمى .

فضحكت وهى تهمس وتميل عليه :

ـــ لماذا يا شجاع ؟ ! ... كان من الواجب أن أنيم البنية ، ثم أطمئن إلى أن أمى لن تنادينى .

ثم غمغمت بالضحك وبحثت بأسنانها عن صدغه ، لكن شكرى كان يتأملها فى صمت ، لقد رآها امرأة غير التى عرفها من قبل ، كانت صورة أم فى فراش ... لكن كلمة (صدق) واحدة كانت تنقض موقفهما ، ولما أخذ يبثها ألمه فى فترة غيابها وتركه فى الحجرة قالت له بلهجة اختلط فيها الجد بالعبث :

ــ وهل هذا أشد مرارة من خداعى للعمياء ! إن أمى هذه التى حفظت القرآن ، ولا تنام إلا متوضئة تتغافل عما أعمله فى الخارج ... لكن لست أدرى ماذا يجرى لو أحست أن رجلا معى فى البيت ؟ !

وسكتت قليلا ، ثم غمغمت بالضحك من حرج الموقف قائلة فى همس :

ــ تصور ! نوع همسات أمى فى الحجرة الغربية ، ونوع همساتى فى الحجرة الشرقية ... تصور !

ــ يخرب بيتك !

فعادت تغمغم بالضحك ، كأنها تسخر من حرج موقفه قائلة له :

ــ لماذا لا تزوجنى (كامل) صديقك هذا ؟ أنا مستعدة أن أكفر عن أخطائى عند قدميه بإشعال النار فى ملابسى .

فقال بضجر :

ــ ما لنا الآن وما له ؟ أريد أن أخرج ...

ــ لا ترفع صوتك هكذا وإلا أصبيت أمى بالشلل ... لا تنس نفسك ... أين أنت ؟ !

* * *

وبعد فترة أخذ صرير خفيف ينبعث من باب شقتها خيل إلى شكرى وهو خارج أن الدنيا كلها تنتبه إليه . ولما لفه ظلام الحارة وقف ليأخذ نفسا

عميقا ، وأنبأته ساعته الفسفورية أنه في الثانية صباحا ، ولم يكن يدرى سببا لرغبته في المشي كأنما لذ له أن يشاهد القاهرة النائمة فى صورة أحد ميادينها الكبيرة .

وعند أول ميدان وقف يتأمل كل شيء ، وكانت شتائم (نرجس ـــ عواطف) وغمغمتها بالضحك في الموقف المحرج ، ومنظرها الذى لم يكن منظر مومس ، وصرير الباب ، ولذة الليلة ـــ كل هذه آخذة بلبه حتى نسى أن في الجيزة ناسا يقلقون عليه .

وكانت سوسن هناك قد استغرقت في النوم ، أما الأب فقد كان يقظا لم ينم بعد ، سمع المفتاح يدور فى الباب الخارجي برفق متلصص ، وصر الباب صريرا حاول شكرى أن يكتمه بعضّه لشفتيه ! ... وفضل الأب ألا يشعره بيقظته فتنهد واستعد للنوم وهو يقول في نفسه :

ـــ بعض الكائنات يحب فيرفرف بأجنحته فيرتفع ، وبعضها الآخر يهوى إلى التراب ليتمرغ فيه . لكن ...

لا زلنا بانتظار الغد ... إنه أمامنا !

ـــ ١٩ ـــ

ومر النهار وفاطمة وهدان لم تتصل به ، كما كان متوقعا فأحس بشيء من انقباض الصدر التمس له علة ، وهي أن تخلف ما كنا ننتظره ـــ حتى ولو كان تافها ـــ يسبب للنفس مثل هذا ، وأوشك أن يغادر المكتب فإذا بالتليفون يدق ونادته باسمة ، لكن الصوت كان غير صوتها .

كان الصوت غاية في الصغر والرقة وقصر النفس ، حتى لو كان شيئا مجسما لانقصف مثل الحلوى الهشة ، وضحكت على استخياء حين

سألها عن اسمها . فلما عرف أنها هى أخذ يستوعب صوتها ، وبين كل جملة وجملة كانت شهقة تند بلا تكلف ، فخيل إليه أنه يخاطب إحدى العذارى المسحورات اللاتى يتلهفن إلى الخلاص فى حكاية من حكايات ألف ليلة ... كانت تقول :

ــ ترددت طول النهار حتى هذه اللحظة ، وأنا خائفة أن أتصل بك . هل نسيت حديث البارحة ؟ !

فقال باختصار كمن يغالب ألما :

ــ لا .

فعاد الصوت الحنون يقول :

ــ مالك ؟؟ ... هل أنت ..

فقاطعها :

ــ لا ... مطلقا . بل أريد أن أقول إننى دبرت شيئا لم يخطر على بالك .

وانقطع الكلام فترة وجيزة طارت فيها مع الخيال ، ثم عادت إلى الأرض . فسألت خائفة فى شوق :

ــ أشياء لم تخطر على بالى ؟ !

ــ نعم . فإنه من باب العناية بك قد تحدثت مع السيدة (...) رئيسة الجمعية النسائية الحديثة لتدبر لك عملا ، وإذا كنت ترغبين فى الذهاب إليها فموعدنا غدا حيث تجدينني هناك .

فتمتمت بكلمات ضاع أغلبها قبل أن تقول بوضوح :

ــ حاضر ! ..

وكان صوتها خاضعا ناعسا ، وانصرف عزت فى حال لا يعرف سرها فهو لا يعلم حتى الآن من أمر نفسه إلا أنه يقدم معونة لامرأة لا معين لها

ولا يريد أن يعترف أنه يوليها من الاهتمام ما لم تنله أخرى من اللائى يلتقى بهن فى الحياة العامة .. من اللائى يوازنه فى التفكير أو الطبقة .

وانصرف عن فهم موقفه .

على أن روحها كانت من التىْ تترك أثرها فى نفس كل رجل .. مثل العوامل الطبيعية التى تلون أوراق الزهرة ، فإذا لمست روحا تركت فيه أثرا لا يمحى .

تبدو فى غلالة من الرقة تكاد تبلغ حد الضعف الذى يثير النوازع ، وكأن زوجها لا يشبع من ضعفها ! مثل حسناء فى دور النقاهة ؟ ! ربما كانت أشد قربا منها وهى فى أوج صحتها ، هكذا كانت فاطمة وهدان فى كل ملامحها جسما وروحا .

* * *

وفى مساء اليوم التالى ذهب عزت إلى دار الجمعية النسائية الجديدة فى إحدى الضواحى ، وكانت الروح المسيطرة عليه فى الطريق هى روح البارحة فهو يحاول أن يسأل نفسه ولا أن يجيب عن سؤال .

ووصل إلى هناك قبل الميعاد ، ورحب به الخادم الذى يعرفه ، ثم أخبره أن سيدة من طرفه تجلس بانتظار الرئيسة .

وكانت الحجرة فى آخر الطرقة تطل على الحديقة الخلفية ، وعلى مقربة منها حجرة مزدحمة بالدواليب والأدوات تخرج من بابها ضربات مجتهدة على الآلة الكاتبة لفتاة سمراء فى مقتبل العمر ، وكانت الضربات تصل إلى سمع فاطمة وهدان وهى فى مكانها فتحس فى كل لحظة أن الفتاة تسرع ، كأنما لتدرك طفلا يبكى ، أو حبيبا ينتظر ، ثم اختلطت ضربات الماكينة بوقع أقدام تسعى نحو الحجرة فنهضت واقفة فى خجل وانتصار وخوف حينما أبصرت عزت يخطو نحوها !

ونظر في ساعة معصمه ، وألقى نظرة على الحديقة والهدوء باد في عينيه ، وقال ليزيل عنها الوحشة المباغتة :

ــ إنها لن تغيب .. إنها سيدة كثيرة المشاغل ، وربما كان هناك طارىء أخرها .

ــ على مهلها !

وكانت هذه العبارة تمنيا قلبيا أكثر من أن تكون ردا على كلامه ،فإنه لم يكن يخطر على بالها أن تختلي به قط ، ونظرت إليه بعينيها الندیتين وأهدابها المهوشة ، وشفتاها المتساويتين مضمومتين ورجاء وأمل ــ وربما ملامح حب ــ جعلت بشرة وجهها في نضارة لا توصف ثم قالت له :

ــ سأقص عليك بسرعة كل ما أريد أن أستشيرك فيه قبل أن يضيع الوقت ، هلا تزال تذكر قصة تاجر الأقمشة صديق زوجي ؟ إنه في الأيام الأخيرة مد إلى معونة حقيقية .

وابتسمت وهي تلقى نظرة على نفسها ، كأنها تفتش عن آثارها عليها ثم استطردت تقول :

ــ وأظن أنه كان في بادىء الأمر غير قاصد ما يفعل ، لكنه عندما أحس أنه ليس هناك مفر من أن يكون شريفا .. عمل شريفا .

كنت مارة على باب دكانه ، فإذا بصوته يناديني ، فلما تجاهلته خرج يسعى ورائي ، وأخذ يسأل عن أحوالي ، ثم أعلن في رجولة أنه يقدم اقتراحا طيبا لمساعدتي ، وهو أن يمدني بأقمشة أستطيع أن أحولها ملابس للأطفال ، وبواسطة إحدى أخواتي ، وبمعونته أيضا نقوم بتوزيعها على العائلات أو المحلات ، وأكد لي أن هذا العمل سيدر علينا ربحا مضمونا ، وقبلت ، وبدأنا في التنفيذ ، ولم يطالبني بعد أن مول المشروع بمليم واحد ، ولم يحاول أن يكون إلا طيبا ..

وأطرقت نحو الأرض ، في الوقت الذى كانت فيه ضربات الآلة تصل إلى سمعها محمومة تتعجل النهاية ، كما كان عزت بينه وبين نفسه يتعجل نهاية الحديث ، ومن الغريب أنه لم يشعر بسعادة لما قالت ، كأنما راحة قلبه في أن تكون يده هي اليد الوحيدة التي تمتد إليها ، وفكر سريعا : « هل تريد أن تلعب بمشاعره بذكر رجل سبق أن سجلت عنه نقطة سوداء ؟! » ثم تنحنحت وعادت تقول :

ـــ وكان ديننا يتزايد يوما بعد يوم ، ومجهوداتنا تتزايد أيضا . لكننا استطعنا أن نعيش ، ولم يحدث في خلال هذه الشهور أن طالبني ببعض ما على ، بل على العكس يحاول أن يعطينا أكثر مما نريد ، وسألت نفسى ذات ليلة : على أى بر سيرسو المركب ؟؟ لا بد أن هذا الرجل يدبر لنا شيئا ..

وتوقفت ضربات الماكينة وقتا قصيرا سمعت خلالها خطوات الفراش البدين في طريقه إلى الحجرة حيث استأذن ، وأخبر الأستاذ عزت أن الست الرئيسة قالت في التليفون : إنها آتية وترجو ألا يقلق .

وانصرف الخادم ، وكانت بقية الحكاية لا تزال عالقة بفم فاطمة وهدان فاستأنفت تقول :

ـــ وتذكرت ماضيه حين لجأت إليه ، وما كان يريد منى فصممت على أن ألوذ بالصمت . وعلى أن أصبر حتى يكون هو البادىء بالكلام .

فحملق فيها عزت وهو يهز رأسه ، ويردد بلا شعور : « بديع .. بديع .. بديع .. » وما كان يقصد بهذه (البداعة) إلا أنه اكتشف عمقا أكثر من المتوقع في هذه الشخصية التي يدعو ضعفها أى رجل إلى أن يسارع لنجدتها ، ثم جاء صوتها يقول :

ـــ وأخيرا .. قالها .. !

فهتف تلقائيا يسأل :

ـــ قالها ؟! .. ماذا قال ؟ !

فردت بصوت المتمارض :

ـــ ماذا قال ؟ ! ليس لذلك إلا معنى واحد !

فقطب حاجبيه ، وامتلأت جبهته بالتجاعيد ، وسأل فى تحفظ :

ـــ هل هو ذلك الذى خطر على بالى ؟ !

فشهقت كأنها استيقظت من النوم ، أو أفاقت من غيبوبة فأخذت تتلفت لتتعرف على المكان والأشخاص ثم سألت فى ذل :

ـــ إلى أين ذهبت أفكارك يا عزت بك ؟ ! إن الفقر لا يستطيع أن يهزمنى خصوصا مع مثل هذا الرجل . إنه .. إنه .. يريد أن يتزوجنى .

وكان المساء قد هبط منذ قليل ، والنور فى الحجرة لم يشعل بعد فقام هو وأشعل المصباح ، ثم عاد إلى مكانه والعرق يتفصد من جبينه ، فأخذ يمسحه بمنديل ، وكان وجهها فى متناول عينيه ، وقد وقعت على كرسى خدها ظلال من شعرها ، وأيقظها صوته من غفوتها وهو يقول :

ـــ تريدين أن تأخذى رأيى فى مثل هذا الأمر ؟ .. لا تترددى وتزوجيه .

فنظرت إليه ، وعبرت على معالم وجهها معانى الندم .. وعادت دقات الماكينة تئز من جديد ، وكان وجه عزت فارغا من التعبير ، ثم عاد فاكتسى باهتمام حين رأى دمعة مسرعة تجرى نحو زاوية فمها ، وهب النسيم فجأة كأنما انفتح عنه صمام فتخبطت المصاريع الزجاجية على الحائط ، ودخلت من النافذة رائحة شجرة ياسمين كان جزء منها يبدو لعينى عزت على نهاية السور ، وأصيب الموقف بفوران كان يدفعه إلى أن يعتذر لها أو أن يقوم فيقبلها !

وزاد هذا الإحساس فى ندمه بعد أن تبينه فى نفسه ، فما كان هناك داع لكل هذا الاهتمام ، لكنه كان عاجزا عن أن يتخلص من « خية الحبل » التى نشبت فيه . فقال لها :

ـــ لا تبكى .. هل قلت لك ما يستوجب البكاء ؟ !

فعادت تبتسم والألم عالق بفمها كبقايا الدواء المر ! ورفعت وجهها إليه بطريقة مبتهلة وهى تقول :

ـــ أبدا !

ومن هذه اللحظة الواحدة أحس أنها راضية على رغم ما حدث . وفاحت من ألمها رائحة سعادة ، كما يتضوع البخور من المدفئة .

وخيم الصمت برهة لعبت فيها الأوراق فى الحديقة الخلفية ، ودخلت رائحة الياسمين من النافذة ، وسكت صوت الآلة ، وسمع وقع خطوات الخادم البدين . قال عزت :

ـــ لا بد أنها جاءت .

وتوسط الخادم الحجرة وقال بطريقة من يبدأ فى حكاية :

ـــ فاكر سعادتك حادثة قطار حلوان التى وقعت أمس ؟ ... إن الست الرئيسة فى المستشفى مع بعض أعضاء الجمعية لمواساة الجرحى هناك ، وربما تأخرت قليلا ... قالت لى هذا بالتليفون .

وتدحرج وخرج .

قال عزت وكأنه تنبه لشىء كان ناسيه :

ـــ وعلام إذن سنكلمها ... ما دمت ستتزوجين ؟ !

فاعتدلت فى جلستها ، وقالت بلهفة من يرجو محدثه ألا يغضب :

ـــ عزت بك ! ... أنا لست متعلمة جدا ولا جاهلة جدا . قرأت بعض الكتب وفهمت بعض التجارب ، وكنت باستمرار أحاول أن أرتفع عن

مستوى الذين أعيش معهم . لكن ... لا تحتقر من يمنحك ثقته حتى ولو كان أمره تافها بالنسبة إليك ، وقد وضعت عندك أعز ما أملك وهو سرى ... فلماذا تحتقره ؟ !

فقال مدافعا عن نفسه :

ـــ أنا ؟ !

ـــ إننى واثقة فيك ، ومستعدة أن أبوح لك بأى شيء ... لكن ... لماذا تتجاهل أصل قضيتى ؟

وخيل إليها أن امرأة غيرها خرجت من ثيابها بعد أن كانت متنكرة فيها ، فقد كان الحماس يهزها هزا وهى تتكلم وسألها :

ـــ وما أصل القضية ؟

ـــ أصلها أن ذلك الرجل زوج وأب ، ومع ذلك فالمشكلة فى نظرى أنه يريد أن يأخذ عن طريق المأذون شيئا عجز عن أخذه بطريقة أخرى ...

وأطرقت تنظر إلى يدها ، وأكمل عزت فى نفسه بقية ما يجب أن تقول : « وعندما يبلغ رغبته ينتهى الأمر ، إنها فقط رغبة رجل قادر ويريد ، وأخرج الصنارة وغير نوع الطعم » .

وهز رأسه وهز رجله المعلقة على الأخرى ، فى الوقت الذى كانت فيه هى تنقل بصرها من يدها إلى وجهه على التوالى ، ثم فطن إلى أنه يشتهيها ... ثم أحس بلسعة معنوية تقع على خده من ضربة كانت ـــ فيما يظن ـــ غير موجهة إليه ساعة قالت منذ لحظات قاصدة ذلك التاجر : « فلما لم يجد مفرا من أن يكون شريفا عمل شريفا » وعندئذ سألها فى ضجر :

ـــ وعندما تحضر السيدة رئيسة الجمعية ماذا نقول لها ؟ !

فأجابت براحة ويقين :

ـــ لن أتزوجه يا سيدى ... سأشتغل ، لكننى سأترك له فرصة أخرى لأرى ... هل سيفعل ذلك لوجه الله ؟ !

ودخل الخادم يتنحنح ويتدحرج ، وأعلن وهو يلهث ويهم بالانصراف من عند الباب أن السيدة الرئيسة فى طريقها إلى مكتبها ، وقد رآها تدخل من الباب الرئيسى .

ولما التقى ثلاثتهم رأت فاطمة وهدان سيدة أنيقة فى العقد السادس من عمرها ، ربعة فخارية اللون قد كسا شعرها الكتانى الأبيض دائرة وجهها أبهة وجمالا .

وكان يبدو عليها أنها متعبة حقا ، وكان شىء من الكبرياء المألوفة تظهر على أنفها الأشم ، وفتحت الموضوع فورا مع الأستاذ عزت فاتفقوا على أن تعمل فاطمة وهدان مشرفة فى أحد الملاجىء ، تكفل الضريرات فى الضاحية .

ولم تلبث فاطمة وهدان أن أستأذنت منصرفة ، وكانت تنظر إلى عزت كأنما تسأله بعينيها : هل أخرج وحدى .

وانصرفت عندما سلم عليها ، أما هو فإنه ظل فى مكانه ليتحدث فترة مع السيدة الرئيسة .

ـــ ٢٠ ـــ

ومع مرور الزمن ودخول الشتاء كانت أحوال سوسن قد تبدلت ، فبعد أن كانت أحلامها وخيالاتها تحوم حول (وحيد) ، عادت من جديد تدور فى الهواء ، مثل طرد من النحل يفتش عن مسكن ، وبذلك رجع شوقها أشد إبهاما ، ولوعتها أشد حرقة ، وإن كانت كامنة فى أعماقها .

وكان يلذ لها أن تقف في شرفتها مدة . خصوصا عندما يجن الليل ، ويكون الجو محتمل البرودة ، فيتوه بصرها فى ظلام المبانى الحكومية ، الواقعة أمامهم ، المنطفئة النور كالعش المهجور ، ومن خلف هذه المبانى الأشجار والحقول ، فيخفق قلبها ، وتذكر الأفق التى لمعت عليه أول نجوم الحب.... هناك في الريف في عزبة محسن بك .

وقد تجلس إلى مذكرتها فتكتب بعض عبارات :

« ليتنى كنت مثل نفيسة عمر ؟ ... لكن هل من الضرورى أن يقع هذا فى وقت مبكر ؟! » .

تعنى صديقتها التى كانت فى الإسكندرية خلال الصيف ، وجمع حب الشاطىء بينهما وبين شاب ، ثم ما لبثا ــ بعد أن غرقا فى الماء والغرام ــ ما لبثا أن تزوجا .

« أنا لا أكاد أشكو شيئا ، بابا يحبنى ، وأنا أحبه ، هل فى الدنيا رجل آخر مثله ، لو وجدت رجلا آخر فى مثل صفاتك يا أبى لركعت عند قدميه » .

« أنا لا أحس بانسجام مع أخي شكرى ، إنه يحيا بيننا كالغريب ، ولو أنه رحل أو تزوج ما شعرت أن شيئا نقص ، وهو فى حالة واحدة دائما كالتمثال التى جمدت ملامحه على اللمسات الأخيرة » .

« أما أنا ففي نفسي حزن وشرود . شرود . شرود .. أحاول ... جاهدة أن أتخلص منه كما أقاوم إغماء ... كأن ذهنى من معدن أملس لا يعلق به شيء » .

أما وحيد فقد كان فى حالة أقرب إلى النسيان ، منها إلى أى شيء آخر ... ويرجع ذلك إلى طبيعته المتقلبة . ومزاجه الهوائى ثم إلى طبيعة الحياة الاقتصادية التى يحياها ، فهو ذو مرتب لا يكفى يده المسرفة ،

وأمه تأبى أن تمده إلا بالقليل ، خصوصا بعدما فشل مشروعه الأول ، الذى أنفق عليه مبالغ طائلة ... وبعدما افترقا ظل يلقاها فى وجه كل حسناء ، ثم أخذت الصورة فى النصول ، حتى استحالت إلى بياض وزوال . وماتت سيدة (البنسيون) العجوز ، وحزن عليها وحيد ، كما تحزن الصبية على قطتها ، ولكنه فوجىء مساء اليوم التالى لوفاتها بامرأة نصف تطرق عليه باب غرفته ، وتخبره أنها صاحبة البنسيون الجديدة ، ولما تفرس ملامحها تذكر أنه رآها قبلا لمرتين أو ثلاث . ولم تكن هذه المرأة الإغريقية الحسناء إلا زوجة ابن السيدة المتوفاة .

وأحس وحيد كأن غراما سيقع بينهما ، فانشغل بها دون أن يحس ، فأتاح هذا كله للغرام الذى نبت حيال (سوسن) أن يتوارى إلى حين .

* * *

ولعل قصة عزت وفاطمة كانت قصة ذلك الوقت أو تلك الفترة ، فلقد أحس أن هذه المرأة تريد شيئا ما ، متخفيا وراء الطلبات الظاهرة ، فبعد أن وظفت مشرفة في ملجأ الضريرات ، لم يعد يسمع عنها خبرا ، فأحس بما يشبه الشوق ، ولكنه أبى أن يعترف بهذا الاسم ، وسماه فضولا ، وتمنى بينه وبين نفسه أن يقع عليها بصره مرة أخرى .

وفى الأمسيات التى كان يختلى فيها بنفسه ، أو يكون وحده فى النادى كان يتخيل جلستها معه فى دار الجمعية ، والحوار الذى وقع بينهما ، ويتخيل أن بيته أصبح مع مرور الزمن خلوا من الأبناء ... سنة كل حياة فى كل بيت ، وأن فاطمة وهدان طرقت عليه بابه ذات مساء شات ، فسهرا يستدفئان بالقسطل والمدفأة والشاى بعد عشاء دسم ، ثم امتد بهما حديث الحب ...

ويفيق عزت ويهز رأسه ، كأنما يسخر من خز عبلاته ، لكن ذلك كله

لم يتناف مع شوقه لمعرفة أمرها ، حتى كان ظهر أحد الأيام فألفاها عند باب الوزارة ساعة خروجه من الديوان .

وتلقاها بشوق غير خاف ، وكانت فى هذه المرة حسنة البزة جميلة الهيئة ، ارتفعت قيمة ثيابها فارتفع مظهر طبقتها ، وأحس بشيء من الزهو والخيلاء ، وهى سائرة إلى جواره كان مصدرهما غامضا ، وأغلب الظن أنهما يرجعان إلى كونه خلق منها هذه المرأة التى يراها ، وكانت أقل استحياء. وفى هذه المرة لم يسألها . « لماذا هى آتية » كأنه رأى أن مجيئها شيء يجب أن يكون .

وفى الطريق كانا يقفان ويمشيان حتى خلصت من كل ما عندها وقالت له :

ـــ إن أختها قد تزوجت ، وقد يسر الله لها شابا أحبها فى مصنع الحلويات الذى اشتغلت فيه وأن وظيفتها فى ملجأ الضريرات حسنة وإن لم تكن مريحة ، وأهم شيء أراحها أنها رأت من هن أتعس منها .

وقالت له وهى تضحك ولأول مرة يبدو عليها المرح :

ـــ تصور أننى أصبحت أستمتع كل يوم بشيء ما كنت أستمتع به قبل ذلك مع أننى أملكه ... تصور أننى طول هذه المدة أستيقظ من النوم فأفتح عينى جيدا ، وأنظر فى الأشياء كأنما أؤكد لنفسى أننى أرى ، بعد أن عشت بين أزهار لا تبصر .

وضحكت ، وبقية الأسى باقية على وجهها فبدت جميلة المنظر .

وفجأة سألها عزت :

ـــ وما بقية قصة الزوج المزعوم ؟

فردت عليه وقد تورد وجهها :

ـــ إنه لا يزال يريد .

ــ إنه قادر .

ــ على ماذا ؟ !

ــ على أن يعول زوجتين ويشترى قلوبا !

ــ وهل تشترى القلوب ؟ !

فضحك قائلا :

ــ لا تصدقى ... إننى أمزح . أريد فقط أن أعرف ماذا فعل .

ــ لم يفعل أكثر من أنه قدم الهدايا والمعونة بمناسبة زواج أختى على الخصوص ، وبعد ذلك أقفلت فى وجهه الباب .

ــ ألا تريدين أن تتزوجى ؟

فتنهدت وقالت وقد وقفا معا عند إحدى النواصى :

ــ لم أقتنع بعد ، إن التجربة الأولى كانت شاقة ، كان زواجا خاليا من معنى الزواج ، والحب ، لذلك ...

ــ آه .. هيه .. أيوة .. فهمت .. فهمت يا سيدتى !

ــ أظن أننى أطلت عليك . كان يجب أن أراك فلأدعك تنصرف .

ــ حاولى أن أراك مرة أخرى .

وسلم عليها وضغط على كفها ، أما هى فكانت نظراتها الكسيرة الحلوة الراجية ترسل إلى قلبه غير الذى فات .

* * *

وفى المساء جاءت خادمة الأستاذ بكير لتستأذن لسيدها ولسيدتها بزيارة إذا سمح بذلك عزت بك . وكان من الطبيعى أن يسمح ، وكان فى الحقيقة مشتاقا إلى أن يلقى هاتين الشخصيتين ، فقد رأى فيهما طرافة لم يسبق له أن رآها .

ولم يلبثا أن حضرا ...

ودخلت سوزان فى ثوب شتوى ضيق يكشف عن تفاصيل جسمها حتى استدارة السرة ، ومن خلفها زوجها فى ثياب أنيقة ... فى نظافة العريس ورشاقة الراقص ، وسذاجة الطفل . وجلست السيدة سوزان تجاه الأستاذ عزت وسعلت سعلة صغيرة اعترضت سبيلها بمنديل صغير ، ثم اعتذرت عن (البرد) وظلت صامتة . أما الأستاذ بكير فقد أخذ فى ترحيباته المألوفة .. كان هو الذى يرحب برب البيت . وسأل عن شكرى وسوسن فاعتذر الأب بكثرة مشاغلهما ، ثم بدأ الحديث يستطرد حتى شمل الغلاء ... الغلاء الضارب أطنابه على كل شىء بعد قيام الحرب الثانية ، وقد وضعت هذه الحرب أوزارها وهو مع ذلك لا يريد أن يزول .

قال بكير وهو يشير بسبابته ، ويؤكد كل جملة بيمين :

ـــ مساكين الفقراء ... والله يا عزت بيه إننى كلما صحوت بالليل من نومى ووجدت الغطاء منحسرا عنى ووجدتنى بردان تحسرت على الذين ينامون بلا غطاء ...

فمصمص عزت بشفتيه ، وهز رأسه ولم يزد على أن قال :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله !

واستطرد الأستاذ بكير بحماسة :

ـــ تعال نحسبها يا عزت بيه !

ـــ ماذا سنحسب ؟ !

فقال وكأنه يرجوه :

ـــ حسبتى أنا يا عزت بيه ... حسبة بيت صغير مثل بيتى أنا يعيش بالضرورى فقط ، فانظر يا سيدى ماذا يحدث ...

فقاطعته السيدة :

ـــ لكن لا تنس أننى لم أصرف علاوتى حتى الآن .

وعاد بكير يحسب قائلا :

ــ ملابس شتاء ، أدوية للطفل ، وليمة واحدة فقط بمناسبة ، أقساط شهرية لبعض الأثاث و ... و ...

وختم مفردات الميزانية بيمين بأن كل ما جاء فيها صحيح .

ثم ترك زمام الحديث لامرأته التي وجهت كلامها إلى رب البيت بلهجة لينة ، وصوت غلامي :

ــ ألا تنوى أن تزورنا إذن يا عزت بيه ؟

ــ بكل ممنونية ... لكنها ... كثرة مشاغل .

فألقت إليه نظرة جانبية بطريقة التي مارست الغزل ، وقالت له :

ــ مشاغل ؟ ! ... حسن ... إذن اجعل لنا نصيبا من هذه المشاغل ...

وكان صوتها في غاية اللين ، وكانت تهز ساقها العريانة جنب ساقها الثانية وهى ثابتة على السجادة ، كأنها تسمع نغمة موسيقية . وأحس رب البيت بوقع هذه الكلمة ، في الوقت الذى انفجر فيه بكير بضحكة عالية ، خرجت كما يخرج البخار المحبوس وقال :

ــ انبسط إذن يا بيه ... نحن راضون بالقليل ... بالقليل .

ونظر إلى زوجته نظرة بادلته إياها ، وكانت نظراتهما تحمل معانى لم تفت رب البيت أدرك منذ الوهلة الأولى أن وراءها سرا ، ثم ما لبث السيدة أن أستأذنت وتخلف السيد .. زوجها ، وأخذت عزت دهشة مشوبة بالتطلع عندما عاد بكير إلى الجلوس وعلى وجهه تعابير فارغة .

وساد المكان صمت قصير تخللته بعض نحنحات ، وأخذ الأستاذ بكير يفرك كفيه في تودد ، وأطرق نحو حجره وهتف يقول لرب البيت :

أنا محرج جدا يا عزت بيه ... إذ ... أقول لك بعد أن عرفت هذه

الظروف إننى مضطر جدا لأن أقترض منك حسبة بسيطة . و ... إذا لم نكن أصدقاء فنحن جيران أقرب من الإخوة ... وإذا كنا أصدقاء فقد انتهى الأمر ...

وضحك بسرعة ضحكة مضطربة ، يوارى الناس بها خجلهم فى العادة ، وعاد من جديد يفرك كفيه ، ووجهه محتقن ، وأوداجه منفوخة .
وكان رب البيت فى حالة من الدهشة تعلو على مقدار الضيق الذى لحقه ، لكنه لم يجد مفرا من أن يقدم عشرة الجنيهات المطلوبة إلى الأستاذ بكير .

وكان الموقف أضيق من أن يحتمل شحنة جديدة أخرى من المجاملة أو النفاق ، فإنه بعد أخذ المال أصبح من غير المستحسن أن يسمع رب البيت كلمة ثناء جديدة ، أو أن يجلس الضيف دون ثناء ، ويتناسى الموضوع فختم المشهد بأن عانقه وقبله وطمأنه بأن نقوده سترد سريعا .

ثم ودع عزت ضيفه حتى الباب ، وعلى مائدة العشاء جلس يقص على أولاده بصوت خفيض تفاصيل ما حدث الليلة .

ـ ٢١ ـ

ـ « كامل ؟! ... ألا تزال حيا يا صديقى ؟! » .

هتف شكرى هذه العبارة حين اعترض طريقه ، وهو سائر على الطوار فى ميدان العتبة شخص طويل جسيم يلبس بدلة من الصوف الرمادى ، وطربوشا طويلا ، ويمسك فى يده بمسبحة قصيرة ، وكان خارجا من فندق متوسط غالبا ما كان ينزل فيه إذا جاء إلى القاهرة ، وتعانق الصديقان ، واحتضن كل منهما الآخر ، فبدا شكرى وكأنه عصفور ، وقال كامل :

ـ إنها صدفة سعيدة ... حقا ...

ولما كان من الضرورى أن يتحدثا فقد أويا فى الحال إلى مقهى من المقاهى المجاورة وجلسا .

ورأى شكرى على صديقه حقيقة ما تفعله الأيام فى الناس ، فقد بدا وكأنه لم يدخل الجامعة قط . اتخذ وجهه قساوة الطبيعة فى الريف ، وماتت التعابير الحية على ملامحه ، أو لبست تعبيرا واحدا أقرب ما يكون إلى الغباء أو على الأقل عدم الذكاء فضلا عن أسنان صفراء ، وسعلة عميقة .

كان شكرى يتفرس فيه جيدا ، كأنه يبحث فى غضون هذه الكتلة من اللحم والملابس ، عن ذلك الشاب الممشوق الذى عرفه منذ سنتين على التقريب ... الطويل ذى العينين اليقظتين ، ثم ما لبث أن انفجر ضاحكا ، فانتبه كامل قائلا له :

ــ علام تضحك يا شكرى ؟ !

فأجابه مهونا :

ــ أنا لا أضحك منك ... وإنما أضحك من الأسطول .

ــ أسطول ؟ ! أى أسطول ؟ !

ــ الأسطول الريفى ... أنت يا صديقى ... هل من المعقول أن يصير أمرك هكذا ... ها . ها . ها .. تنقصك عصا وبندقية لتحرس بها حقول البطاطس ، تلك التى أكاد أشم رائحتها من خلال ثيابك ... أهكذا سريعا يا كامل تنطبع بهذا الطابع ... لكن دعنا من هذا ، وحدثنى عن أحوالك ... أنا مشتاق ، قل لى : كيف أنت ؟

وعندما جاء الساقى بالقهوة كان كامل يتنهد من صدره العميق ، ويضع طربوشه على الكرسى المجاور ، ثم بدأ يتحدث فقال وعلى شفتيه ابتسامة تشوبها مرارة .

ـــ لعلك لم تنس أننى طريد الثأر ... أقصد ... إنهم ثأروا من أبى ، ولخوفهم منى يريدون أن يقتلونى ، وأننى صاهرت فعلا ـــ وإن لم أزف بعد ـــ أسرة ذات جاه فى الريف ، والجاه فى الريف أول مقوماته الأذى والجريمة .

ولكى تعرف أى طعم أذوق به الحياة يجب أن أذكرك بليلة ، لعلك شهدت مثلها فى حياتك .

كانت من ليالى الحرب ، والغارات الجوية على أشدها ، وحين كانت صفارات الإنذار لا تسمع فى القاهرة كان سكانها يشعرون كأن الماء أو النور انقطع فى هذه الليلة ... كانت شيئا مألوفا كالمنافع العامة ، أو المرافق الضرورية ، وكانت تشتد مع ارتفاع القمر قبل أن يلقى الألمان الصواريخ المضيئة فى سمائنا .

ـــ لماذا سكت وحملقت هكذا ؟ !

ـــ لا شىء ... رأيت قرويا مارا على باب المقهى فاشتبهت فيه .

ـــ حتى فى العاصمة ؟ !

ـــ إن أعدائى لا ينامون .

ـــ تناس قليلا وتكلم .

فرشف جرعة من القهوة ، وأشعل سيجارة ، واستأنف الحديث :

ـــ وغاب القمر فى ليالى آخر الشهر ، ونشطت حركة الزفاف وفوجئت بفرح يقام فوق السطح لعروس تزف إلى عريسها ، وأخيرا وعلى غير انتظار سمعت هرجا ومرجا مختلطا بصوت الموسيقى الذى كان على وشك أن ينقطع ، وبقية زغاريد مرتعبة مهزوزة .

وصاح صوت يقول : أطفئوا الأنوار ... فهذه صفارة الإنذار ، ولم تمهلهم العاصفة ، فقد بدأت مدافع القلعة ترسل طلقاتها ، ورأوا نور

قنابلها ، وهم أعلى السطح فلاذ الكل بالفرار ، ونزلوا السلم الطويل يتدافعون ، وخرجت أنا من شقتي لأرى الموكب ، وهو في طريقه إلى تحت على ضوء شمعة واحدة تترنح لتنير السلم للنازلين .

واشتدت الطلقات ، وهوت قنابل الحي ، ولمعت في السماء ألسنة الكشافات تلعق الجو وتحسس طائرة لتصطدم بها ، والمهم ... أنهم وهم على السلم سمعت أم العروسة بعض النسوة والبنات يعولن كأنهن في مأتم فتشاءمت وأطلقت زغاريدها ، فكنت وأنا في أعلى السلم وفي آخر الموكب يتناهى إلى الأصوات مختلفة غريبة ، شغلني تأملها عن الخطر الماحق الذى يحدق بنا ، فمن خلال الزجاج ، وأزيز القنابل ، وزفير المدافع كنت أرى شمعة تتراقص ، وناسا يتدافعون ، وعويلا مختلطا بالزغاريد ، ودماء على وشك أن تسيل ...

ثم سكت ولمعت في عينيه الدموع ، وقال :

ــ شكرى ! ... هذه هي حياتي .

ودخل في هذه اللحظة بائع متجول ، وقف خلف شكرى وأمام كامل ، وأخذ ينادى على حزمة مختلفة من اللعب يحملها ، وكان كامل يحملق فيه وعيناه تبرقان بالضحك قليلا قليلا ، وما لبث أن غمز صديقه لينبهه قائلا في صوت هامس :

ــ انظر ... انظر ... إنه ورائي .

فلما التفت شكرى إلى البائع رآه يصوب إلى صديقه فوهة مسدس من لعب الأطفال ، وهو يقول : « كل اللعب .. للبنت والولد » ...

ولما بعد البائع يجول في أنحاء القهوة استأنف كامل حديثه :

ــ على أنني بعد أن ارتبطت بالزواج ندمت ، لأن الذين ارتبطت بهم يشعرونني بلا قصد أنهم يحموننى ، وأبيت أحيانا يا شكرى أشعر بأننى



وقال كامل : انهم يريدون أن يقتـــلونى حتى
لا آخذ ثار ابى ٠ وهم يقتلوننى كل يوم بالاشاعات

أستمد الحياة من (الباطن) ، من باطنهم هم كعقود الإيجار المحرمة من ذلك النوع الذى درست عنه في الحقوق ، وكثيرا ما فكرت أن أرحل إلى المدينة لكن المطالب بثأر مرتبط هناك بالأسرة كلها ...

ثم ضحك بمرارة ... وقال :

ــ كمثل الناس أيام الحرب كلهم يدافع عنها ، ولا يطالب بالسلام الذى يتشهاه ويتمناه قبل كل طلقة ومعها وبعدها ... فالأسرة فى الريف يا شكرى فى مثل هذه المواقف ، كل أفرادها قواد شر ، ومشعلو نار .

ــ لكن ، إنك أنت الذى تطالب بالثأر لا أعداؤك .

ــ هل تعرف حكاية البيضة والكتكوت ...

ــ مالها ؟

ــ أيهما أسبق ؟ .. قالوا . البيضة . وقالوا : الكتكوت . ورجعوا فقالوا : البيضة ... حتى دارت القضية فأصبحت بلا نهاية .

إنهم يريدون أن يقتلونى حتى لا آخذ ثأر أبى ... وهم يقتلوننى كل يوم بالإشاعات ، تصور أننى خرجت ذات يوم بعد عودتى إلى القرية من سفر دام أسبوعا فإذا بالناس يحملقون فى وجهى ، كأننى انبعثت من الموت ... فلما سألت عن الحكاية قال لى أحدهم : لقد سمعوا أننى كنت فى المستشفى بعد تسمم حاد من مادة دست لى بواسطة أعوانهم ، وكانت هذه الإشاعة أشبه بفكرة التعذيب التى اخترعها الألمان أيام الحرب ، حين كانوا يريدون أن يجبروا أحدا على الاعتراف ، فيسلطوا على رأسه صنبورا يرمى إلى جمجمته بنقطة واحدة من الماء كل خمس ثوان ... فأى عذاب كان يلحق الأسير فى المدة بين سقوط النقطة الأولى وانتظار النقطة الثانية . يتكرر العذاب حتى تخور روحه ، وتنهد قواه فيفعل أكثر مما يريد أعداؤه .

وأنا يا صديقى بعد إشاعة تسممى ، ونقلى سرا إلى مستشفى فى المدينة ، أصبحت أتصور أن يدا مجهولة قد تدس لى السم فى طعامى ، وأن أيسر سبيل لإقفال باب الثأر حقيقة هو ... موتى أنا .. أنا !

ـــ يا سلام ؟

ـــ هل تسخر . إذن مالك تبتسم هكذا ؟

تأكد يا صديقى أن فى هذا الجسم الضخم والبناء الكبير روحا مسالمة ، أنا لا أحب الشر وأهوى الحياة الهادئة ، وفى بعض ليالى القلق كانت تهبط على أفكار كالتى يعملها أهل الصعيد للتخلص من قضايا الثأر ... أن آخذ كفنى وأذهب إلى أعدائى مسلما نفسى إلى كرمهم حتى يعود إلينا جو الصفاء ، لكننى كنت أفطن أخيرا إلى أننى مطلوب بعد أبى ، وأننى المظلوم لا الظالم ... وأننى سأعيش بعد ما فعلت ، وكأننى فى عداد الأموات إذا أطقت أن أقيم فى القرية .

ولما بان الأسى فى رنة صوته ، أخذت شكرى صاحب القلب القاسى هزة من العطف فربت على كتفه قائلا له :

ـــ اسمع يا صديقى ... دعك من هذا السواد ... هل تذكر عواطف ؟ !

ـــ عواطف ؟ ! عواطف من هذه ؟ ... آه تذكرت . أهى تلك المنحوسة التى طلبناها ذات ليلة فتلقيت فيها البرقية السوداء .. إحم إحم .. نعم نعم .. تذكرتها ...

فتلفت شكرى حوله ثم تقدم بكرسيه أكثر نحو صديقه وأخذ يهمس له :

ـــ ما رأيك فى أن نزورها الليلة ؟

ـــ أين ؟

ـــ في بيتها .

فمرت سحابة من التفكير والهموم على وجه كامل ، ولم يسرع بالرد ثم ما لبث أن قال وهو ينقر بأصابعه على رخام المنضدة :

ـــ عليها ؟! .. في بيتها ؟! لكن ... أليس هذا ...

فقاطعه شكرى بأن ضرب كفه بعنف ، وهى على المنضدة وانفجر ضاحكا وهو يقول :

ـــ حرام ؟ . هيه ... وقبل ذلك كان ذلك حلالا ؟

ـــ يا لها من فلسفة !؟

فنظر كامل إليه نظرة أكثر جدية وقال :

ـــ ينبغى أن تفهم . مالك تنظر إلى الأمر هكذا نظرة فوضوية ؟ دعك من الحلال والحرام وتعال نفهم . هل أنا محتاج إلى مثل هذا ما دمت قد ارتبطت مع امرأة أخرى بكلمة شرف ؟ لنجعل الدافع فى أمرنا هو الحاجة لا الشرف ، فهل أنا محتاج إليها أيها الفوضوى ؟ !

فرد عليه باقتناع شديد :

ـــ نعم أنت محتاج حاجة الظمآن إلى الماء ، إن الشيء الذى يخرجك من دوامة هذه الهموم هو هواؤك ودواؤك ، وأنا واثق أن ليلة مرح واحدة ستخفف عنك أوصابك ؛ ثم أين هى هذه التى ارتبطت بها ، إنها لا تزال بعيدة عنك ، لا تعترض ، فوالله إنهـــا تحـــبك ... أقصد عواطف ... وما قابلتنى إلا سألتنى عنك .

ثم سكت ونظر إلى مرآة قريبة معلقة على أحد الجدران وعاد يقول :

ـــ قليل من الناس يخرجون من الدنيا غير باكين عليها ... فهل تعرفهم ؟

ـــ لا ...

ـــ أولئك هم الذين يفعلون ما يشاءون .
فرد عليه فى كآبة وتفكير :
ـــ هيه ... حسن ... لكن بالنسبة لى ألا يعتبر هذا خيانة لزوجتى ؟
فرد مداعبا :
ـــ ألا تذكر أن البرازيل أغرقت (بنها) وأحرقته إبان الأزمة العالمية الكبرى ؟ ... إن التخلص من الفائض حكمة اقتصادية ... والخيانة يا سيدى هى أن تعطى حقها لغيرها ، وأنت لن تفعل ذلك .
ـــ لماذا أليس ذلك حبا ؟؟
فقهقه قائلا :
ـــ حب ؟ ! يا للمصيبة ... وهل تفعل ذلك على أنه حب ، ولنفرض أنه حب جديد هزم حب زوجتك ، فمن المسئول فيكما ؟ ... هى بالنيابة عن حبك فيها مسئولة أمامك ، فلو جعلته عظيما فاحتواك وملكك ما استطاع حب امرأة سواها أن يلمس قلبك .
ولماذا لا يكون العكس ، وأكون أنا المسئول أمامها بالنيابة عن حبى فيها ، فلو ملأت قلبى بها ما وجدت امرأة سواها مكانا فيه ؟
ـــ الطريقان يصبان فى ميدان واحد ، لأنها هى التى تخلق حبها فى نفسك ، وعلى كل حال فأنت لن تمارس حبا مع عواطف ، ولكنك ستنسى هما وكفى .
ـــ أنت شديد المغالطة يا شكرى .
ـــ لماذا لا تعمل ما يعمله المحاربون فى إجازة يوم . انس قليلا وتعال لنلتقى عندها .. موافق ؟ .. سكت ... أظنك وافقت ، على كل حال موعدنا هنا الليلة فى الساعة السادسة مساء .
وتصافح الصديقان وافترقا ...

لكن كامل ظل جالسا مكانه بعد أن غادره صديقه يستعيد الكلمات التى دارت بينهما وينقر على المنضدة ويصفر بشفتيه دون أن يحدث صوتا .

وفى الساعة السادسة دخل شكرى يهرول ، كأنه سيدرك قطارا ، تعشيا فى أحد المطاعم وشربا ، وكان كامل يتأمل صديقه أثناء العشاء ، يحاول أن يعثر على كلمة أو كلمتين تعبران عن سلوكه فلم يجد إلا أنه « شهوة وشهية » .

« كان يتكلم عن الحب فى ذلك الصباح بالطريقة التى يتكلم بها الزنديق عن الله » .

هكذا قال كامل فى نفسه ، وهو يستمع إلى ثرثرة صديقه على الطعام ، فقد أصبح من الذين يجدون شيئا يؤمنون به ويقدسونه منذ حادثة قتل أبيه . كأن أباه قد كان تمثالا ضخما يستر كثيرا من الحقائق الجادة ، فلما هوى التمثال ظهرت الحقائق بكل ما فيها من جبروت .

وأفاق من أفكاره على صوت شكرى يقول له :

ـــ لقد دخلت بيتها ذات ليلة ، وحبستنى فيه لأن لها أما ..

ـــ وماذا تريد أن تفعل الليلة ؟

ـــ دعها للظروف فليس من الضرورى أن نجدها هناك . هلم بنا ؟

وركبا إلى حيث تسكن ، وانخلعا عن الشارع الرئيسى القريب من مسكنها ودخلا إلى الحارات المظلمة وكان كامل يحس بأثقال الذنوب . أما شكرى فقد كان يسعل مثل البهيمة ، وما أن اقتربا من البيت حتى رأيا أنوارا باهرة تسطع الحارة ، وعقودا من المصابيح الملونة تحلى صدر أحد البيوت ، وتضاءل الأمل فى نفس شكرى ، وتنهد الثانى تنهد من خرج من مأزقه ، فقد كان مصحوبا بضعف ، كأنه (منوم) ، ولما وصلا إلى

هناك وجد (الفرح) فى البيت الذى يطلبانه ، وناسا يدخلون وناسا يخرجون ، ورجلا جالسا على كرسى عند عتبة الباب ونوافذ السلاملك الذى تسكنه المرأة موصدة تماما .

ولما انفصلا عنه قهقه كامل يرد السخرية إلى صديقه قائلا :

ـــ فرحة ما تمت ...

ـــ لماذا ؟ أليس بعد هذه الليلة ليال أخرى !

فقال كامل ، وهو يجد السير :

ـــ لا يا صديقى ... لا بالنسبة لى ... سأسافر غدا أو بعد غد ... لكن ... لا تنس أننى أنزل فى هذه اللوكاندة كلما حضرت ... اكتب لى يا شكرى ... اسأل عنى ...

وبدأ التوسل على وجهه .

وعند الميدان الكبير تعانق الصديقان وكل منهما يقول لصاحبه : « إلى اللقاء » ؟ ...

ـــ ٢٢ ـــ

كتبت سوسن فى مذكراتها تقول :

« شرودى أصبح مشوبا بشوق . أنا أحب ... أحب بكل قوتى وأبكى من حبى ... لأننى أحب إنسانا لا وجود له » .

وقالت لنا أبلة بهيجة فى أول حصة من الحصص :

« هذا هو فصل الربيع يا بناتى فصل الإحساس المرهف والدموع بلا سبب ، فإذا أحست واحدة منكن بضيق .. فلا تتضايق ! » .

وقد ضحكنا من كلمتها وسألناها : « وكيف لا نتضايق إذا أحسسنا بالضيق ؟ ! » .

على أن تفتح الأزهار فى الحقول ، والمشاتل القريبة من مسكنهم ، وازدهار الخمائل ، ونباتات الأسوار فى حديقة الحيوان القريبة شحن الجو حول سوسن بحب وعطر ، فأحست كأنها هائمة أو مغموسة ، وكان (وحيد) ولا شك يخطر على بالها كلما جلست إلى مذكراتها أو أمسكت خيوط (التريكو) .

وكان شيء مبهم آخر يبلبل أفكارها فتسأل نفسها عن النتائج :

ــ « ماذا يحدث لو أننى رسبت هذا العام ؟ » .

ويكون الجواب :

ــ « مصيبة . شكرى سيثب إلى السنة النهائية . وأبى .. آه ... ربما مات كمدا .

وتترقرق الدموع فى عينيها السوداوين بمجرد أن يخطر على بالها أن والدها سيصيبه بسببها هم ، إنها لا تريد أن تمنح الشقاء لمن لو ملك أن يقدم لها سعادة الدنيا محمولة على كفيه لفعل ، فتفر من أفكارها وتحاول جاهدة أن تغرق فى العمل لكنه الشرود ... الشرود ... الشرود .

ووجدت عاطفتها الفوارة ، وخيالها الخصب حلاً أكثر سعادة وتوفيقا ، فقد رأت أن حل الإشكال بسيط ، فهو فى أن تبتهل إلى الله أن .. تموت .

وأحست أنها تبكى ، ولم تستطع أن تعلل ذلك . هل تبكى مقدما على شبابها ، أو تبكى مرة أخرى لأن موتها سيسبب لأبيها أحزانا ثقيلة عليه ... ثقيلة جدا ... فستثور من جديد جراح أمها ، وسيضم ملابس جديدة إلى ملابس الحقيبة و ...

وارتفع بكاؤها حتى سمعته أمينة وهى مارة على باب الحجرة ، فدخلت واحتوتها بين ذراعيها ، وسألتها فى حنان :

ـــ لماذا يا سيدتى ... هل ذكرت أمك الغالية ؟
فأومأت بالإيجاب .

* * *

وفى هذا الوقت الذى كانت سوسن تبكى فيه كانت فاطمة وهدان تبكى بين يدى عزت ، فى الحجرة الداخلية فى دار الجمعية التى التقيا فيها قبلا .

وكانت أزهار الحديقة الخلفية أيضا تتنفس ، فملأ المساء عبيرها ، وقوس القمر يظهر من النافذة ، وكان عزت مرهف الحس يشعر بحاجة إلى البكاء هو الآخر .. نعم بحاجة إلى البكاء ، لأنه كان يقول فى نفسه :

« إنه ليس عيبا أن نذرف الدموع فى سبيل محافظتنا على شىء نقدسه ، والذين لا يجدون ما يبكون من أجله ، لا يجدون ما يقدسونه »

كان يتمنى بينه وبين نفسه أن يأخذها بين أحضانه . إنه يحبها على الأقل مثلما تحبه ، ولكن هناك اعتبارات أعلى من كل ذلك ، فهو يريد أن يكون صادقا مع نفسه ليكون صادقا مع أبنائه ، ولا تنفصل عنه نفسه ، كما ينفصل الجرف عن الشاطىء المنخوب ـــ حين يكلم أحدهما عن الشرف أو عن الاستقامة ، وكان يحس بلذة كبرى فى مقاومة (الضعف) كالطفل الذى تدفعه حركة الحياة إلى أن يمشى على ساقيه اللينتين .

ودخلت نسمة مسائية من الشباك ، وخرجت على كعبها العالى الفتاة التى تعمل على الماكينة فى دار الجمعية فهدأ الجو ، ودخل الخادم البدين ثم انصرف ، ولم تحضر السيدة الرئيسة بعد ، وكانت فاطمة وهدان قد مسحت دمعها ، وسكتت عن القصة التى كانت تحكيها وزمت شفتيها على ابتسامة محزونة .

وكانت تحكى له قصة أحد الموظفين هناك .. فى ملجأ الضريرات ..

ممن بيدهم الأمر ، وتقول له : إنها لقيت منه مضايقات كثيرة ، وأنها تؤثر أن تعود إلى حياة العوز ، فذلك خير لها من هذه الحياة ، ثم سكتت وسألته فجأة :

ـــ لماذا .. لماذا ألقى فى طريقى كثيرا من الأشرار ؟ .. هل أنا شريرة ؟ !

فعض عزت على شفتيه ، وهز رأسه مبتسما فى حزن ، وأجابها فى دعابة :

ـــ وهل يا ترى أنا داخل فى زمرة الأشرار ؟

ثم استطرد ليزيل عن وجهها الخجل :

ـــ كل ما هناك أنك تملكين (ما تحافظين عليه) وإلا ما أحسست أن حولك أخيارا وأشرارا ، فلا تحزنى .

وسادت فترة صمت ، كانت فاطمة وهدان تتنفس فيها الصعداء بين حين وآخر ، بددها بأن قال لها :

ـــ ما دمت تجدين الحياة فى الخارج غير سائغة هكذا ، فلماذا لا تتزوجين . لماذا لا تتزوجين ذلك التاجر ؟ .. إنه فى رأيى خير من أى رجل آخر .

فاقتربت منه وهى تقول :

ـــ هناك رجل واحد كنت أود أن أتزوج منه لكنه فى بعد هذا ..

وأشارت إلى قوس القمر الذى يظهر عبر الشارع ، وعادت فأرسلت إليه نظرة مريضة ، وكل ما فيها يتحدث بأنها مهزومة أمام عواطفها ، وأن القوة التى يسيطر بها هو على ضعفه كانت جزءا من القوة التى حطمت إرادتها هى فى الاحتفاظ بتوازنها .

ونظر عزت إلى الناحية الأخرى ، ثم عاد فنظر إليها قائلا :

ـــ نعم نعم .. هذا الذى تتحدثين عنه .. يرحمه الله !

ووسعت عينيها فى وجهه ، وشهقت ولم تقل شيئا ، ثم ألهمت أن تسأله قائلة :

ـــ يرحمه الله ؟! ... ومن يدريك أنه غير حى ؟ !

فضحك قائلا :

ـــ إذن فليطل الله عمره ..

وقطع عليهما الحديث وقع خطوات الخادم البدين يعلن أن السيدة الرئيسة قد وصلت . وأنها بانتظار عزت بك .

ولما حدثها عزت عن الأمر أعلنت ـــ فى شىء من الحرج ـــ أن فاطمة وهدان هذه لا تملك خضوع الفقراء ، ولا تسامح المحتاجين .

ولما أحست بأن هذه الكلمة جارحة بالنسبة لعزت ، أردفتها بضحكة فريدة كانت أميز ما تتميز به هذه السيدة وهى تعرف بأنها كفيلة أن تنسيه الغضب . ثم وعدت أنها ـــ إذا لم تستقر فى المستقبل بعد التوصية الكافية ـــ فستنقل إلى مكان آخر .

وخرجا فى هذه المرة معا هو وفاطمة وهدان .. وكان الطريق الذى عبراه إلى محطة السكة الحديد مفروشا بنور المصابيح ، ومعظم البيوت الواقعة عليه تمتاز بالحدائق المسقية خلال النهار فتضوعت أنفاسها فى الليل ، والشوارع تكاد تكون خالية من المارة .

ونظرا تباعا إلى السماء الصافية ، وتطلع عزت إلى نجم يتلألأ ، وسمعا وقع أقدامهما على الرصيف ، وبحركة غير إرادية اقترب منها حتى أمسك ذراعها ، فخيل إليه أنه يمسك ذراعا نسائية لأول مرة فى حياته ، ومرا فى هذه اللحظة تحت أحد المصابيح فرآها وهى ترفع إليه وجهها ، ورأى الوله فى عينيها لطرفة عين .

وسمعا قطارا يزفر قبل أن يتوقف لدخول المحطة القريبة ، وتنهد عزت وقال بصوت عال :

ــ فاطمة !

فهمست ترد :

ــ نعم !

فسأل فى لهفة من يسأل عن مصيره الشخصى :

ــ من هو ذا الذى ترينه أبعد من القمر ؟ !

فالتصقت به ، وهى تهمس وتتلفت :

ــ إنه أقرب الناس منى .. وأبعدهم عنى و ..

واختنق صوتها فلم تستطع أن تواصل حديثها ، فظهرت به تلك الغصة التى تسبق الدموع فتكلم هو قائلا :

ــ أنت لا تدرين كم أحببتك ؟ ! أنت لا تدرين !

وهنا سمحت لنفسها أن تبكى ...

ــ ٢٣ ــ

كنا على أبواب شهر مايو فى هذه الليلة القريبة من الصيف ، وكان المجلس صافيا حلوا فى حجرة استقبال الأستاذ عزت ، ليلة كان فى زيارته جاره (بكير) ، وحرمه السيدة سوزان .

وكانا فى أناقتهما المعهودة ، ورقة مظهرهما . وكان يبدو عليهما أنهما يجتازان فترة من الرخاء ، ودار بهم الحديث كل مدار حتى استقر عند الخادمة أمينة ، فأعلن عزت أنها مريضة ملازمة لفراشها منذ أيام ، وعند ذلك ظهرت على وجهه تقطيبة مرجعها إلى أخلاص الخادمة ، ورقة قلب المخدوم .

وحملقت فيه السيدة سوزان . ثم ضحكت ضحكتها المرحة ، وتبعا لذلك ضحك الأستاذ بكير ، فلما نظر إليهما نظرة مليئة بالتساؤل سارع الزوج يغمز زوجته لتوضح الموقف ، فوضعت سوزان ساقا على ساق وأخذت تحكى عن خادمتها (جميلة) :

ـــ هذه الفتاة يا عزت بك يتيمة ، ضمها إليه أحد أقاربها فى الريف فمرضت عنده بأمراض شتى ، فلما أخذناها وعالجناها دانت لنا بالحب مدة من الزمن ، وهى كما تراها وجه لا يطمع إنسان فى التطلع إليه أكثر من دقيقة ثم ينسحب .

أما أنا قد أحببتها بحكم الحاجة إليها ، فهى خادمة وحاضنة ، وأنت تعلم أننى أعود إلى عملى بعد الظهر فى معظم أيام الأسبوع .

وذات يوم أحسست بوعكة من غير الممكن أن تقاوم ، أحسست بمغص يفرى أمعائى فقررت العودة إلى البيت ..

هنا صفق الأستاذ بكير بكفيه مبشرا بحوادث ستحكيها زوجته ، وضحك وهو يضرب الأرض بقدميه ، ثم مسح شاربه بكفيه وهو يربت على زوجته قائلا :

ـــ نعم .. نعم .. أكملى يا حبيبتى .

فاسترسلت :

ـــ وطبعا لم أدق الجرس ، بل أدرت المفتاح فى القفل برفق ولما دلفت إلى البهو ملأت أنفى رائحة العطر الذى أستعمله ، وراعنى أن أجد باب الصالون مواربا ، وحين أطللت لم أجد النافذة الوحيدة فيه مغلقة ، كما هى العادة ، ووجدت آثار جلوس على أغطية لم تنظم بعد .. آثارا تدل على اثنين كانا متجاورين فى المكان ..

وانفجر الأستاذ بكير ضاحكا ، وخبط يقدميه وهو يضحك قائلا لعزت :

ـــ أليس هذا يشبه ما نراه في السينما يا عزت بك !

وربت على كتف زوجته من جديد قائلا لها :

ـــ أكملي يا حبيبتي .

فقالت بعد تنهيد لطيف :

ـــ وسمعت موقد الجاز يئز في المطبخ ، فأدخلت رأسي بحذر وتطلعت إلى الداخل فلم أجد (جميلة) ، وسمعت بكاء الطفل في حجرته بطريقة تدل على أنه يبكي منذ وقت طويل ، فسارعت إليه فوجدته في فراشه ، ولا أحد عنده ، عند ذلك رجحت أن الخادمة في الخارج ، ولا شك في هذا .

ولم أدر ما أفعل ، فقد كانت حركاتي لا ضابط لها أدت بي إلى غرفة النوم بعد أن جلت مرتين في الصالة .. وعندما فتحت بابها ..

وانفجر الأستاذ بكير وانتفخت أوداجه من الضحك ، وصار يصفق ويخبط الأرض بقدميه ، وأحس عزت بالشوق إلى بقية الحادثة في حين كانت سوزان تنظر إليه في صمت وابتسام ، ثم قالت :

ـــ ماذا تظن أنني رأيت ؟! .. رجلا ؟! .. لا . بل على العكس رأيت سيدة في كامل زينتها أمام المرآة ، وهي تهم أن تخلع ثيابها ، ولم تكن هذه الثياب إلا ثيابي ، فلما طالعها خيالي في المرآة أخذت تخلعها عنها بعجلة كنت أصرخ بسببها ، لأن (جميلة) سمينة عني ، وكانت الملابس محشورة فيها حشرا ، وكلما زدت صراخا زادت هي سرعة وارتباكا ، وأخيرا أخذت أفحص وجهها وطريقة وضع المساحيق عليه فصرت أبكي وأضحك في نفس واحد ، ونسيت طفلي الذي يكاد يخنقه البكاء .. نسيته من عجب ما رأيت ..

وكان عزت يهز رأسه ، ويستمع في صمت ، ويعض شفته بين آونة

وأخرى ثم سأل :

ـــ يهمنى أن أعرف من الذى كان معها فى الصالون .

فقالت سوزان :

ـــ لم تقل لى من هو . كل ما هناك أنها أخذت تقبل كفى ، وتقسم أنها لن تعود إلى أعمال الأطفال مرة أخرى . ولم يفارقنى الغضب ، وتركتها وذهبت إلى الطفل ، وحملته وأنا أبكى فى الوقت الذى دخلت على فيه (جميلة) تهز ردفها ، وتعلن أن الطبيخ قد شاط أثناء العراك ، فأشرت إليها أن تخرج من أمامى . وفى هذا اليوم أصدرت قرارا حاسما بوجوب الاستقالة من العمل خصوصا عندما رأيت ابنى متعلقا بالخادمة أكثر منى . لكننا حين أوينا إلى فراشنا ليلا ـــ أنا وبكير ـــ وأخذنا فى استعراض الموقف تنهد كل منا فى الظلام وقال للآخر :

ـــ حقيقة أن هناك متاعب .. لكن .. لن يستطيع دخل أحدنا أن يكفى الاثنين .

وعند الصباح فترت الحمية وقمت إلى ثيابى ألبسها .

وتأوهت سوزان إيذانا بانتهاء القصة ، وحوقل رب البيت متصورا سوسن فى مثل هذا المأزق ، ثم قال كلاما يهون به الأمر عليها ما لبث الأستاذ بكير أن قال بعده :

ـــ تعرف يا عزت بيه .. لقد اقترحت عليها اقتراحا ليلتئذ ، لكنها لم توافق عليه ، كان مريحا جدا لكن السيدات مناكفات كما تعلم .. وموجز الاقتراح أن أستقيل أنا وأقعد لتربية الأولاد (ها ها ها) ما دام مرتبها ضعف مرتبى !

وضحك عزت ، وزمجرت سوزان فانخرط الأستاذ بكير يقول :

ـــ إنها تجربة ماذا علينا لو جربناها ؟ ! ألست أنا أكثر حنانا وحيلة

على البيت والأولاد من أى إنسان آخر ؟ !

ثم فجأة كمن فطن إلى شيء نسيه :

ـــ وهل عرفت يا عزت بيه من هذا الشخص الذى كان مع الملعونة ؟

ـــ لا .

ـــ إنه بائع اللبن ..

وأغرق الثلاثة فى الضحك حتى قال بكير :

ـــ أنا عارف لكننى لا أستطيع أن أصدر قرارا .

ثم نظر إلى سوزان نظرة استئذان لا تخلو من تحد قائلا لها :

ـــ لقد حكيت أنت حكاية فهل من حقى أن أحكى حكاية ؟ ورأى الموافقة فى عينيها ، فبدأ القصة بصوت هامس قائلا :

ـــ فى إحدى الليالى الصائفة أيام كنا فى المنزل القديم الذى نقلنا منه إلى هنا قمت لبعض حاجاتى بالليل ؛ فسمعت همسا فى المطبخ ، ولما هممت أن أفتحه ترددت ، لأن هناك بطبيعة الحال فتاة تنام فيه . ونقرت على بابه ثم دفعته فألفيته موصدا من الداخل . ثم سمعت بعد ذلك الباب المؤدى إلى سلم الخدم يقفل وسمعت صوتا يحاول أن يكون ناعسا يرد من وراء الباب . وبعد قليل فتحت (جميلة) ، وبينما كنت أسألها عما إذا كانت نائمة سمعنا هرجا ومرجا فى الدور الأسفل وصوت أحد يقول (حرامى . حرامى . حرامى) وتدافع بعض السكان وخرج البواب فلم يعثروا على أحد . لكننا حين جاءت سوزان إلى المطبخ ، وأخذنا فى فحص كل شيء وجدنا سحابة من الأرز تغطى الأرض حتى باب سلم الخدم فعرفنا أنه لم يكن لصا ، وإنما كان رجلا فى خدمتها ...

وقررنا طردها ، لكننا حين عدنا وقت الظهر وجدناها متخذة نفس القرار ففترت حميتنا وعدنا فقلنا . (إن الشيطان الذى عرفناه خير من الشيطان

الذى لم نعرفه بعد) .

وساد الصمت قليلا ، كأنما كانوا يأخذون أنفاسهم ، وبعد قليل قال عزت موجها حديثه إليهما معا :

ــ حسن ... لنفرض أن الله من عليكما بدخل يغنى عن عناء العمل بالنسبة للسيدة سوزان ، فما يكون الموقف ؟

فهب الأستاذ بكير واقفا على قدميه ، وهو يقسم أنه ما كان يسمح لها بأن تغادر باب البيت ، فالمسألة مسألة مستوى معيشة يا عزت بك لا أكثر ولا أقل .

غير أن السيدة سوزان حدجته بنظرة متكبرة فجلس ، وأعربت عن رأيها قائلة :

ــ إنها مسألة أخرى ... مسألة تحتاج إلى التفكير . فأنا حين أشعر أننى سأقيم بين الجدران لعدة أشهر أختنق مقدما ، حتى ولو كنت فى قصر حديقته أربعون فدانا ... المسألة اليوم مسألة حرية وعمل معا ... لكن الرجل ــ متمثلا فى زوجى ــ لا يريد أن ينسى ماضى الجنسين ، والمرأة ــ متمثلة فى ــ تمسك بيدها (باب الحريم المفتوح) حتى لا يقفل مرة أخرى .

وأخيرا ... لقد بدأت المرأة تستريح من عصر الأرامل والمطلقات أيها الرجال !

وفى مساء اليوم نفسه كان عزت يحكى لسوسن كل ما يمكن أن يقص على سمعها من الحوادث التى وقعت فى بيت الأستاذ بكير ، وكانت سوسن تصغى إليه فى حيرة ، وترى أمامها صورة مضطربة للحياة كأنها سوق قروية ، ثم ألقت على نفسها سؤالا : « هل يسعدها أن تكون هى وزوجها مثل جيرانهما هؤلاء » ؟ وفى اللحظة التى كان الأب يقول فيها

لابنته : « إن أعظم ثروة ينميها الآباء هي الأبناء يا فتاتى » ... كانت تفكر فيما نقلته خادمتها إليها عن طريق الخادمة (جميلة) ...

ولما سكت الأب فى الظلام كانت سوسن تسترجع هذه الصورة التى سمعت عنها من قبل « فقد غضبت جميلة من سيدتها عند قريبة لها فى القاهرة ، وجلس الزوجان فى الصباح يتدبران الموقف بالنسبة للطفل ، فقررا أنه من الممكن أن يغيب الزوج وليس من الممكن أن تغيب الزوجة لأن ارتباطها بالمدير كان كبيرا ، وكان هناك أعمال هامة تستدعى حضورها ، فجلس الأستاذ بكير فى البيت ... وكان عليه أولا وقبل كل شيء أن يرعى الطفل ، وقالت لأمينة التى نقلت هذا لسوسن :

ـ ربما كان من السهل عليه أن يغير له اللفائف ، لكن الصعوبة واجهته فى شيء لم يخطر له على بال ، فقد حلى له شراب الينسون بالملح ، وقدمه إليه ساخنا ، فتصورى ماذا يصيب معدة الرضيع وفمه من كل ذلك . ولما كان من الصعب أن يعثروا على خادمة فى مدى ثمان وأربعين ساعة فقد كانوا يتركون طفلهم عند زوجة البواب حتى يعودوا من أعمالهم .

ولم يكن الأستاذ بكير يجتمع مع زوجته فى يوم إجازة الأسبوع ، فقد كان هو (حكوميا) إجازته الجمعة ، وكانت هى (فى شركة) إجازتها الأحد ... لكنه على الرغم من كل شيء كان يحس بسعادة لا توصف فى يوم الأحد حتى كان يبدو أكثر راحة ومرحا وحضور ذهن فى عمله ، كلما تصور أنه سيدق الباب فيفتح له وجه يحبه ويشاركه فى المملكة التى تهدى إلى البشرية .. وإليه أولا ... أعز شيء فى الدنيا .. الأولاد !

وحاولت سوسن فى الظلام أن تختار بين الموقفين ، لكنها كانت عاجزة ، لأن الزمن كثيرا ما يكون هو صاحب الاختيار بأحكامه وتطوراته وضروراته .

* * *

وفى مساء اليوم التالى وقعت مفاجأة سارة لأسرة الأستاذ عزت : فقد دق جرس الباب ، ولما فتحت أمينة وجدت محسن بك وزوجته قد حضرا من السفر .

كان محسن بك فى حلة سوداء أنيقة ، وفى يده سبحته الصغيرة ذات الحبات الكهرمانية ، والمبسم والسيجارة بين أسنانه ، والسيدة اعتدالْ تبدو فى مرحلة صحية جيدة ، وخف إليهما الأولاد كما تفعل العصافير ، وأمسك محسن بك بخد سوسن وقرصه فى لطفٍ وتحبب وهو يقول لها : « أوه .. لقد كبرت اليمامة ... لقد كبرت اليمامة » .

ــ أما أنت يا شكرى (هكذا قال محسن بك أيضا) : فقد نقصت شيئا هاما بحيث لو صادفتنى فى الطريق ما عرفتك ... أين شاربك أيها الشاب ؟ !

وجلسوا فى المدخل ، وجلست سوسن تتأمل زوج خالتها ، فلما علمت أنه آت لاستشارة أحد الأطباء المشهورين لم تستغرب منظر الشحوب والذبول الذى عراه خصوصا بعد أن جاوز الستين .

ولم يلبث أن دخل عزت ، فألفى المفاجأة السارة تنتظره فى البيت . وتولى محسن بك مهمة الترفيه عن الحاضرين ، وهم على العشاء ، ولو أنه كان فى حالة صحية غير عالية .

فقد سأل أمينة عن موعد وفاتها ، مقسما لها أنه سيوزع على قبرها مائة فطيرة ، ثم اتجه إلى عزت يسأل عما تم فى أمر أرضه التى انتزعت الحكومة ملكيتها لصالح مشروع زراعى عام ، وعما ينتوى أن يفعل بهذا المبلغ ، ونصحه بأن يشترى به عقارا فى المدينة ، لأن الفلاحين وأقاربه فى عزبته هو هم السبب فى انهياره الصحى ... بعد أن أتلفوا له أحد الحقول المزروعة .

ثم سكت ريثما يخرج أدواته المعهودة بعد انتهائه من الطعام ، وهى طاقم التدخين ، وأخذ يضع سيجارته فى المبسم الذى أمسكه بين أسنانه وهو يتكلم :

ـــ أنتم ستكونون عندنا فى الصيف إن شاء الله .. سنقسم الزمن قسمين : قسما نقضيه فى العزبة وقسما نقضيه فى الإسكندرية ... وسترون أن معاملتى لهؤلاء الناس الذين يسمونهم (أقارب) قد تغيرت ، وأننى أفضت عليهم من خيرات الله أكثر مما يحتملون ، لكنهم ...

وتأوه الرجل المتماسك :

ـــ لا يرضون إلا بموتى ...

ثم عاد فابتسم ، وقال بعد فترة موجها الكلام إلى سوسن :

ـــ وستجدين أيتها اليمامة عندنا عشًا حلوا تأوين إليه ... ها .. ها .. ها .. ورحلات جميلة سينظمها لنا (وحيد) .. وملاحات ... هل تذكرين ؟ ! وملاحة من الزجاج على الأقل لتشف عما بداخلها فلا تفسدين طعامك بالتوابل ... اه ... نعم .

وامتدت بهم السهرة ، وكانت سوسن فى حجرة مكتبها شاردة اللب ، فقد أحست هذه الليلة بأن (وحيد) دائما على مقربة منها .

ـ ٢٤ ـ

ولما وصلت الأسرة إلى عزبة محسن بك فى أوائل هذا الصيف ، وانحدرت بهم السيارة على طريق الجزورينا ، أحست سوسن بهواتف العام الماضى تتجمع حول قلبها .

وعند البوابة الكبيرة كان محسن بك واقفا ينتظر فى جلبابه الناصع

الأبيض ، وحوله جماعة من الفلاحين ، ومبنى العزبة الغارق فى الأشجار كان قد طلى حديثا باللون المزهر ، والكلب (لولو) يتودد ، وكل شيء كما هو لم يتغير كأنما لم تمر عليه سنة !

وشمت سوسن رائحة (وحيد) فى المكان ، وهمت أن تسأل خاله لكن الحياء منعها ، وذهبوا إلى مائدة الغداء ، وعدت سوسن كراسيها تحت تعريشة العنب ، وهى فى الطريق إليها ، فعلمت أنه ليس هناك كرسى لوحيد .

ولم تلبث أن قلقت لهذا الخاطر ، ولو أن حديث محسن بك ألهاها عن أفكارها ، وكانت السيدة اعتدال تبدو أكثر سمنة ، وأدنى إلى نساء التجار أو زوجات العمد ، وزادت تحت عينيها الدائرتان البنفسجيتان .. تأكل بلا شهية ، وتتكلم بلا تتابع كأنها شبعت من الحياة .

وبعد نومة الظهر نهضت سوسن فاغتسلت ، ووقفت أمام المرآة فأخذت زينتها فى الوقت الذى كان شكرى يغط فيه فى النوم فى حجرة مجاورة ، ثم خرجت الفتاة إلى أبيها ، وكانت تثب فى مشيتها كأنها فراشة ، وبدا شبابها أكثر تفتحا ، وقلبها أكثر تطلعا ، وفى أعماقها شيء اسمه الامتحان كان ينغص عليها جزءا من لذتها ، لكنها لم تستمع إلى هذا النذير وكان محسن بك يلاعب أباها (الطاولة) فجلست إليهما قليلا ، ثم أخذت طريقها بين الحقول .

ولم تدر لم ساقتها قدماها إلى الممشى المعهود ، إلى المكان الذى وقعت فيه حادثة العقد ، وكان على يسارها سياج يحمى حديقة الفاكهة يمشى على نسق واحد ، كأنه قد بنى من النبات ، ولا يتجاوز ارتفاعه قامة الرجل ، وعلى يمينها حقل فيه ذرة نمت حديثا ، والطريق أمامها منبسط كأنما مهدته يد لمقدمها .

أما أفكارها فقد كانت صورة للطبيعة من حولها فى أصيل شهر يونيو قبيل الغروب حين طالت ظلال الأشجار ، فغرست الطريق بلون أسمر ، وألقت الشمس أشعتها على نوافذ بيت مرتفع فى إحدى العزب ناحية الشرق ، فظهر كأنه يضطرم بالنار . والخضرة يانعة طرية ريا ... ورائحة أزهار الفاكهة التى لم تعقد بعد تفوح مع طنين بعض الحشرات المولعة بمص العسل ...

وأحست سوسن أنها تريد أن ترقص ، وكان الطريق لطوله يبدو عند نهايته ضيقا يكاد جانباه أن يلتقيا ، وقطفت زهرة برية من فوق إحدى القنوات بعودها كاملا ... وكانت تغنى ...

وعند نهاية الممشى رأت ظهر رجل مكب على الأرض ، كأنه يبحث عن شىء قبل نزول الظلام . فى قميص وسروال رمادى كما يلبس وحيد ، ثم ما لبث بعد أن خطا ثلاث خطوات أن عاد فمال إلى الأرض فى البقعة التى فقدت فيها عقدها ، فأحست أن قلبها يخفق ، وكأنها ترى رأى العين موقفها فى الصباح الباكر من الصيف الماضى ، يوم تسللت فجمعت حبات العقد الذى انتثر منها فى الظلام ، وزادت دقات قلبها حين رأت نفسها أمامه وجها لوجه ... ليس فى العام الماضى ، بل فى هذه اللحظة فقد كان وحيد فى طريقه إلى عزبة خاله ، ولطول المسافة التى قطعها مشيا على أقدامه كان رباط حذائه ينحل بين فترة وأخرى فيميل إليه ليعيده إلى ما كان .

ولم تستطع سوسن أن تنبس ببنت شفة ، ولولا مغيب الشمس لرأى دقات قلبها فى نقرة نحرها . ودخل عليها بطريقته المتعجبة ومشيته السريعة وهو يقول :

ــ سوسن ؟ ... ياه ... سوسن ؟ ! طالما سألت الحدائق ، وأنا فى



وقطفت زهـــرة برية من فوق احـــدى
القنوات بعودها كاملا ... كانت تغنى ..

طريقى عن سر سحرها اليوم فأجابتنى بالصمت ...

ثم سكت ، وظلا واقفين ... وجهها نحو الشمال ووجهه نحو الجنوب وأسراب طيور أليفة تمر تباعا فوق رأسيهما ، لم يشعرا بها كانت فى طريقها إلى الأعشاش ، ولم يترك كفها من كفه .. لا بل كانت بين كفيه ، وقد رفعها إليه على مقربة من صدره ، الذى كانت سوسن ترى شعره الكثيف ظاهرا من فتحة القميص .

ولم تكن قادرة على أن تفوه بكلمة ... بكلمة ما ... كأنها كأس قد أترعت فجأة ، ولو كان فتى شريرا وانتظر قليلا حتى هبط الظلام ، ثم قادها إلى خميلة لانقادت إليه ، تلك هى لحظات الضعف فى حياة كل فرد ، فلقد كانت مفاجأة اللقاء أقوى من العصب وأصلب من الإرادة .

وحملق وحيد فى عنقها ، فألفى العقد ملفوفا حوله فابتسم ، ثم ضحك ضحكة عالية ردت الصواب إلى كل منهما ، ثم استدارا راجعين على الطريق .

* * *

ـــ هل تعرفين يا سوسن منذ كم يوما وأنا أنتظركم ؟

فابتلعت ريقها وهى تقول :

ـــ لا ...

فضحك قائلا :

ـــ منذ عام كامل !

وكأنما آلمها أن يتحدث بضمير الجمع . كان يسرها أن يكون السؤال عنها وحدها ... إنها لم تعامل من قبل معاملة ودية جدية إلا من هذا الشاب ، أليس الحب فرصة من الفرص ككل شىء فى الدنيا ، لقد أيقنت أنها تحبه ، ثم عادت فتذكرت أباها الجالس الآن تحت عريشة العنب ...

هل يعلم أبوها بمعنى خفقات قلبها ، وهل يلومها على هذه الخفقات .
قالت فى نفسها : « إن القلوب فى هذا أشبه شىء بالساعة إن توقفت كانت الحياة قد انتهت بالنسبة إليها » ثم رفعت صوتها تقول لوحيد مستكثرة ما سبق أن فاه به :
ــ حقيقة كنت بانتظارنا ؟ !
فوضع كفه على كتفها وهو يقول لها :
ــ فى مثل هذه الأشياء الصغيرة لا تريدين أن تصدقينى ... أوه ... ما بالنا إذن إذا حدثتك عن شىء كبير .
وكان القمر ينهض من الناحية الشرقية ، ودقات طبل عميقة تعبر الأفق آتية من قرى الشمال فى الوقت الذى وضع الفتى والفتاة أقدامهما عند مدخل الجزء الصغير من الحديقة ، المحيط بالمبانى حين ارتفع صوت وحيد بمرحه يهتف قائلا :
ــ خالى ... لقد حضرت إليك الليلة بهدية لا توصف . فخمن يا خالى ماذا تكون ؟
فرد عليه محسن بك ، وهو لا يزال فى مجلسه إلى جوار عزت :
ــ آه يا بنى ... عرفتها ... إنها يمامة ، لكن قل لى : كيف أمسكت بها دون أن تنصب لها شبكة .
وأحس عزت بالفرحة التى تخالط قلب ابنته ، وكأنها شىء ذو رائحة يفوح فى المكان ، وحين كانوا يأكلون البطيخ المثلج كان (وحيد) يحكى قصة انتصار له ، وعن حب مدير المبيعات فى الشركة فيه ، وعن الصفقات المربحة التى ينجح هو فى تنفيذها . وعندئذ قال خاله : « لقد ذهب الدخان وبقيت النار ، وقد كنت قبل ذلك دخانا ونارا يا بنى العزيز » .

ثم استطرد محسن بك : ومن عجيب الأمر أن أمك بدأت تثق فيك ، وإذا ما ذكرت بعض صفاتك الحميدة عزتها فورا إلى إحدى صفات أبيك ... وكأنها نسيت أنها كانت قبل ذلك تفعل العكس .

وامتد بهم السمر حتى وقت من الليل ، وكانت سوسن تشعر كأنها هائمة ، وتسأل وتجيب وتبدأ وتعيذ زاعمة أن ما تحسه قد خفق به قلب حواء منذ الأزل ، منذ لم يكن على الأرض إلا رجل واحد .

كانت تحس أن كلامه يشرب ، وأن صوته يلمس ، وأنه كائن لا تقوى عناصر الفناء على التغلب عليه ، كأنه فكرة حلوة تجسدت في الأذهان على مر السنين . وأحست برغبة رعناء في أن تحرك قدميها تحت المنضدة لتلمس قدمه ... كأنما لتتأكد أن هذا الكائن موجود ... الحلو الحديث ، العذب الصفات الذى تحلو الدنيا في كنفه . وخيل إليها شبابها الفائر أن الجوع إلى جانب الأحباب شيء لا يذوى شجرة الحب ، وأن كل شيء ممكن ما دام الحب موجودا ، وتصورت نفسها زوجته أيام مشروع الحظائر ، وأنه دخل عليها مساء يوم يقلب كفيه ، ويعلن لها إفلاسه ، فخيل إليها أنها لا تستطيع أن تعمل إلا أن تقبل هاتين اليدين .

أما عزت فكان يفكر فيما يفكر فيه الأب والأم معا ، كان يقول في نفسه :

ـــ إذا كان يحبها حقا فلماذا لا يطلب يدها منى مباشرة ، أو بواسطة خاله ؟ إننا نحن الآباء لا نعرف الحب إلا بهذا الوصف ، وخشى أن يكون طبعه المتحرك الأرعن مثل طبع أولئك الذين يحطمون ، ثم يهربون إذا ما وجدوا الفرصة ، وكان يعلم تماما أن الرجال جميعا لا يحبون عرائس الحلوى إلا غير مكسورة ، وحتى التي يحطمونها بأيديهم يتأففون من تناولها بعد ذلك .

ثم سأل الأب نفسه عما عسى أن يكون ابنه تـذري يفعله الآن عند صديقه كامل ، وهز رأسه بأسف فقد منحه الله ولدين كل منهما فى طرف فالابن مغرق فى إحساسه المادى ، والبنت مغرقة فى رهافة روحها ، وقد وقف الأب بين النقيضين . وعاد من جديد يسأل نفسه : كيف إذن خرج هو إلى الدنيا رجلا سويا ، خلت حياته من كل مأساة ! فرأى سؤاله هذا أشبه بالأسئلة التى يطرحها الملاحون على أنفسهم حين يشعرون بدنو الموت على الفراش ... عبروا البحار ، وعاشوا فى الماء ، وغرق كثير من ركابهم ، ثم يلقون هم أقدارهم على الحشايا فى البيوت .

ـــ فيم تفكر يا عزت ؟ !

هتف محسن بك بهذا السؤال فجأة فأجابه عزت :

ـــ فى الدنيا !

ثم عاد إلى أفكاره ، ثم سأل نفسه سؤالا أكبر وأخطر : هل لو سنحت فرصة كاملة ... كاملة تماما لسوسن بنته ، واختلى بها وحيد لأصابها ما يصيب الفتاة من مكاره ؟ !

واشمأز من هذا السؤال ، حتى لكأنه رأى ابنته فوق كل كارثة ، وكان فى هذه الخطفة من الإحساس أشبه بالصبى ، الذى وقع بصره فجأة على والديه المتعانقين ، فخالجه شعور بخيبة الأمل فيهما قائلا فى نفسه « حتى هؤلاء ؟! » .

وعند انتهاء السهرة دخلوا إلى غرفهم ، وأخذ الأب بطريقة لا إرادة فيها يحدث فتاته عن حب أمها فيه على أنها ذكريات ، قائلا لها : أنها ستجد كثيرا منها مكتوبا فى مذكراتها يوم يهديها إليها ، وقائلا لها : إننا كنا فى زمن كان النطق فيه بكلمة الحب لا يجد كفارة .

ولكن هذا الشيء الجميل صورة فنانة رسمتها يد الله ، ثم أودعها

يا بنيتى فى إطار من الضعف ... فى إطار غير متماسك ... كثيرا ما يهوى أحدأضلاعه فتسقط (الصورة) بأكملها .

سألت سوسن :

ـــ لماذا لا أقرأ مذكرات أمى الآن يا أبى ؟

فأجاب الأب :

ـــ لأنه لا يقرؤها إلا الأمهات يا سوسن .

وتنهدت الفتاة .. وأخذ الحديث يفتر بينهما . وقبل أن تستغرق فى النوم قالت لأبيها بسذاجة :

ـــ هل تعلم يا أبى أن وحيد لن يقيم فى الريف إلا يومين فقط ؟ آه ... تصبح على خير .

ورد عليها التحية مبتسما ، وتظاهر بالنوم بعد قليل ، لكنه كان يحس أن فتاته لم تنم ، ثم تناوبته أفكار شتى كان أهم ما فيها أنه فرض أنه أم فأحس بصميم المشكلة ، فلو كان كذلك ما تردد عن سؤالها عن حقيقة ما تكنه لوحيد .

* * *

وفى الضحى كان كل شيء كأنما هو معد لهما ، حين أقبل (وحيد) من قريته ، فوجد سوسن وحدها تحت شجرة المشمش الكبيرة ، جالسة تخطط فى ورقة ترسم أشياء غير محدودة .

كان تفكيرها صورة مما ترسم فإنها لم تنم طول الليل ، وأحست أنها محتاجة إلى البكاء وأنها وحيدة على الأرض ، أحست بالغربة التى يحسها كل من تستولى عليه فكرة لا تشغل إلا باله وحده . وانتبهت على وقع خطواته بمشيته المندفعة ، وإقباله المتودد ، وجلس إلى جوارها كمن لا يحس قلقا . كرجل مارس الحرب فلم يأبه لدوى الطلقات . أما هى

فقد كان قلبها يخفق ، ولم ترفع رأسها عن الورقة . بل صارت تذهب فيها وتجيء بالقلم ترسم أشكالا شتى ، وخصلات شعرها الأسود كجناح الطائر مرة على خدها ومرة على جبينها ، والأوردة الزرقاء واضحة فى عنقها بشكل يثير المشاعر ، ودنا منها يرى ماذا تعمل ، فشمت رائحة ذكرتها بموقف الوداع فى العام الماضى على محطة السكة الحديد بالأغانى والدفوف ، فزاد قلبها خفقانا ، وكادت تدفعه بكوعها لكن النشوة الأولى عادت فغمرتها .. نشوة حب لإنسان ظلت تفكر فيه طول الليل ، وكان أهم ما يشغل بالها هو « هل لاقى وحيد مثل هذا الموقف فى ليله الماضى ؟!» .

وجاءت السيدة اعتدال فسألتهما عن الحال ، ثم دارت على أعقابها وعادت لأعمال البيت . وكم ودت سوسن أن تظل خالتها إلى جوارها على الرغم من شوقها لاستطلاع العالم الجديد ، وانجلى الموقف عن صوت وحيد يقول لها : « سوسن » .

فنظرت إليه فإذا به يكتم ابتسامة .. ولم يسألها أين خاله وأبوها ، لأنه علم من أحد الفلاحين أنهما قد ركبا منذ قليل ليعزيا فى عزبة الاستانبولى وأمامهما فترة من الوقت .

ونظرت إليه فرأى الوجد فى عينيها ، وأما هو فقد كان فى نظرها كأحد عمالقة التاريخ .. هكذا رأته !!!

وكانت الابتسامة العذبة لم تغب عن شفتيه حتى هذه الوهلة ، ومن الغريب أن الأسى كان يخالطها كمن يكتم هما يتردد فى شكواه ، لكنه نظر فى عينيها مباشرة وقال لها مرة أخرى :

ـــ سوسن .. هل تعرفين إلى أين تذهب أيامنا ؟

فسألت وهى مطرقة :

ـــ أيام من ؟

ـــ أيامى وأيامك وأيام كل الناس .

فردت بشيء من المداورة :

ـــ الليل يوصلنا إلى النهار والنهار يوصلنا إلى الليل فأيامنا يضيع بعضها في بعض .

وابتسمت كأنها محصورة .. حين بدت التجربة منها قاب قوسين أو أدنى ، لكنه كان قد اتكأ بكوعه على فخذه ، واتكأ بخده على كفه ودنا منها أكثر ثم قال لها :

ـــ إننى لا أحسب الأيام بالشمس والقمر يا عزيزتى .. إننى أحسبها بشيء آخر .. أحسبها بالوزن والذكريات ولو صنعت عمرى لجعلت منه شيئا متناسقا تناسق اللحن في السمفونية .

ثم سكت وهو يحملق فيها فإذا لونها شاحب كالمريضة ؛ وأحس بشوق عظيم إلى أن يحتضن هذا الكائن الذى بدا كأنه طيف ، وبنزعة من نوازعه الكثيرة ، مد يده فأمسك كفها فأحست حرارة يده ، ثم أخذ منها القلم والورقة ، وضعهما على كرسى ثالث فبدا الإذعان على ملامحها ، وتلفتت حولها لترى هل يرقبهما أحد ، وحضرها كلام كثير كانت تنساه عندما تلتقى عيناه بعينيها ، كانت تحس بنزعة التوحيد بينها وبين هذا الإنسان ، وكانت التجارب الدامية التى مرت ببعض من سمعت عنهن أشبه بحلم لم تبق إلا آثاره .. وهو على وشك أن ينسى ، ومن هذه الغمرة أفاقت على صوته يقول : أليس من الممكن أن نتمشى في الحديقة ؟

وأخذ بيدها مرة أخرى فنهضت ، ومن هذه اللمسة أحس وحيد أن زمامها قد انقاد ، وسارا جنبا إلى جنب على طريق ضيق مواز لطريق الجزورينا متجها نحو الجنوب يفصلهما عن بقية المزرعة السور البنائى ذو

الأزهار الوحشية ، والذى غرس بجواره الشجر ، وكان المار على الطريق لا يستطيع أن يرى من بالحديقة لكثافة الأغصان فأحسا أنهما بمعزل عن الناس ، وأن أى كائن لا يستطيع أن يلج عليهما هذه الوحدة .

ثم بدأ وحيد يتكلم بلهجته الحلوة ، ولما بدا الكلام جادا تذكرت مزاحه فى الليالى الأولى من الصيف ، ووازنت بين الشخصيتين فأعجبها أنها ترى فيه ألونا مختلفة ، وكان يقول وهو يمشى إلى جنبها :

ــ كنت أقول لك إننى لو صنعت عمرى لعملت منه شيئا متناسقا ، لكن هذا التناسق يحتاج دائما إلى (محور) والعلة فى حياتى يا سوسن أننى أفقد (المحور) .

ثم أخذ بيدها يعينها على عبور إحدى القنوات ، واستطرد بعد ذلك : وإذا كانت العلة فى أبى هو أنه كان متلافا ، والعلة فى أمى أنها سيدة بخيلة ، فإن العلة فى أننى أعمل أحيانا أشياء ما دبرتها ولا أدخلتها فى حسابى ... تنجم هكذا فجأة فأنفذها ، ولا يستطيع أحد أن يثنينى عنها .

فنظرت إليه الفتاة نظرة ذات معنى قائلة له :

ــ لكن ... ألا ترى أن ذلك يكون مخيفا فى بعض الأحيان ؟؟

فابتسم وألقى نظرة على الأشجار المتكاثفة ، ثم ألقى نظرة على (الطيف) الذى يمشى إلى جواره فوجدها فى طهر الملائكة ، وتذكر فى وهلة شهواته وبدواته فوجد كلا من الفكرتين بمعزل عن الأخرى ، وكأن سوسن أمام عينيه إحدى العرائس التى صورتها الأساطير على قمم الجبال أو خضرة المروج ، وتنهد ورد عليها :

ــ إنك محقة فيما تقولين . لكن لا تخافى يا سوسن . ماذا كنت أقول فقد أنسيتنى .. آه .. كنت أحكى عن بدواتى ونزواتى التى صنعت

فى حياتى مفارقات وفجوات أرجو أن يرمها القدر . فمثلا بعد أن أخذت التوجيهية رغبت فى كلية البوليس ، وكنت أحد الذين وقع عليهم الاختيار ، ودخلت . وفجأة ذات صباح وجدتنى أقدم استقالتى لأهرب مما حسبته سجنا .

إن الحياة الرتيبة تقتلنى ، وقد كادت تفعل بى ذلك ، وصخب أبى وبكت أمى على النجوم التى رأتها بعين خيالها تلمع على كتفى ، لكننى لم آبه لشىء ، ودخلت كلية التجارة ، ولما تخرجت كما تعلمين عينت موظفا فإذا بوزنى يزيد من الجلوس والجوع كل شهر أربعة كليو جرامات ، وفجأة استقلت فصرخت أمى ، وأقدمت على مشروع الحظائر وأنت تعلمين ما جرى فيه ... وغير ذلك من حياتى اليومية ، فمثلا كنا فى رحلة فبدا لى أن أقطعها فجأة وضحيت بكل النفقات التى دفعتها لأرى معالم الوجه القبلى فى الشتاء ؛ وأخرى بدا لى أن أغازل صاحبة البنسيون العجوز . ومرة سرقت نقود أحد المتسولين .

ثم سكت وحيد ، وكان على سوسن أن تقول شيئا فما كان منها إلا أن قالت :

ــ لكنك على كل حال شخص لا تخلو من العذوبة ...

فقاطعها مسرعا :

ــ لا .. بل إننى محتاج إلى شىء حقيقى هو المحور كما قلت لك . وليس العثور على المحور بعمل سهل . فإننا فى بعض الأحيان ننظر إلى هذا الوجود كله على أنه فوضى لا محور له ..

ثم أطرق نحو الأعشاب النامية على قناة ، ثم قال لها وهو يقترب منها لكن بصوت خفيض كأنما خشى أن تسمعه الأشجار :

ــ إن أهم شىء فى يا سوسن .. يا عزيزتى .. هو قلبى .

فأجابت وقد احمر وجهها :

ـــ يبدو أنها فى الطريق الآن .

فابتسم متأسفا :

ـــ نزواتي ؟ ! إنك لا تتصورين مقدار الضياع الذى أحسسته فى حياتى طوال العام الماضى ـــ إننى أحسد المرضى والشيوخ على أن الذين لا تعذبهم إحساساتهم حيوانات ، وقد لا تدركين مدى السعادة التى تحدث حين تمتزج روحان فى بعضهما امتزاج العطر بهذه الزهرة ..

ثم سكت ونظر إليها وسألها :

ـــ لماذا لا تقولين لى شيئا ؟ !

وفى الوقت الذى كانت هى صامتة فيه كان قلبها يطفح بحسرة لا توصف ومخاوف الحب تنغص عليها ملذاته ، وتذكر الليالى التى كانت كلمات أبيها تأتيها فى فراشها مضيئة فى ذهنها كأنها سهام ملونة وهو يقول لها : « أوله قلق وكأسه دموع .. وأبقى ما فيه أن يحتفظ الحبيب بشيء يقدمه لحبيبه كلما ظن أن زاده قد نفد » . وتذكرت تلك التى « زرعت فى حديقتها بطيخة كانت تكبر مع الأيام ، حتى إذا كشفتها أمها وقعت الكارثة » ..

قالت له ، وهى تتلفت فى الظل الداكن الذى رماه الشجر على أعشاب الأرض :

« يجب أن نعود » . وبينما هى تثب عابرة إحدى القنوات اعترضها غصن فطرف عينها فتأوهت فأقبل عليها بلهفة ينظر فى وجهها فلفحته أنفاسها ، ورأى شفتها السفلى وقد عراها شيء من التشنج ، ووجهها الطيب الذى شحب قليلا فبدا كوجوه الراهبات ، ولمست أصابعه على غير قصد ذؤابة من شعرها الأسود . وكانت هى واضعة منديلها على عينها

تكفكف به الدموع التى انهمرت بغزارة فقال متشائما :

ــ هل تبكين ..

فقالت وهى تتأوه :

ــ لا !

ــ إذن فهل أصاب عينك مكروه ؟ .. دعينى أراها .

ثم أردف ضاحكا :

ــ وثقى أننى لن أجد فيها إلا السحر .

وأحست بذراعه حول عاتقها ، ورأت بعينها الأخرى جسمه وهو يقترب منها ، ثم أحست بأنفاسه وهو ينفخ على المنديل فينفذ الدفء إلى عينها ، مثل كمادة من الماء الساخن . وفى الزمن الضيق التى يفصل بين وهلة الإحساس المجرد ووهلة الحكم وقعت قبلة على خدها انتفضت لها فبكت . وتمتم وحيد قائلا :

ــ يا إلهى .. يا سوسن .. لا شك أن هذه إحدى نزواتى ، أرجو ألا تغضبى منى فإننى أحبك .

على أنهما ما لبثا أن استدارا راجعين فى صمت ، وقطعا الطريق بسرعة ليعودا إلى مكانهما ، وقبل أن يصلا إلى هناك سمعا صوت رجل غريب كان يتكلم حتى إذا وقع المكان تحت أبصارهما رأيا عزت جالسا يتلفت ، ومحسن بك مسلما رأسه لحلاق يقص شعره وهو يثرثر بصوت عال .

وهتف محسن بك حين رآها :

ــ أين كنت أيتها اليمامة .. لقد سألنا عنك كل الطيور عند عودتنا .. وهل أعجبتك طراوة الحديقة ؟ !

ثم نظر إلى وحيد وكأنه رآه فجأة فقال له :

ــ أنت هنا .. كان من الجائز أن أعود فأعلم أنك سافرت .. هل سمعت .. إن الأسطى الحلاق يردد إشاعة حلوة مغزاها أن أقاربى يقولون إننى سأوصى بكل أملاكى لأبناء أختى .. ها . ها . ها . ها .. سبحان من يرث الأرض ومن عليها ، ألا تعلم يا أسطى أننى أعطيتهم من أرضى كل القطع المتفرقة ليزرعوها بلا إيجار .. لكنهم يريدون فروة الثعلب ، وفروة الثعلب لا تنال إلا بذبحه .. آه ..

أما سوسن فقد جلست فى انطواء وأثر دموع فى عينيها ، وشحوب وحيرة وشعور بالذنب يلون وجهها بالبياض ، والأب ينظر ولا يتكلم ، ووحيد يقول لخاله بلهجة دلال :

ــ والله لقد أوحشتنى منذ البارحة يا خالى ..

ــ ٢٥ ــ

حين جن الظلام ، وانتهت السهرة التى حاول عزت فيها أن يكون غير مهموم ، وأوى إلى حجرته ذات الفراشين هو وفتاته سأل نفسه : هل من الممكن أن يفرض الأبوان حراسة علي أبنائهم ؟

وكان الجواب بالنفى . فهمس وكأنه يخاطب نفسه : إذن فالمشكلة هى الضمير .. نعم .. ونحن فى أيام لم نعثر فيها بعد على تعريف لكلمات الحرية حتى بالنسبة إلى أبنائنا فى سبيل تربيتهم . وتنهد .

وكانت سوسن مستيقظة تستعيد فى ذهنها حوادث ليلة العقد فى الصيف الماضى ، ثم حوادث النهار المنصرم ، وودت لو أن أباها عاتبها .. بل ودت لو أنه عاقبها ، لأنها تتحمل كل شىء إلا أن يغضب عليها لأنها تحبه .

وهنا خفق قلبها لأن سؤالا نجم فى رأسها : هل من الممكن أن تحب رجلا آخر أكثر من أبيها .. وبذلك تدوس رضاه فى سبيل رضا الآخر ؟

ووجدت هذا ممكنا ، لكنها استكثرت وقوعه ، وكادت تهتف : مستحيل .. مستحيل .

وكان الأب يعلم أن (وحيد) ينام فى الحجرة المجاورة هذه الليلة ، لأنه أعلن لخاله أنه مسافر غدا .. فى قطار الفجر ، وأنه حين يبيت فى العزبة يكون أقرب من المحطة مما لو بات فى القرية ، وهذه الحجرة التى ينام فيها هى التى كان شكرى يشغلها فى العادة .. شكرى الغائب حتى الآن عند صديقه كامل .

وكان الأب متأكدا أن علاقة ما قد قامت بين الفتى والفتاة ، ولكنه كان يحس ـــ حين يتصور خطرا مقبلا عليها ـــ أن مشرطا غير معقم سيشق أغلى جوارحه . وجسم له خياله سوسن وهى جاثية عند قدميه تبوح له بأقسى الاعتراف فهتف فى سره قائلا :

« زينب .. أين أنت يا حبيبتى ؟ ألا ترين أن هذا الحمل خلق لأجل أن يحمله اثنان ؟ » .

وكأنما اشتدت حرارة الجو الخانق الرطب . ونظر وهو راقد عبر النافذة فرأى الأشجار قائمة فى الظلام ، كأنها أشباح خرافية ، وسأل نفسه سؤالا جديدا لأنه كان سوداوى المزاج :

ولماذا يبيت على مقربة منها ؟ أنا أومن بالحب إيمانى بالترياق .. نعم بالترياق الذى يؤخذ من أخطر السموم ، وأخشى أن تكون يد سوسن جاهلة فتجرع السم كله على أنه ترياق . نعم ، وأنا رجل وأعلم طبيعة الرجل ، إن الهاربين منا من تبعات الحب أكثر بكثير من الهاربات منهن . وهن أكثر منا شجاعة وإن كن يحملن أثر الخديعة » .

وتنهد . ثم استمرت أفكاره ..

« فليتنى أستطيع أن أمنحك الترياق يا بنيتى ، وأنجيك من السموم » .

وكان الصمت سائدا ، وخيل إليه أنه يسمع دقات على الحائط الملاصق لسوسن ، والذى يفصل الحجرتين بعضهما عن بعض ، كان خياله فى هذه الليلة مشبوبا متأهبا لأن يتمثل أى شىء ، لأن شحوب سوسن ساعة خروجها من الحديقة كان شيئا لا يوصف .

واستمر فى تفكيره ..

« وأكبر أخطاء الفتيات أن العطية الأولى منهن سبب هام للعطية الثانية ، فى سبيل الاحتفاظ بالحبيب .. يا إلهى .. ماذا أريد أن أفعل ؟ ليت شكرى كان حاضرا هذه الليلة ليحس وقع بعض هذا الألم على نفسه .. أنا أريده أن يتألم فقط ، لا أن يفعل شيئا لأنه ليس مشغولا إلا بشهواته » .

ــ سوسن .. هل أنت تبكين ؟ ..

ثم قال برقة نوعية :

ــ هل ذكرت أمك أم أن حشرة من الحشرات المولعة بالعسل لسعتك وأنت فى الحديقة ؟

فارتفع بكاؤها ، وكثيرا ما تكون دموع الندم على الصغائر مضللة حتى تحمل على الظن أنها تذرف من أجل شىء عظيم .

وآثر عزت أن يسكت .

أما الفتاة فقد كانت تود فى أعماق نفسها أن يجبرها على أن تقول له الحقيقة ، فإنها أقل ألما من الوهم الكبير ، وكان هو من الناحية الأخرى نائيا عن كثرة اللجاج ، لأنه كان يعلم أن الضغط كثيرا ما يولد اعترافات

لا أساس لها .

وأصبحت المشكلة فى نظر الأب ليست مشكلة الحب ، بل مشكلة الخداع فهو يؤمن أن المشاعر الطيبة تبقى غذاء لأرواح أصحابها إذا ما انقلبت إلى وحوش أكلتهم من الداخل . وأحس كأن الفتاة قد استغرقت فى النوم وكانت تشهق بين فترة وأخرى كطفلة أجهدها البكاء ، وأخذت أفكاره الفائرة تهدأ فود من صميم نفسه لو أنه زفها إلى من تحبه ..

وتذكر خفقات قلبه ولحظات الضعف التى تنتاب حتى الكبار ، والتى أنتابته هو شخصيا فى بعض المواقف فتنهد وتحير ، وهنا سمع صوتا مشروخا يناديه فى الظلام :

ــ بابا .

ــ هل لا تزالين مستيقظة ، أرجو ألا يكون عنك ما ينغص راحة بالك ...

فأجابت بحنان مغلوب :

ــ هناك يا بابا ...

فخفق قلبه كأنه سمع نذير القيامة ، واستمع فإذا بها تهتف :

ــ هو أن فى نفسك شيئا منى ، وليس هناك حشرة لسعتنى ، وأنا فى الحديقة ، ولكن أحد الأغصان طرف عينى وأنا أثب إحدى القنوات .

فعلق بسرعة وبلهجة مزج فيها الجد بالتعريض

ــ كفاك الله شر ما يبكيك .

فهتفت :

ــ أنا لم أعد صغيرة يا بابا ... لقد فهمت من الحياة أشياء لا بأس بها .

ـــ إن الذين يتعرضون لأخطار الطريق وهم يعبرونه ، يحفظون قواعد المرور عن ظهر قلب .

وأرسل ضحكة خفية ، فقالت الفتاة :

ـــ عندما تقول لى : كفى عن المشى فلن أتحرك من مكانى ... إننى مخطئة فى نزولى معه لكننى لا أدرى لماذا ... لماذا أخطأت .

ـــ إن حبى فيك يجعلنى أخاف عليك ، فهل حبك فى عاجز أن يجعلك تخافين على ؟ ... يعنى على اتصال روحى بروحك ؟

فقالت بهمس ورقة :

ـــ إنك أنت المثل الأعلى لكل رجل فى نظرى ، وأنت دائما معى حتى فى فصول المدرسة .

فضحك وكأنه عثر على نهاية طيبة للموقف ، فلم يشأ أن يفلتها وقال لها :

ـــ إنه ليس أنا ... إنه ضميرك . وكثيرا ما يتنكر (الضمير) فى صورة شخص ما يا سوسن ، فهو بالنسبة إليك متنكر فى زى أبيك ، وبالنسبة للزوجة الخائنة يتنكر فى صورة من يتجسس عليها ، وبالنسبة للذى اكتسب مالا حراما مثلا يتنكر فى صورة كارثة على وشك أن تقع . وعندما تقرئين مذكرات أمك تعرفين أن حبنا نما بعد الزوجية ، كما يشب الغرام ؛ لأنه قام على اعتبارات لا تقبل التأويل ، وأسوأ أنواع العلاقات بين الفتى والفتاة ... هل تسمعين . حسبتك نمت ؟

ـــ إنه استغراق الاستماع إلى ما تقول .

ـــ أسوأ أنواع العلاقات هى ما تنتهى بتبادل الاتهامات ، عندما يشعر أحدهما أنه كان فريسة للآخر ، ومن الممكن أن يترك الآباء أبناءهم يكتسبون تجاربهم وحدهم لكن لن يكون معنى ذلك إلا زيادة عدد

الضحايا ... الضحايا ... نعم .

وسكت قليلا ثم أردف :

ـــ آه ... وقد أحسست اليوم بقلق كاد يصيبنى بالمرض ... وذلك لأن (شكرى) لم يعد من عند صديقه ، وأيضا لا أكاد أجد من أشكو إليه همومى سواك يا سوسن ، ولست أدرى لماذا وضعك الله من نفسى مثل هذا الموضع المقدس ...

ثم أردف وهو يضحك :

ـــ ولست أدرى لماذا أهملت أنت منذ أيام تنسيق هندامى فى الصباح عندما ألبس ؟

وتأوه ...

ـــ إن روح أمك الطيبة تمرس فضائلك ... وليس الإنسان فى نظرى سوى حيوان ابتكر (الفضيلة) يا بنيتى ، فإن أهمل ابتكاره عاد إلى حيوانيته ... آه متى أعود إلى القاهرة ؟ ... إنها أوحشتنى ... تلك التى حبها لم يسبب لى قط ، فهل تعرفين هذه الحبيبة ؟

ـــ أمى .

ـــ نعم إنها هى . وهى خير اسم يختم به الحديث بيننا ... أفلا تريدين أن تنامى ؟

وتركها مفعمة القلب وسكت ، وغطاهما الصمت الذى غطى الحقول فى الخارج ، وفى الحجرة الأخرى كان وحيد يتقلب من جنب إلى جنب ، ويسأل نفسه : هل التى يفصل بينه وبينها الجدار قد نامت ؟ » ثم ما لبث الثلاثة أن ناموا حتى استيقظت سوسن على وقع خطوات فى البهو الخارجى فى الطريق بين دورة المياه وحجرات النوم ، فأدركت أنها خطوات وحيد ، وأنه يغتسل قبل أن يغادر المسكن ، ثم سمعت غناء خافتا ينبعث

من ناحية الحديقة كان صادرا من الشباك المفتوح فى الحجرة المجاورة ، وكان غاية فى البعد كأنه آت من إحدى القرى ، فشعرت كأنه كلمات وداع مع نسيم السحر ، وعلى الرغم من نقمتها عليه فإن قلبها قد خفق وتذكرت قول خاله عنه إنه أرعن خفيف الظل ، فماذا أحبت فيه منهما ، ونظرت عيناها فى الظلام نحو أبيها النائم ، ولمقدار وهلة كأنها طرفة عين أحست أنه غريم ، فخفق قلبها كأنه يعاتب نفسه ، وطفرت من عينها دمعة ، فقد جربت معنى الحيرة فى تلك اللحظات ، ثم ساد سكون أعقبه فتح باب مجاور ؛ ثم وقع خطوات كأن صاحبها ينبه إلى خروجه فى البهو الخارجى ، وانفتح الباب العام وأغلق فنبحت كلاب العزبة ورد عليها من الداخل الكلب (لولو) بلهجة قصيرة النبرات .

وكان الأب قد استيقظ على كل ما فات ثم نام . أما سوسن فلم يلمس النوم جفنيها إلا بعد أن سمعت صفير القطار الذى سافر فيه (وحيد) من المحطة الريفية فتنفست الصعداء ، لكن بحزن وشوق ، ثم هتفت فى سرها :

ـــ مع السلامة ...: ليتنى لا أراك بعد ذلك .

هل كانت صادقة ؟

ـــ ٢٦ ـــ

ـــ « مرحبا أيها الغريب . هأنتذا قد عدت أخيرا » .

ورد شكرى على أبيه بلهجة خالية من الحماسة ، فقد كان كالمسافر الذى أجهده السير ، وكان الجو المخيم على الإقامة جوا ثقيلا ، فلم تكن سوسن قد أفاقت بعد من غمرة ما أصابها من حب ، منزوية وحيدة على مرمى البصر تحت إحدى الأشجار تقرأ فى كتاب ، وقد سألها شكرى

حين ذهب إليها ليسلم عليها عما إذا كانت مريضة .

أما محسن بك فقد كان يعمل بأدواته كلها : سبحته القصيرة ، والسجاير والمبسم والمذبة ، وكان مطرقا لا يبدو عليه المرح كمسرح تعطلت عليه الحركة ، وكان سر ذلك أن أحد الفلاحين حمل إليه نبأ عن أقاربه بأنهم يدبرون له انتقاما قد يكون إتلافا لأحد حقول زراعاته .

أما عزت فقد كان مستغرقا فى تفكير أغرب ، هو مدى تحمل ابنه شكرى للمسئولية من بعده لو قدرت له الوفاة ، وماذا عسى أن يصيب سوسن معه ، إن شكرى لا يدين إلا بكل ما يصيب إحساسه باللذة أو بالألم ، ولما نجم فى رأس الأب سؤال عما عسى أن يربطه حتى الآن بصديقه كامل لم يجد بدا من أن يقول له :

ــ وكيف حال كامل ؟

فبدت الابتسامة العريضة على شفتى الشاب حتى وازت ذقنه العريض ، ثم قال له وهو يرفع كتفيه .

ــ فى حالة لا يحسد عليها فى الحقيقة .

ــ وكيف طاب لك المقام هناك إذن ؟

ــ كنت أقضى معظم أوقاتى مع بعض أصدقائه هو .

ــ الخليين من الهموم ؟ .

فأجاب بخجل :

ــ نعم . أما هو فلقد حوله الحصار الذى يعيش فيه إلى مقاتل مؤمن .

فقاطعه الأب قائلا :

ــ طبيعى . فالمسئوليات قد تحول النفوس الضالة إلى نفوس أبطال ، كما تخلق الأحمال الثقيلة بمرور الزمن من اللحم عضلا .

وضحك مردفا ... .

ــ لكن ... ليس كل النفوس .

فاحمر وجه الابن قليلا ، ثم أجاب :

ــ لقد اكتشفت على كل حال أنه استجار من الرمضاء بالنار ، فإن الأسرة التى صاهرها لم تزف إليه عروسه بعد ، وبدأت ترهقه بنفقات ما كان يتوقعها ، ولعلها قد خافت من المشاكل ، وقد عرفت أخيرا أن هذه الأسرة تقرب لامرأة أبيه ، وأن هذه المرأة هى التى تغذى الإحن فى قلب كامل ...

وابتسم شكرى مستطردا ...

ــ ولقد دخلت عليه مرة فوجدته مستغرقا فى صلاة ، لو كنت أنا إلها لتقبلتها منه .

فنظر إليه محسن بك ، وهو ينفخ الدخان ناحية وجهه ، وهز رأسه قائلا له :

ــ ستجد يوما من الأيام شيئا تؤمن به يا بنى ... ستجد يوما من الأيام شيئا تؤمن به يا بنى ... لكن ... قل لى : هل وجدت فرقا كبيرا بين الريف عنده والريف عندنا ؟ .

ولم يجب عن سؤاله لكنه قال :

ــ إن الذى يهمنى هو أن أشرح لبابا غاية ما وصل إليه كامل : إنه فيما يبدو وقد بلغ الإحساس عنده قمته : بالنسبة للحوادث التى يعيش فيها ، فهو شاب يتصور الموت فى كل لحظة ، فالليل عنده ستار يتوارى فيه قاتله ، والنهار نور يراه فيه ، فهو لا يستريح لا بالليل ولا بالنهار ... لذلك فإننى رأيته صامتا صمت من قرر أن يفعل شيئا .

فسأل الأب :

ــ لماذا لم ينزح عن الريف ويستريح ؟

فقال محسن بك ، وكأنما كان اللوم موجها إليه :

ــ إن الطيور تعرف قيمة أوطانها على قمم الأشجار يا حبيبى ...إنه المكان الذى فيه العش ، والتى نبتت فيه مع الأيام الباكرة من عمرنا ذكريات عزيزة ، وسكان الغابات يغالبون الأسود والثعابين عن وطنهم فلماذا لم يجلوا عنه ... آه ...

وتنهد محسن بك واستطرد :

ــ على أنك تعرف قيمة ارتباطنا بالأرض ، وأنت الريفى الصميم .

وأطرق عزت نحو قدميه ، ثم رفع رأسه ونظر نحو الجنوب فألفى سوسن منحنية على كتاب فناداها .

كان قد مضى أسبوع على سفر وحيد ، وكانت حالها لم تتغير ، وبدا إحساسها النفسى يتحول إلى إحساس جسمانى ، فكانت تشكو الصداع ، وأحيانا تشكو فقدان الشهية ، ولم تشك الأرق لأبيها .

ولكنه كان يحسه فى بعض أوقات الليل .

وحملق فيها الأب ، ثم وضع كفه على عاتقها بحنان فلمس ذوائب شعرها الحالك ، وقال وكأنه يوجه الكلام إلى الجميع :

ــ أنا أراك بحاجة إلى طبيب يا سوسن ، فضلا على أن نتيجتك على وشك الظهور ... وقد مضى علينا هنا أكثر من خمسة عشر يوما فهل توافقونى على العودة إلى القاهرة ؟

فقال محسن بك ، وكأنه يعتذر عن ذنب :

ــ إن أيامكم هنا لم تكن فى رونق العام الماضى ، كان القلق مسيطرا على معظمكم ، فهل هذا راجع إلى ضيافتنا أم أن الأيام نفسها قد فقدت شيئا من مقوماتها ... آه ... أمركم .

وكان كان فرد من أفراد الجماعة مشغولا بمشكلة خاصة ، فلما فقدوا

الروح العام الذى لو ربط الملايين لجمعهم فى ميدان ــ لم يستطع بضعة أشخاص أن يظلهم مرح الصيف الماضى . فعزت يناوشه قلق على ابنته ، فضلا على حنينه إلى القاهرة ، أما شكرى فنحن نعرف ميوله ، وسوسن فقد أصبحت معالم الأرض والحديقة والأفق والليل تذكرها بحب يخالطه الخوف ، شبهته ذات ليلة برحلات الصحارى أو الغابات التى يكتب فيها الضلال لبعض الناس ، فيوغلون فى السير طالبين النجاة ، وهم كلما أوغلوا بعدوا وبعدوا عن الطريق .

قالت فى نفسها : فخير ما يفعله التائهون إذن أن يقفوا عند أول نقطة ضلوا فيها .

ثم إن هناك ما يثقل ضميرها ... كيف تبوح لأبيها بسر الخطأ الذى وقع ... هل تقول له إنه قبلها ؟ ! ثم قالت فى نفسها « كأن أبى يعرف كل شىء » . هكذا خيل إليها كلما رأت نظراته .

أما محسن بك فقد كان يود السفر إلى الإسكندرية فقد سئمت أعصابه الإقامة بين المشاكل والوشايات ، ولما لم يجد السعادة المنشودة قد تحققت لمن حوله فقدها هو بالتالى .

لذلك قرر عزت السفر بعد يوم ، وبعد أن أعلن هذا على المجموع أحس براحة تملأ نفسه جعل يعللها ، فأرجعها إلى سبب ظاهر هو الفرار بينته من وجه تجربة قد تكون خطيرة ، والاستعداد لما قد يكون من رسوبها فى الامتحان ، وبخفقة قلب أحس معنى آخر جديدا وسببا خفيا لراحته ، هو أنه سيراها ... سيرى فاطمة وهدان ؛ وتلتقى عيناه بعينيها النقيتين ذواتى الأهداب المهوشة ، وسيسمع نجواها التى تذيب همومه ، وإن بثته بعض همومها .

وأحس بشىء من الخجل ، حتى لكأن سوسن أحست نجوى نفسه ،

فألقى نظرة على الجمع الذى كان يسوده سكون ، وقال فى نفسه : لو رأينا أبناءنا من خلال أخطائنا لوجدناهم فضلاء ... لكن هذا هو المطلوب ، فقد قرأت قصة مومس منحت بنتها حياة طيبة لأنها لم تر بنتها قط من خلال رذائلها الشخصية .

وسكت عزت لتستمر أفكاره : وهل علاقتى بفاطمة وهدان خالية من الشوائب ، إذا حاسبنا قلوبنا على مجرد الميل ؟ ثم هتف بصوت سمعه الجميع :

ــ محسن بك ... هل لك فى لعب عشرة طاولة ؟ !

ــ مرحبا ... مرحبا بك .

* * *

ثم عادت الأسرة إلى بيتها فى العاصمة ، وفى الليلة نفسها قبل أن ينفض غبار السفر عن الأثاث والشبابيك طرق الباب مستأذنا الأستاذ بكير ، ورحب به عزت بحبه الهادىء وطبعه اللطيف ثم جلسا ، وأخذ بكير يفرك كفا بكف ، ويهز رأسه كالآسف ، ويتحدث عن أشياء مبهمة فى صورة حكم قائلا مثلا بين مناسبة وأخرى : .

ــ لا بد أن تحتمل الحياة هكذا يا بيه .. إنها جرعة من زيت الخروع صبت على عصير البرتقال .

ويبتسم ويضحك ضحكة ذات صوت لكنها خالية من الروح . وأحس عزت أن شيئا ما يكدر حياته . ولاحظ أن لونه الزاهى الأحمر ، كان فيه بقع بيضاء كأنه رسم من تلوين (الماء) بقعته يد الطفل ، وكأن فى عينيه المنتوفتين أسى وحاجة إلى النوم ، وهم أن يسأله عما به فتحرج ثم عاد فقال له :

ــ هل أنت فى حاجة إلى أى خدمة أسديها إليك يا أستاذ

بكير ؟ ! ...

فرد عليه فى إخلاص الصادق وسهوم المهموم :

ــ لا ،لا ... شكرا ، جئت لكى أراك فقط .

ــ وكيف حال السيدة سوزان ؟

ــ إنها غائبة لمدة يومين أو ثلاثة ، فمدير الشركة فى سفر هام لبعض الأعمال وقد صحبها معه . إنها روحه ... أقصد روح العمل ، ولا بد أن تكون فى صحبته ليقوم بعمله على أكمل وجه .

فهز عزت رأسه وقال بعدم حماس :

ــ حسن .

فرد بكير كأنه يوضح أمرا وهو يفرك كفيه :

ــ ضرورات يا عزت بيه . إننى أعيش أنا وابنى والخادمة . وقد سهرنا ذات ليلة أنا وسوزان نريد أن نصفى هذه المشاكل بإخلاص فلم نجد لها حلا ، على أننى ...

وأطرق وسكت ، وتجمدت على قسماته الحركة كأنه مسحور ، واحمر وجهه حتى أصبح فى لون الطماطم ، وكذلك قفاه ثم عاد فاسترد لونه العادى وقال :

ــ إن الغيرة تخامرنى أحيانا ، لكنى أصبحت أنظر إلى الموضوع نظرة رجل عصرى لم يعد أحدنا قادرا وحده على تحمل أعباء البيت ، ولو أن معظم ما تصيده سوزان من البحر تعود فتلقيه فى البحر ، إنها كثيرة النفقات وأنا وابنى فى الحقيقة محتاجان إليها يا عزت بيه .

فقال يطلب المزيد :

ــ نعم ... نعم .

ــ هاجمنى فى غيابها مغص كنت أعض الوسادة من شدته ، وأدخل فى

شبه غيبوبة فأفيق ، فأرى جميلة قد أخذتنى بين ذراعيها والطفل يبكى على مقربة مني ... وعند الصباح تذكرت هذه الحوادث وكأنها كابوس .

ـــ نعم ... نعم .

فاستطرد وقد هزته الذكريات وهو يشير بسبابته :

ـــ عندما كنا نرسم زوايا عش زوجيتنا كنت أحس أننى أضع تخطيطا للجنة ، وكنت في نشوة لا توصف ، ولكننى أدركت اليوم أكبر خطأ وقعت فيه .

ـــ هو ؟ !

ـــ أننا أنجبنا طفلا ، والثانى فى الطريق ، إن أحسن طريقة لمعيشتنا هى أن نعيش كعشيقين لا ينبغى أن تتحول ثمرات لقائهما إلى مخلوقات أبدا ... فلا داعى لعذاب الناس .

وتعجب عزت وهو ينظر إلى السجادة ، كيف أن مثل هذا الرجل الساذج المظهر قد أدرك كل هذا ، ثم عاد فقال فى نفسه : لا بد أن هناك أسرارا أخرى يكتمها هذا الإنسان ، ولا يستطيع أن يبوح بها ، لكنه جعل يسرى عنه بأحاديث شتى حتى أفاق من همومه وعاد يضحك ملء شدقيه . وقبل أن تنتهى الزيارة مال بكير على عزت يهمس فى أذنه كأن أحدا سيسمعها :

ـــ هل من الممكن أن تقرضنى خمسة جنيهات لموعد قريب ؟

وسارع عزت يقول فى حرج وإشفاق :

ـــ ممكن ... ممكن ... ممكن .

* * *

أما شكرى فقد كان فى الخارج يبحث عن (نرجس) . وكان يضرب فى شوارع القاهرة مؤكدا لنفسه ـــ لفرط اشتياقه ـــ أنه سيلقاها حتما ،

وعلى مرتفع ميدان القلعة وقف يفكر ، كان الناس من حوله يستجدون الليل أنفاسه الرطبة ، لأن الصيف كان شديد القيظ ، والوقت قد تجاوز الحادية عشرة ، والمبانى تبدو لعينيه رابضة فى حضن المقطم ، كأنها خائفة ، ووجد شكرى نفسه يخترق الحارات والأزقة قاصدا منزلها ... كانت نوافذ إحدى حجرات السلاملك مفتوحة ، وليس هناك نور ، ونظر من خصاص باب الشقة ، وصمم على أن يدق الجرس ، وأن يتذرع بالحيلة القديمة ، فيدعى أنه قد أخطأ العنوان إذا فاجأه ما لم يكن فى حسابه ، وخفق قلبه لكن هناك شيئا أقوى دفعه أن يدق الجرس ولم يرد أحد ، وخيل إليه أنه سمع الرنين بعيدا فى قلب صحراء فعاود الدق . ولم يسمع — قبل انفتاح الباب — أقداما تسعى بل انفتح الباب بحذر فتفاءل . وعلى نور الصالة الضئيل رأى قامة رجل ضخم بالملابس الداخلية وحدها يسد عليه فتحة الباب بجسمه ، ويمسك برباط عنقه بيده اليمنى ، ويسأله بهمس وضيق من أضجره الإلحاح :

— وأنت الآخر ... من تريد ؟

فرد متلجلجا وهو ينتفض :

— أنا أريد شقة ... آ ...

فقاطعه الرجل الذى بدت عضلات كتفيه ، وضخامة عنقه وهو منحن إلى الأمام قائلا فى سخرية :

— نعم نعم .. أنا عارف أنك تقصد شقة على أفندى عبد السلام أو شقة صديقك رأفت معروف ... أو ...

واستطرد يهمس بصوت مخيف :

— الله يخرب بيتكم جميعا ، وبيت التى كانت ساكنة هنا . أمهلونا يا ناس حتى آخر الشهر فقد أقلقتم مضاجعنا ... وسنرحل والله العظيم .

فلاذ شكرى بالصمت وارتعدت مفاصله ، فدفع به الرجل بعنف إلى الوراء فتدحرج على السلم القصير ، ولم يسمع شيئا إلا انصفاق باب السلاملك . وتحسس نظارته التى فقدها فى مدخل المنزل حتى إذا وجدها خرج يفحصها فى النور فألفاها سليمة .

وعندما عاد إلى ميدان القلعة لم يكن به ناس كثير ، وأحس أن الجو خانق ، لكنه فكر فى (نرجس) قائلا : ترى أين هى ... على كل حال ضاعت فى زحام القاهرة ، كما تضيع مثيلاتها جميعا !

ولم يكن شكرى يعلم أنها بنت السيدة نبوية الفقيهة الضريرة ، التى كانت تذهب إلى أبيه فى إدارة المساعدات كلما ضاقت بها الأمور .

وركب إلى الجيزة . وكان شارع الجامعة خاليا من الناس ، والأب يقص على سوسن كل ما قاله بكير وهما فى غرفة النوم ، حتى إذا سمعا المفتاح يدور فى الباب وخطاه الخفيفة تجتاز الصالة قال الأب لابنته وهو يتنهد :

ـــ آن لنا أن تنام يا سوسن . طاب مساؤك .

ـ ٢٧ ـ

وكتبت سوسن فى مذكراتها تقول :

« هأنذا قد نجحت فى امتحان التوجيهية ، وكانت فرحة أبى لا توصف ، لكننى لا أدرى لماذا لم أفرح ، كان لى بعد النجاح فرحة أرجوها لم تتحقق بعد !

كنت أود أن أقول لأبى كل شىء وأقص عليه تفاصيل ما حدث بينى وبين وحيد فى الحديقة ، ولعل أبى قد جمحت به الظنون ... كل ما كان

بينى وبينه أنه ... هل أعترف ؟ .. قبلنى ! لكن بخدعة حين طرف أحد الأغصان عينى ، واقترب منى ليرى ما فيها ...

أنا لا أنكر أننى مهتمة به ... إننى أخاف من أخطائه . وهو حين يتحدث معى يتلاشى الشعور بالزمان وأحيانا بالمكان ... فيه أشياء تشبه والدى ... يمسك بخيط الكلام بلطف فينساب بشكل ساحر لكننى حتى الآن لا أدرى ... هل أحب أن أتزوجه ؟ إننى أخاف من عاطفة الحب لسبب واحد هو أننى إذا أحسست يوما بأننى أحب من يخادعنى قتلت نفسى ، لذلك فأنا غير مشتاقة لمعرفة نهاية التجربة مع وحيد .

أحيانا أتصور أننى معه فى الخلاء ؟ أو فى حجرة مغلقة ، فماذا أفعل لو أنه أراد منى ما تفرضه الوحدة ؟! .. عندما نلتقى مرة أخرى ، أستطيع أن أكون فكرة أكثر وضوحا عن موقفى ، ولكننى أقرر أننى لا أحب أحدا أكثر من أبى ، فهل حبى لأبى يجعلنى أحب نفسى ، وبالتالى لا أفعل ما يؤذيها ؟! هذا يشبه إلى حد بعيد ما قاله لى بابا ذات يوم : « إننى أحب حياتى من أجلكم يا أولاد ، وقد تصبح النفس غالية من أجل ناس آخرين » .

* * *

وفى نفس الليلة التى كانت سوسن تكتب فيها هذه الكلمات كان عزت جالسا مع فاطمة وهدان للمرة الأولى بعد عودته من الإسكندرية ، وكان الجو حارا وسكان المدينة ممن لم يرحلوا إلى الشاطىء يفضلون أن يجلسوا فى (الكازينات) القريبة من الخلاء ، ولذلك كان رواد هذا المكان الذى يقدم الأطعمة والمشروبات والقهوة ـــ كانوا قليلين ، متناثرين على المناضد فى الأركان على مقربة من المراوح الكهربائية ، التى تعمل بمثابرة تحت نور المصابيح الهادئة .

ولم يكن منظر السيدة يمثل طبقتها تماما ... من الممكن أن يرتقى بها الناظر إليها إلى الطبقة الوسطى من الناس بلا أدنى تعب ، فقد أتاح لها اتصالها بسيدات الجمعيات الخيرية فرصة أرقى فاستطاعت أن تغير لهجة حديثها وطريقة نظرتها ، فضلا على أنها كانت عجينة سريعة التكون مثل عجينة الصلصال . وكانت عيناها المكحولتان ، ونظرتها الكسيرة ، وابتسامتها المستسلمة تفعل فى رأس عزت ما لا تفعله الكأس الأولى .

وأطرقت السيدة نحو رخام المنضدة ، وأخذت تراجع عليها أرقاما كتبها أحد الناس وجمعها ... ثم مدت أصبعها الطويل الممشوق ، وجعلت ترسم به حروفا . ومر الخادم فطلب منه عزت كوبا من الماء ، كان يحس فى داخله كأن شيئا يحترق فأخطأ وطلب ماء ، وكان واثقا أن النصف الثانى فى القضية لا يتردد بتاتا فى أن ينيله ما يشتهى ، غير أن شيئا ــ لم يستطع أن يسميه ــ كان أغلى فى ميزانه من شهوات الدنيا . وكأنما استنكف أن يتحول من رجل فاضل يمد يده إلى أمرأة تستغيث به إلى ذئب فى فراش تلك المرأة ، وبعض الفضائل يخلقها الكبرياء ، وبعضها يخلقها العجز ، لكنها فضائل على كل حال .

على أنه على الرغم من كل هذا أحس أن الماء الذى شربه لا يطفىء الظمأ ، فتذكر الضمير الذى يسهر على تربيته فى حياة فتاته سوسن ، وأنه إن زل مع هذه المرأة فلن يستطيع أن يحس حرارة الصدق فى شىء يقوله لأبنائه .

وجاء صوت فاطمة وهدان أخيرا فأخرجه من أفكاره :

ــ إذن هذا هو القرار الأخير ؟

ــ نعم ... هو القرار الأخير .

فردت بلهجة مطيعة :

ـــ أمرك !

ورفعت وجهها فبدا كرسي خديها المرتفع أكثر رونقا تحت النور ، ومسحت شفتيها بلسانها ، لأن ريقها كان جافا ، ومدت يدها إلى الكوب الذى بقيت فيه بقية بعد أن شرب منه عزت ، فأخذت ترتشف منه قطرة قطرة ، وخفق قلب عزت بعنف فى الوقت الذى كانت هى مستغرقة فيما تفعل ، كأنه لا أحد يراها ، وبعد أن أتت على آخر ما فى الكوب وضعته على المائدة ثم قالت :

ـــ سأعلن له موافقتى غدا .

ـــ ذلك خير . وما دمت غير مرتاحة فى عملك فتزوجى هذا التاجر ، وإذا كان غير جاد فى أمره فربما خلقت العشرة من أشخاصكم ناسا آخرين (ثم قال ضاحكا) وأشياء كثيرة فى الدنيا يا عزيزتى تبدأ بالمزاح ، ثم تنتهى بالجد ، منها الحب والزواج ...

ثم أطرق قائلا :

ـــ وأنا واثق أنه يحبك .

قالت بهمس :

ـــ والمشكلة الأخرى ؟

ـــ أى مشكلة ؟

فردت بوله :

ـــ مشكلة ألا أراك .

ـــ لسنا بأول من فعل الزمن بهم هذا ... ثم ... إذا كان الوقت مناسبا لإسدال الستار فلماذا لا يسدل ؟

فضحكت ، وإن لم يفارق الأسى وجهها وقالت :

ـــ يخيل إلى أن عربتى تسير بعجلات عربة امرأة غيرى ، وأنك

كذلك .

ــ لا أفهم ما تقصدين .

ــ أقصد أن كل إنسان لا يتاح له ما يناسبه لكن الذى يناسبه يذهب لغيره ... وكأنه شيء مقصود ؟ !

ــ فيكون غير مناسب .

ــ نعم ...

وتحولت نظرة عزت فجأة نحو مائدة قريبة ، وبدأ شيء يشبه الارتباك أو الاهتمام فحولت فاطمة وهدان نظرها إلى الخلف ، حيث وجدت رجلا ناهز الستين من العمر يجلس مع شابة كأنها من أصل فرنسى ، ثم عادت فنظرت نحو عزت ولم تقل شيئا ، وصفق عزت فى الحال فجاء الخادم ، ودفع الحساب فى اللحظة التى انحنى فيها عزت يحيى الجالسة على مقربة منه .

ثم خرج وشيء من الارتباك يبدو على خطواته .

وعند الباب كان الليل نديا نوعا ، والميدان الصغير أمام المطعم فيه نافورة ساهرة ، وحديقة عطشى نظرت إليها عيونهما ، ثم تبادلا البسمات ! .

وعلى مقربة من أحد المصابيح وقفا للوداع ، ومدت إليه ذراعها الرخوة ورأسها مرفوع إليه ، والدموع تغالب عينيها ، ولم يستطع عزت إلا أن يذهب إلى إحدى عربات الأجرة الواقفة فى الميدان وفتح بابها ، وأيقظ السائق ثم دفع بفاطمة وهدان إلى الداخل .

وأدار السائق محرك السيارة فانبعث أزيز يشبه جيشان نفسيهما ، ونظر السائق النوبى بوجهه الذى لا يرى فى الظلام وسأل :

ــ إلى أين ؟

وصدرت تنهدة مكروبة من صدرها قال عزت بعدها :

ـــ إلى الجزيرة .

وتحركت السيارة ، وأخذت مناظر ذلك المكان تتراجع كيوم جميل ولى من العمر ، ولم يتكلم أحدهما ، وكان عزت على مقربة منها ... كل ما فعله أنه أخذ يدها ووضعها على فخذه ، وأخذت أصابعه تكلم أصابعها ، وكلما ألقى أحد مصابيح الشارع نوره على وجهها كانت عيناه لها بالمرصاد أنه رآها مرارا وهى تبكى .

ودارت بهما العربة ملف الجزيرة ثم سارت بهما بحذاء النيل كل هذا وكلمة واحدة لم تصدر من فم ، وكان السائق يسعل بين لحظة ولحظة حتى قالت فاطمة بصوت هامس :

ـــ سنمشى هكذا بلا غاية ؟

ـــ إلى بيتكم ؟

ـــ لا ، بل أنزل على مقربة منه .

فوافق ...

وقبل أن يتوقف محرك السيارة بعد ثوان كان عزت يطبع على يدها قبلة ، وقبل أن يفترقا قال لها :

ـــ حاولى ألا تسألى عنى إلا إذا كنت فى حاجة حقيقية إلى مساعدتى . مع السلامة .

ولما غاب شبحها ناحية اليمين ، وغاب صوت السيارة ناحية الشمال استطاع عزت أن يصحو من السكرة ، وأن تلتقط أذناه صوت أغنية من الراديو فى محل عصير فواكه ، كانت تقول عن الحب أشياء كثيرة . فنقل قدميه على الرصيف ، وكأنه ينقل أعضاء مثقلة بالرمل وتمتم : « لكل شيء أوان ، كان ذلك فى الربيع .. فى الشباب .. أما الآن .. فكل هذا

باطل .. آه » وتنهد .

وما لبث أن أفاق على خاطر مزعج . عجب لنفسه كيف نسيه . تلك المرأة التى رآها فى المطعم وحياها مع ذلك الرجل الأشيب ، ذى الشعر الرمادى الكث الناعم ، والأحمر الوجه الدموى المزاج ، الذى كان يشعل سيجارا ضخما معطرا ، ويملأ كرسيه بشكل فخم ، ويدير نظره فى المكان كأنه يأمر كل من فيه .

وخفق قلبه ، لكنه عاد فاطمأن ، إذ ماذا عسى أن يحدث ..

ووقف على محطة الترام ينتظر ، ومرت عدة قطارات لا زحمة فيها وهو يريد أن يركب ، واضعا يديه فى جيبى سرواله ، واقفا كأنه تائه ، وضحك فى هدوء وهو يقرأ اللافتة المواجهة لنقطة البوليس حين تذكر حكاية اللص الذى دخل (فيللا) غاب عنها أصحابها ، وفجأة رأى أمامه رجلا ، وبخبرة كامنة فى أعماق كل منهما صاحا فى نفس واحد بكلمة قالها كل للآخر : أنت لص ، وقد كانت الحقيقة أن كل منهما لص ، فاتفقا .

ثم علق عزت قائلا بصوت يكاد يكون مسموعا :

إذن ما عسى أن تقوله السيدة سوزان عنى ؟ ! لقد رأتنى مع امرأة ورأيتها مع رجل ، لكن يا ترى من يكون ... أراهن على أنه مدير الشركة .

— ٢٨ —

فى هذه الليلة كان الأب يبدو كئيبا محزونا ، كل شيء من حوله كان يذكره بما يثير فى نفسه ألما ، فهو راجع لتوه من شقة جاره الأستاذ بكير ، الذى بعث إليه ليستدعى له طبيبا .

وبعد أن قضى معه معظم السهرة ، حتى خف عنه الألم تركه وعاد ، وكانت سوسن لا تزال ساهرة لم تنم بعد ، وشكرى لم يعد من الخارج .



وقبل أن يفترقا قال لها :

حاولى ألا تسألى عنى الا اذا كنت فى حاجة الى مساعدتى ..

وتنفس الأب الصعداء ، وجلس تجاه بنته التى كانت مشغولة فى قراءة إحدى الروايات ، ثم نظر فى ساعة معصمه قائلا :

ــ إن شكرى لم يعد ، والساعة الآن قد دخلت على الثانية عشرة .

ــ إن الجو الحار يشجع على السهر يا بابا فلا تقلق ، وعلى فكرة كيف صحة الأستاذ بكير الآن ؟

فأطرق الأب قليلا ، ثم قال وعلى فمه ابتسامة تخالطها المرارة :

ــ لقد كشفت الليلة أن الأستاذ بكير يحيا حياة لها ظاهر وباطن .

فهزت الفتاة رأسها مستفهمة على حين استطرد الأب :

ــ إنه حين يرى مع زوجته فى مكان ما يبدو بمظهر السعداء ، وهو فى الحقيقة يضمر فى نفسه تعاسة لا حد لها . كان يتلوى فى فراشه من المغص الكلوى ، ويعض على وسادة السرير ، فى الوقت الذى كانت الخادمة مشغولة فيه بطفلين وبأعمال البيت ، لأن السيدة سوزان كما قال زوجها أصبحت مشغولة (بطلب العلا) أكثر من أى شيءآخر ، فهى لا يسعها إلا أن تطلب رضا السيد المدير ، وكثيرا ما تتطلب منها أعمالها السفر كما حدث فى هذه الليلة .

ثم سكت عزت قليلا ، ونظر فيما حوله وعاد يقول :

ــ كان الرجل يتلوى فى حجرة ، والأطفال يبكون فى الحجرة الأخرى ، ولما جاء الطبيب وخف عنه الألم أخذ يحكى عن آلامه الثانية قائلا لى :

ــ أنت أولا لا تعرف أن حالتنا المالية ليست فى رخاء يساوى هذه المتاعب ، وأحيانا يساورنى القلق والشك ... إننا بشر ... لسنا ملائكة ... حقيقة أن المدير الذى تسافر معه سوزان رجل قد ناهز الستين .فقلت له ضاحكا مخففا حدة الموقف : إنه إذن فى سن

الضمان ، فأجاب : هذا صحيح ، ولكننى فى قرارة نفسى لا أشعر باطمئنان إليه ، إنه من الشيوخ المتصابين ، ولو رأيته لعرفت صحة ظنى فيه ، فضلا على أنه عاش عازبا طول حياته ، ثم وصف لى رجلا أعرفه أنا يا سوسن رأيته ذات مرة ضخم الجسم رمادى الشعر دموى المزاج .

فسألته ابنته :

ـــ ولماذا أقدم على هذا الطريق الذى لا يسعده ثم لماذا لا يتراجع يا أبى ؟ !

فضحك الأب من حماسة فتاته ، ثم قال :

ـــ إنه هو شخصيا قد أثار مثل هذا السؤال وأنا عنده ، ثم أجاب عنه ، لقد أصبح الأستاذ بكير (وهو الطرف الأضعف مالا ، والأكثر احتياجا إلى الطرف الآخر) ... ممثلا مع الأسف موقف المرأة من الرجل فى أوائل القرن العشرين . لقد قال لى ، وهو مضطجع فى فراشه ذابلا متألما ، وابتسامة غريبة على شفتيه : إذا كان عصر المطلقات قد أوشك على الزوال بالنسبة لبعض النساء فأظنه الآن موجودا بالنسبة لبعض الرجال !!

ثم ضحك من مشكلته قائلا :

ـــ تصور أننى أنظر بجزع إلى اليوم الذى تفارقنى فيه سوزان ، لقد تعودت على مستوى معين من المعيشة ، ولو أننى لم أشعر ذات ليلة بأننا فى سفينة واحدة مصيرها مشترك ، وهى بين الأمواج ...

وضحك بكير ثم استطرد : بل أشعر أننا فى سفينتين متجاورتين يتبادل ركابهما المعونة ولا يربطهما مصير . فقلت له مخففا عنه : لا تكن مبالغا أيها الرجل . فتنهد ثم قال : إننى لا أبوح بشىء من هذا لغيرك ، لكن مظهرك يا سيدى مظهر رجل يوثق به . إن حياتنا بدخلها ونفقاتها تذكرنى بحكاية تلك المرأة البخراء ذات العرق الكريه التى تضع كل ليلة عطرا ،

لكن عطرها لا يغلب على الروائح الأخرى ...

وضحك بكير ، ووضع يده على جنبه فأحسست يا بنيتى برثاء له ، فكيف إذن تتصورين بيتك فى المستقبل يا حبيبتى .

فأطرقت الفتاة نحو قدميها ، ثم رمت بخصلات شعرها إلى الخلف قبل أن تقول :

ـــ الرواية التى أقرؤها ذكرتنى بما كنت أعرفه عن أمى .. ويقول المؤلف فيها ... ليس من الممكن أن يكون للناس جميعا رسالة واحدة ، بل لا بد أن تختلف الرسالات ، فإذا كانت رسالة هذه العانس مديرة الجمعية الخيرية فى خارج البيت فقط ، ورسالة أم عبد العزيز عابدة زوجها وأولادها فى داخل البيت فقط ، ورسالة السيدة كريمان مقسومة بين الداخل والخارج ، فلا داعى لأن نتعصب لإحدى الرسالات لكن المهم هو أن تعرف كل امرأة ماذا تصلح له .

وبلعت سوسن ريقها ، ثم سكتت فقال الأب :

ـــ إن المؤلف على حق ، لكن هناك سيدات مثل سوزان أصابتهن الحرية بالحمى ، وهى ـــ فى نظرى ـــ أحسن مثل للخارجة من السجن ... سجن العهود الماضية ... سجن المشربيات ، ولذلك انقلبت إلى العكس وليس (العكس) دائما صحيحا .. وأظن أن أصلح شىء لها هو ألا تكون زوجة ، وإن كانت زوجة فلا ينبغى لها أن تكون أما .. لا داعى للأطفال .

قالت سوسن :

ـــ نعم يا أبى ، صدقت ... وأنا شخصيا أحب الحياة التى أحبتها أمى .

وأطرق الأب يذكر كل ما فات ، وتخايل أمامه خيال زينب ، كأنها

ما زالت فى البيت فى الوقت الذى دق فيه جرس الباب ، فذهبت أمينة تفتح ودخل شكرى ... منفوش الشعر ، وحبات العرق تلمع على جبينه المجهد ، لكن أمارات رضا وسعادة كانت تلوح على وجهه .

وطلب عشاء .بصوت جهير ، وجلس يأكل على مقربة من أبيه وأخته ، وكان الأب يتأمل طريقة تناوله الطعام فيرى ابنه (شهوة وشهية) كما سبق أن رآه كامل ، وعلى حين بغتة سأله أبوه :

ـــ أين كنت يا شكرى ؟

فرفع وجهه إلى أبيه ، وابتسامة العجب تتزايد شيئا فشيئا حتى كادت تبلغ شحمتى أذنيه ، وقبل أن يعود إلى مضغ الطعام أجاب بعدم مبالاة :

ـــ فى الخارج طبعا .

فشعر الأب بشيء من الضيق ، واحمر وجه الفتاة ، ورد عليه أبوه قائلا :

ـــ إننى أشعر حيالك أحيانا بما يشعر به صاحب اللوكاندة حيال النزيل ... إنك لا تشاركنا مصيرنا مطلقا ، وتحول عامدا بيننا وبين أن نشاركك مصيرك ...

ثم سكت قليلا ، وأخذ يهز ساقه المعلقة على الأخرى ، ويتأمل وجه شكرى الجامد جمود القناع ، ويسمع صوت مضغه للطعام ، ثم عاد يقول حين لم يرد عليه :

ـــ هل من الممكن أن يكون معنى الحرية واستقلال الشخصية أن تعيش بمعزل عنا بكل حاجاتك ومشاكل نفسك ؟ ! أظن لا .

فرد بطريقته غير المبالية مرة أخرى :

ـــ واقع أمرى أنه ليس هناك مشاكل .

ـــ حسنا سأسألك سؤالا آخر ، كم دقيقة يتصل الحديث بينك وبين أختك إذا ما كنتما معا ؟

فضحكت سوسن قائلة :

ــ خمس دقائق يا أبى ، وينشب العراك .

فحملق فيها شكرى ، وعاد إلى التهام الطعام وهو صامت ، فى اللحظة التى كان عزت يتصور فيها البيت وقد خلا من سوسن . وأصبح وجها لوجه أمام ابنه وحده ... فأى لون من ألوان الحياة سيحياها الاثنان يا ترى ؟

سأل الأب نفسه هذا السؤال ، ثم مصمص بشفتيه وقام إلى فراشه .

* * *

وكانت نفس شكرى فى هذا المساء تجيش بانفعالات عنيفة . كان سعيدا فى قرارة نفسه ، لكن طبعه غير الشفاف ، ووجهه غير المعبر لم يتح كثيرا لمن رآه أن يعرف مقدار ما يكنه صدره .

كان راجعا لتوه من زيارة (مختار) لاعب الكرة المشهور ، الذى دخل المستشفى منذ يومين ، بعد حادث أصاب قدمه فى الملعب ، وهو طالب مزمن يعتبر أنموذجا للانفصال الحقيقى بين العضلات الحية ، والشعور الحى ، حتى إنه يندم كل يوم خمس مرات (عدد أوقات الصلاة كما يقول) على اختياره هذا اللون من الدراسة : الآداب ، كان راقدا فى حجرة ذات سرير واحد ، ذكرت موقعها ورقمها صفحات الرياضة فى جرائد الصباح والمساء ، وتوافد عليه زوار كثيرون ، حتى ضاقت مساحة الغرفة بباقات الأزهار فرصت فى الممشى المؤدى إليها وعلى الجانبين .

ولما دخل عليه شكرى كان الوقت متأخرا ، ووطأة الزوار قد خفت ، فألفاه راقدا فى بيجاما بيضاء تزيد من سمرته التى تقرب من سمرة المولدين ، وقد نهد صدره كصدر الفتاة ، وبانت على فكه العريض بطبيعته قسوة جديدة من الألم ، وفاحت رائحة عطر غالى الثمن يبشر بأن

فى الداخل امرأة منعمة ــ حين فتح شكرى باب الحجرة على صديقه اللاعب ، كان الجو مفعما بها كما تفعم برائحة الزهر حديقة الفاكهة ، حتى إن شكرى خيل إليه وهو يقبل جبين صديقه أنها تفوح من بين ثيابه هو ، ثم سحب كرسيا وجلس وأخذ يتأمل وجه السيدة التى قدمها إليه صديقه وهو يشير بذراعه المشمر الكم ، قائلا :

ــ السيدة ألفت هانم .

وسكت قليلا ، واستطرد :

ــ صاحبة فضل على .

وابتسم فى غموض ، عندئذ انحنى شكرى لها ، وانتاب عينيه خلف النظارة قلق عصبى ، كانت سيدة قد جاوزت الأربعين تبدو أكبر من عمرها على الرغم من زينتها الزاهية ، ذات نظرة غجرية تخيف وتثير فى وقت واحد ، يبدو على شعرها أنه مصبوغ بعناية ، وعلى قوامها أنه قوام فتاة ، وعلى شفتها السفلى علامة ترفع خيل إلى شكرى أنه لو طبع قبلة عليها لكان فى سعادة من خطف ماسة من تاج إحدى الملكات ، وثوبها المسائى الداكن يكشف عن صدر ندى بأشياء غالية ، وبنظرة واحدة كان لا بد له أن يعرف أنها من الطبقة الراقية وأنها بلا شك معجبة جدا ، ولأبعد حدود الإعجاب بهذا الجسم الرياضى الممدد فى السرير الصغير .

وقدمت السيدة ألفت علبة سجائرها الأنيقة إلى الشاب وهى تسأله :

ــ هل تدخن ؟

فانحنى يأخذ سيجارة ، ثم أشعل سيجارتها باحترام وجلس .

ورفرف على المكان لوقت قصير صمت مطلق ، لم يتكلم فيه إلا رائحة العطر ، وشقشقة عصفور فى حديقة المستشفى ، وإلا أزيز الأجراس التى تطلب المعونة من الحجرات الأخرى ، فقال اللاعب ، وكأنه

يريد أن يبدد هذا الصمت :

ـــ لماذا أنت ساكت أيها الفيلسوف ؟ تكلم . قل أى شىء .

فبدا الاهتمام على وجه السيدة ، ومدت ساقيها نحو الأمام ، كأنها تعبت من الجلسة ، وقالت وهى تنفخ الدخان فى تجاه مرآة الحجرة :

ـــ أنت تدرس الفلسفة أيها الشاب ؟

فأجاب بتواضع :

ـــ نعم .

فسألته آملة أن يكون الجواب نعم أيضا :

ـــ إذن فأنت تملك إيمانا جديدا غير الإيمان الذى يملكه العوام .

فابتسم فى خبث ، وهز رأسه يؤكد ذلك ، واتسعت ابتسامته حتى ملأت وجهه ، وقال لها وهو يحدق فيها :

ـــ نعم أيضا .

فسارعت ترد بانبهار :

ـــ أوه ... كم هذا جميل ... ما أشوقنى إلى أن أفهم شيئا من ذلك ، إننى مولعة بكل غريب ، ولكننى عاجزة عن فهم الفلسفة الجديدة ... إننى أسمع عنها فقط ، وربما كنت معتنقة لإحداها دون قصد ولا نية ، لقد درست الموسيقى دراسة عميقة ... وحاولت أن أدرس الرسم ، لكن المسائل العقلية لا صبر لى على فهمها ...

وضحكت وهى تتلوى ، وأطفأت سيجارتها وتنهدت ، ثم عادت تقول :

ـــ آه ... هل تستغرب كثيرا أن بعض الناس يعتنقون فى حياتهم مذاهب لم يقرأوا عنها ؟

فأجاب شكرى :

ـــ لا . فبعض الناس يسبقون بطريقة معيشتهم قواعد يضعها غيرهم فيما بعد ، والدنيا يا سيدتي ليس فيها جديد بحت ، ولكن فيها أشياء تولد من أشياء ...

فأشرق وجهها بابتسامة ، وأطالت نظراتها إليه ، وكان اللاعب في هذه اللحظة مسبل الأجفان ينظر إليها من خلال أهدابه ويقول في نفسه :

ـــ لا بد أنها ستنصرف بعد قليل من الإعجاب بهذا الجسم إلى الإعجاب بهذا الفكر ، ثم تتحول إلى شيء مجهول بعد ذلك .

وما لبثت ألفت هانم أن وجهت إلى شكرى سؤالا جديدا :

ـــ قرأت صحف الصباح ؟

فأجاب ببساطة :

ـــ نعم ... طبعا .

ـــ ما رأيك إذن في الموقف الأخلاقي في قضية الزوجين ... ولو كنت قاضيا فماذا تحكم ؟

ـــ لقد تتبعت هذه القضية بشغف ، لأن ميزان الحرية فيها كان منكوسا .

فقال اللاعب :

ـــ حدثوني عنها فقد فاتني بعض حلقاتها .

فاستطرد شكرى قائلا :

ـــ « أبلغ أحد الأزواج البوليس أنه عاد من السفر بعد نصف الليل ذات ليلة من الشهر الماضي ، وفتح باب مسكنه بالمفتاح فوجد زوجته قتيلة في الصالة من طلقة نارية في رأسها ، ووجد الأثاث مبعثرا ، وأشياء نفيسة مسروقة من البيت ، وقال إنه يرجح أن اللصوص قتلوها عندما رأوا أن قتلها هو السبيل الوحيد للنجاة ، لكن حدث أن اكتشف الضابط المحقق أنه

ليس بجسم المرأة أى علامة من علامات المقاومة ، وأنها كانت بكامل زينتها . وبقميص ليلى شفاف على حين أن زوجها غائب ، وكان الزوج يبكى وينتحب طول مدة المعاينة بحالة توجب الرثاء ، لكن حدث أن استوقف نظر الضابط فى حجرة نوم السيدة شيء بسيط هو زهرة قرنفل قرمزية اللون ، موضوعة فوق الكومودينو الملاصق للفراش ، وبجانبها قلم مهيأ للكتابة ، والتقط الضابط الزهرة ثم حملق فى المكان فرأى ورقة ساقطة بين الكومودينو والحائط من النوع الذى يستعمل فى كتابة الرسائل ، ولم يكن فى هذه الورقة شيء إلا تاريخ اليوم مخطوطا فى أعلى الرسالة ، وتحت أول سطر كلمة « عزيزى حمدى » بخط نسوى دقيق كأنما كتب بسن الأبرة رجح لديه أنه خط الزوجة ، وتحول مجرى الحوادث بعد هذه المفاجأة ثم تلقت النيابة خطابا من مجهول يقول فيه إنه يعلم أن علاقة كانت قائمة بين هذه السيدة وبين طالب يسكن فى أعلى البيت اسمه « حمدى » وأنه من المرجح أن يكون هو القاتل .

وسكت شكرى ريثما يشعل سيجارة ، ويقدم أخرى للسيدة ألفت هانم ثم قال :

ـــ وأسفر التفتيش عند الطالب عن صف من أصص من أزهار القرنفل موضوعة على سور السطح أمام المسكن ، ولما ضيق عليه الخناق اعترف ...

فصاح اللاعب فجأة :

ـــ هل قتل المجرم حبيبته ؟

فضحك شكرى قائلا :

ـــ لا بل اعترف بأن الزوج وجده هناك فى حالة أثارت ريبته ، فهم بإطلاق النار فى الوقت الذى أخذ فيه حذاءه وتسلل حافيا إلى الخارج ،

وأنه يملك دليلا مكتوبا يؤيد أقواله هو خطابات من الزوجة التى كانت تكتبها إليه فى عطلة الدراسة .

وأخذت ألفت هانم عجلة الحديث من الشاب ، وجعلت تكمل :

ــ المهم أن هذه الخطابات هى التى أوقعت بالزوج فاعترف ، لأن الزوجة سردت فيها تاريخ خياناته لها ، وأطنبت فى وصف المعارك التى قامت بينهما ، لأنها كانت امرأة تحتفظ بشرفها لرجل لا شرف له . وهذه قضية الحرية عندكم أيها الرجال . فلماذا لم تطلق هى عليه الرصاص عندما اكتشفت أنه خائن ؟ !

وتنهدت إيذانا بانهاء الكلام فقال اللاعب :

ــ أنا لو كنت قاضيا لحكمت ببراءته ، لأنه رأى منظرا يغلى منه دم كل رجل حتى ولو كان فاقد الدم .

فضحك شكرى ضحكة صفراء ، ونظر إلى وجه السيدة الذى عبر عن عدم رضاها عن هذا الحكم وقال :

ــ كل شيء توليه اهتماما زائدا عن الحد يأخذ قيمة جديدة تكون أكبر من الحقيقة .

فهزت ألفت هانم رأسها مؤمنة بإعجاب ، ولوى اللاعب وجهه نحوه يطلب توضيحا فقال شكرى له :

ــ أذكر أنه فى الحرب الثانية طارت إشاعة بين الناس بأن (الملح) سيختفى من الأسواق . لماذا ؟ ! لا أحد يدرى فأخذ الناس يشترونه بضعف الثمن .

وقهقه ثم أكمل :

ــ مع أن اختفاء الملح من أرضنا يساوى اختفاء رمال جبل المقطم تماما ، فلو أننا أعرضنا قليلا عن مراقبة هذه الغريزة ، وعرفنا أنها كبقية

أخواتها من الغرائز مثل الخوف والمحافظة على البقاء مثلا :لاختفت المشاكل حولها يا عزيزى .

ولما قطب اللاعب وجهه ، ونقل بصره بين شكرى وألفت وقد التقيا عند رأى قال شكرى ضاحكا :

ـــ هل نسيت ما يحدث فى جزيرة العراة يا أستاذ ؟ .. هل نسيت . لقد اختفت هذه المشكلة من حياة الناس هناك .

ثم نهض مستأذنا ، فنظرت ألفت هانم فى ساعة معصمها وتأودت وقامت وتبعتها نظرة اللاعب حتى إذا وصلا إلى أسفل السلم عرضت عليه أن توصله بسيارتها إلى حيث يريد ، وقبل أن يفترقا قالت له ووهج سيجارتها يتوقد فى الظلمة :

ـــ أعجبتنى نظرتك فى الحياة ... جدا ! ..

ـــ إنها ميولى .

فاقتربت منه وهي تعاود السؤال :

ـــ وما مثلك الأعلى ؟ !

فقال بهمس :

ـــ هل أنت سيدة تكره النفاق ؟

فقالت مشجعة :

ـــ نعم .

فأجاب :

ـــ مثلى الأعلى ... هو كل ما يحقق لى السعادة عن طريق حواسى التى هى (أنا) ... ولا أومن بشيء بعد هذا ...

فصدرت منها ضحكة فريدة ، وقالت له :

ـــ آه ... إننا التقينا ... عندى حوادث غريبة أريد أن أقصها

عليك ... هاك رقم تليفوني وحدثني بعد أسبوعين ، لأنني سأغيب في سفر وأعود بعد ذلك ... نتكلم .

وكان شكري يشم رائحة كفه ليتنسم شذى عطرها ، وهو راجع إلى البيت حيث كان أبوه يشعر بقلق عليه .

ـ ٢٩ ـ

وقبل نهاية شهر أغسطس من هذا الصيف ، والليلة حارة رطبة بعث الأستاذ بكير إلى عزت يستأذن في زيارة قصيرة . وخرج يرحب بالضيف ، وما لبث أن قابله في غرفة الاستقبال فألفاه كعادته يفيض وجهه بالسعادة والبشر ، وجعل عزت يتصور منظر الرجل الذى رآه ذات ليلة يتلوى من الألم والحنق ، بل ومن المغص أيضا ، فلم يجد له أثرا فى هذه الملابس الأنيقة ، بل رجع كعهده فى سذاجة الطفل ، ونظافة العريس ، وقد الراقص .

وجلس الأستاذ بكير يفرك كفيه ، ويسأل عن الأحوال ، وتطفو على ملامحه بين لحظة ولحظة كلمة يريد أن يقولها ثم يسترجعها ، ظنها عزت في بادىء الأمر طلب سلفة ، ثم عاد فرجح أن تكون كلمة تحذير من أن يتكلم فيما سبق أن شكا منه ، لكن الموقف حدد نفسه بدخول السيدة سوزان .

ونهض الرجلان في وقت واحد باحترام ، كان كل منهما في قرارة نفسه يعلم أنه غير صادق ، وحتى السيدة سوزان نفسها كانت تشك فيه . لكنها تقبلته مزهوة ، ورأى عزت فى النظرة الأولى التى انبعثت من عينيها معنى من التحدى وعدم المبالاة فلم يقابلها بالمثل ، وعطرت جو المكان برائحتها كأنها مجموعة من الأزهار ، ثم تلفتت حولها قبل أن تسأل عن

الآنسة سوسن .

ولم يجد الأب بدا من أن يستدعيها . أما شكرى فقد كان غائبا فى الخارج . ولما التأم عقدهم بدأ الأستاذ بكير فى الكلام قائلا وهو منحن إلى الأمام ، يفرك كفيه والابتسامة على شفتيه ، وشيء من لعابه راسب عند زاويتى فمه :

ـــ إننى أشعر الليلة بحب فوق المعتاد نحوك يا عزت بيه . هذا شيء غريب ... غريب ... نعم غريب .

ثم التفت نحو زوجته كأنه يستلهمها الجواب فما كان منها إلا أن أجابت بسرعة :

ـــ ذلك طبيعى .

ولم يكن رب البيت فاهما شيئا ، أما سوسن فقد كانت تتأمل الفرق العظيم بين ما سمعته عن هذا الرجل من أبيها وبين ما تراه الآن ، إنه يبدو كالمحب العابد ، وكأن بينهما لوعة غرام لم تخف حدتها ، وقطع عليها أفكارها أن تكلم الأستاذ بكير من جديد :

ـــ نحن يا عزت بك فى هذه الدنيا ـــ كما قالت سوزان مرة ـــ أشبه بركاب يتعارفون فى القطار فمهما طالت بهم الرحلة لا بد أن يفترقوا .

وقبل أن يفيق رب البيت على نتيجة اللغز ، ويسأل لماذا .. كانت السيدة سوزان تقول ، وهى تبتسم ابتسامة غامضة :

ـــ يلتقون فى قطار أو يلتقون فى مطعم .. المهم أن الفراق نهايتها حتما ..

وفتحت حقيبة يدها تنظر فيها كأنها تفتش عن شيء ، فى الوقت الذى صبغت الحمرة وجه عزت ، وهز رأسه وهو يتأمل نقوش السجادة ، ويتدبر معنى هذا التصرف ، هل تريد أن تتهمه قبل أن يتهمها ، أو تريد أن تقول له

إنه لا فرق بين حريتي وبين حريتك ، أو تريد أن تقول له إن ما فعلته أنا شيء لا غبار عليه . وأحس على كل حال أنها سارعت فجرحته لينشغل بجرحه ، فلا يصيبها بجرح إن كان يريد ، فآثر أن يحول دفة الحديث ، وعلامات عدم الرضا عالقة بوجهه ، فقال متجها لزوجها :

ـــ ليس كل الناس على كل حال يؤسف على فراقهم .. (ثم سكت برهة قبل أن يستدرك) : غير أنكم من الذين نأسف على فراقهم .. لكن .. خير إن شاء الله .

فتهلل وجه بكير كما يفعل الطفل ثم قال :

ـــ سننتقل إلى مسكن جديد يا عزت بك .. وما دام الله قد وسع في رزقنا فلماذا لا نوسع على أنفسنا ، إن أرجلنا دائما خارجة من اللحاف ؟

فسأل وكأنه سليم النية :

ـــ لعلك نلت ترقية كبيرة أو ميراثا على غير انتظار ؟!

فاتجه بكير نحو زوجته بعينيه المنتوفتين المليئتين بالتملق ، وقال يدللها :

ـــ تكلمي أنت فليس هذا من شأني .

فنظرت إلى حذائها الأنيق ، وابتسمت في تواضع متكلف قائلة :

ـــ ليس لأحدنا مال خاص .. إنني أملك كل ما تملك ، وأنت تملك كل ما أملك ..

ففهم عزت أن الخيرات مقبلة من ناحيتها هي فهنأها بالترقية .

فنظرت إليه من بين أهدابها ، وكأنها تتهمه مرة أخرى .

ثم طبع الموقف بعد ذلك بشيء من العاطفية ، حين أخذ الأستاذ بكير يقسم مرارا أنه ما عاشر ولا جاور ولا صادق أحب إليه من عزت بيه ، وأنه كان رجلا يؤتمن على كل سر ، وأنه يرجو أن يزورهم في المسكن

الجديد . وعانقه بود وهو يودعه ، وفوجىء عزت بأنه يبكى ، وغلبته الدموع فمسحها بكير بأنامله كأنه يخفيها . أما وجه سوزان فكان عليه ابتسامة تنبىء عن شىء من العجب ، فى الوقت الذى كان يتنهد فيه بألم ، وسوسن واقفة كالطفلة ، لكن تفاصيل حياة هذين الزوجين لم تغب بتاتا عن خيال سوسن .

* * *

وعلى مائدة الغداء فى اليوم التالى كانوا يعلقون على حوادث البارحة ، وكأنها تاريخ مضت عليه حقبة من الزمن .. شأن الحياة .

ودق جرس الباب ، وفوجئوا بمقدم محسن بك .. إنه هو يخترق الصالة بقامته النحيلة ، وخطاه البطيئة الحذرة ، وأناقته التى لا تغيب .

وعم البيت فرح شديد ، وجلس معهم على المائدة ، وقال بنفس يلهث ، وروح يناوشها شىء من الضعف :

ـــ آه .. كيف أنتم يا أولاد .. دعونى حتى أبلع ريقى .. هاتى قطعة من البطيخ أيتها اليمامة .. إننى ظمآن .. هيه .. جئت لاستشارة الطبيب فمررت عليكم .. أوه .. ما أشنع الحر .. ما لكم تحبون جهنم فى الصيف .. والله لن أسافر حتى آخذكم معى .

ولما أمسى المساء خرجوا جميعا إلى النادى ، حيث جلس محسن بك يشكو فى هذه المرة أحزانا حقيقية ، كانت سوسن تنعطف إلى كل صغيرة وكبيرة فيها وتود أن تفدى هذا الرجل اللطيف بشىء تملكه ، كان يقول :

ـــ أنا فى حقيقة الأمر أريد أن أكتب وصية ، فأعطى هؤلاء المتربصين لموتى ما يريح بالهم ..

ثم يسكت قليلا ، ويعود فيقول :

ـــ لكن يا عزت .. أليس حراما أن أعطى الراحة إلى من يبعث لى بالمتاعب . إننى أرى الكره فى عيونهم وعيون أبنائهم ، وحتى عيون المواشى التى يقتنونها ..

ثم طلب فنجالا من القهوة ، وأخرج من جيبه أدواته المشهورة .. السبحة القصيرة والمبسم والكبريت ، وعلبة السجاير ، وجعل ينفخ الدخان فى الهواء الحار ، وقال له عزت برقة :

ـــ المسألة يا محسن بك غاية في البساطة .. ولكى ندرك ذلك ينبغى لنا أن نتصور أى نوع من العلاقة سيربط بيننا وبين أملاكنا .. بعد العمر الطويل ، وعند ذلك يسهل كل شيء .

فتنهد وكأنه اقتنع ، ثم ما لبث أن تململ فى كرسيه ، وقال بحماسة وصوت خانق :

ـــ لقد وجدت الحل أخيرا يا عزت ... والله لن أريح لهم بالا .. سأتبنى أربعة من اللقطاء ممن تلوح علامات الإجرام على وجوههم حتى لا ينال هؤلاء الناس شيئا مما أملك .

فابتسم له عزت ، وذكره بما سبق أن قال فى الوقت الذى كانت سوسن تستعرض فيه حياة خالتها الخاوية ، وحياة السيدة سوزان المليئة بالمتاعب .

ووثبت إلى خيالها صورة بيت تتمناه ، فخفق قلبها حين تخيلت أن (وحيد) شريكها فيه ، وأن لهم أطفالا تحوطهم بجناحيها ، لا بجناح مستعار لإحدى الخادمات ، ثم أفاقت من خواطرها على الصمت الذى ظلل الجلسة ، وعلى وجه محسن بك الذى بدا تحت النور ـــ من مقاومته لشيء طبيعي ـــ وقد تسربل بقلق يشبه ما يعترى وجه الريفى الحريص ، حين يمشى فى السوق خائفا على ما فى جيبه .

أما شكرى فقد كان رأسه مشغولا .. مشغولا بذكريات اللقاء الأول التى تم بينه وبين ألفت هانم منذ بضعة أيام ، ولذلك كان يبدو واجما أكثر من العادة ، كأنما أثقلته كثرة الشراب .

— ٣٠ —

كانت ذكريات اللقاء الأول بين شكرى وألفت هانم لا تزال ماثلة فى نفسه .

كانت ضاحية المعادى ليلتئذ مستغرقة فى أحلامها ، ولو أن الليل لم يزل فى أوله ، وفى المساء عند الأفق صواريخ أحد الأعياد الملكية تتألق بألوان كألوان الطاووس .

واجتاز شكرى الميدان الصغير المرشوش ، حيث استوقفت نظره شجرتان من أشجار السرو عند مدخل البيت عن يمينه وشماله ، كانتا تقفان كأنهما حارسان فى عباءة سوداء .

ولما وضع يده على الجرس الخارجى سمع نباح كلب ، كأنما كان هذا متصلا بذاك ، وملأت أنفه فى لحظات الانتظار رائحة الحديقة ، وبعض أزهار تقوم أشجارها على مقربة من السور .

كان قلبه يخفق لأنه كان واثقا أنه قادم على تجربة .

وجاء خادم يتبعه نباح الكلب وفتح الباب ، وما أن ذكر القادم اسمه حتى سار الخادم أمامه .

ثم أفضى بهما الممشى الضيق فى الحديقة إلى باب على اليمين ، يؤدى إلى مسكن ذى طبقتين . كانت الطبقة الأولى فيه مظلمة ، أما الطبقة العليا فقد كان فيها عدة نوافذ مضيئة ، يرى العابرون نورها من خلال الشجر .

ورجع الخادم الأول من عند باب الشقة ، كأنما انتهت مهمته ، ونابت عنه فى إرشاد الضيف إلى حجرة الصالون زنجية لا تزال فى سن الشباب ، حيث تركته هى الأخرى هناك ، وانتهت مهمتها .

والصمت يكاد ينطق فى المكان ، حتى ذوائب الشجر لم يكن فيها ورقة تهتز ، ولم يسمع شكرى إلا خفقات قلبه ... ثم جاءه بعد ذلك صوت نغمات خافتة منبعثة من بيانو بعيد يصاحبها غناء منخفض الدرجة صادر من أنثى ، وأخذ شكرى يتأمل المكان ، كل شيء فيه يدل على الثراء والقدم ، فأخذ شكل الأثاث والسجاد ، وحتى صور بعض الناس التى وقعت عيناه عليها أخذت شكلا تاريخيا ، وملأ نفسه رهبة : وخيل إليه أنه سيلتقى بإنسان لم يره من قبل .

وأحس فى بعض وهلات الانتظار ــ التى تطول عادة على الجالس وحده ــ أنه يطل من أعلى برج ، كان كل شيء مختلفا تماما عما تعود أن يراه ، ثم استرجعه من شروده صوت امرأة تأمر أعاد إلى ذهنه ذكرى نبرات ألفت هانم يوم قابلها ، ولم يسمع وقع أقدام ، ولكنه ما لبث أن شم رائحة عطرها ، ورأى قوامها وهى تدخل عليه ..

وقام وحياها مرتبكا ، ثم جلس يقلب طرفه فى أنحاء الحجرة الواسعة ، ويحملق نحو سجادة ثمينة علقت على أحد الجدران ، حتى آنسته ابتسامة وكلمة تحية ألقت بهما إليه ، وهى تحرك فى يدها مروحة يابانية الطراز تتسق مع عقصة شعرها المصبوغ بلون حالك ، والذى ينقصه الدبوس ليكون على رأس يابانية ، وفى ثوبها الأسود الذى يكشف عن الصدر والذراعين وجزء من الظهر ، كانت هناك أزهار كبيرة من كل لون ندية باهرة كأنها مقطوفة من الحديقة ، وكان شكرى مرفوع الكتفين ، وعلى فمه ابتسامته المألوفة التى تملأ وجهه كله ، وكان على ربة البيت أن

تبدأ الحديث فقالت وهى تحرك مروحتها إلى اليمين والشمال :

ــ أف .. ألا تحس بحرارة طقس اليوم ؟

فاستدرك الشاب ، وكأنه عثر على مفتاح الكلام :

ــ آه ... نعم ... لكن ... لماذا لم تسافرى إلى أحد بلاد الشواطىء على الأقل ؟

فاستراحت فى جلستها أكثر على الكنبة الواسعة ، فأتاح ذلك لثوبها أن ينحسر عن ساقيها ، ثم قالت وهى تتنهد :

ــ ذلك لأننى أصبحت فى حالة لا أطيق معها منظرا متكررا . ليس هناك إلا البحر والرمل وصفوف الكبائن التى تشبه الصناديق ، وأنا لذلك كثيرة التنقل ...

وسكتت قليلا كأنها لم تبح بكل سرها ، ثم قالت :

ــ وربما سافرت بعد مدة إلى أى مصيف جبلى .

وأسبلت عينيها الغجريتين المتناقضتين مع العقصة اليابانية ، وارتخت شفتها السفلى كما لو كان عليها بقية شىء مر فى الوقت الذى دخلت فيه الخادمة تحمل بعض المرطبات ، ثم قالت وهى تعد أعواد المروحة بأصبعها الرشيقة :

ــ لا شك أنك تحمل الآن فى سرك سؤالا ... هل تعرفه ؟

فهز رأسه نفيا ، فقالت :

ــ لا بد أنك تسأل عن سر اهتمامى بك . أليس كذلك ؟ !

وضحكت ضحكة حرة ، فاضت بكل ما تحمله نفسها من تعطش إلى ملذات الحياة ، فقد كانت هذه السيدة تحس دائما أنها (شىء ناقص) ، وكان ذلك منذ حداثة سنها ، وكانت تنقم على حداثتها مستعجلة سنوات الشباب على أنه أوان المتعة ، فلما بلغت حدود الخريف

الذى تعيش فيه الآن أحست من جديد بأنها (شيء ناقص) يزداد كل يوم تناقصا ، فلم تكن تشغلها حقيقة المتع جسمانيا بقدر ما كان يشغلها نفسيا إحساسها بأنها مرغوب فيها .

وبين هذين الشعورين ولد عالم من الفراغ فى لون غبشة المغرب ، كانت تمشى فيه خائفة ، وإن لم يدرك كثير من الناس حقيقة دوافعها .

وأفاق شكرى على ضحكتها ، التى أيقظت كل شيء فيه حتى منابت الشعر ، وعاد يسألها :

ـ وما هو سر اهتمامك بى إذن ؟ !

فسرحت ببصرها نحو النافذة المفتوحة ، حيث كان نور بنفسجى من مصابيح الشارع ينصب على بعض الأشجار من بعد ، وتقلبت فى قعدتها كأنها تبحث عن وضع مريح ، وكان على وجهها جد أشبه بثمرات التجربة ، ثم ضمت شفة على شفة كأنها تذوق أفكارها قبل أن تنطق بها ، وقالت :

ـ إننى مولعة بالطريف من الأشياء ...

فقاطعها بضحكة ، كمن يعترض على ما تقول :

ـ وهل رأيتنى (شيئا) طريفا ... مبسم سجاير مارى أنطوانيت مثلا ، أو القلم الذى كان الشاعر بيرون يكتب به رسائله الغرامية ؟ !

ثم رفع إلى شفتيه كوبا مذهب الحواشى ، وارتشف قليلا من الليمون فى الوقت الذى وقفت فيه نظرتها كأنها مسحورة ، وعلى ملامحها شيء من الإعجاب ، واستدركت تقول :

ـ آه ... ربما كنت محقا فى بعض أوهامك ، لكنهم يقولون : عندما يلتقى اثنان فإن أكثرهما ثقة فى الآخر هو الذى يتحدث إليه عن نفسه .

وهأنذا سأتحدث إليك عن نفسى .

فاعتدل في جلسته ، وقد علته الطمأنينة ، واستمع إليها تقول :

ـــ إننى أحب الحياة فى أرعن صورة ... إن كان يعجبك هذا التعبير ... كما أحبها فى أغرب صورة ، وكلما ركبت البحر تمنيت أن تهب العاصفة ، وإذا مرضت لذ لى أن أصل إلى درجة الخطر ، ولذلك فإننى تعرفت بكل من ثار ضد الرأى العام ، ومددت يدى لكثير من الفنانين الذين لمحت فيهم مواهب أو أفكارا تمت إلى الرعونة أو الغرابة ، وقد كان هذا مثار خلاف بينى وبين زوجى باستمرار .

ـــ وأين هو ؟

ـــ ستعرف ذلك فيما بعد فلا تتسرع ، ودعنى أكمل ما أريد أن أقول فإن الحياة التى عشتها فى صدر شبابى ، كانت شديدة التناقض : فأنا بنت لأبوين شديدى التدين ، وتعلمت فى إحدى المدارس الأجنبية ، فكنت ألبس وأخلع كل يوم خصالا على درجة من التناقض ، تعادل ما يقع بين بيئة المدرسة وبيئة البيت ، وفى سن السادسة عشرة تقريبا أحببت حبا جارفا ، كنت أعتقد أنه يعذبنى طول الليل وطول النهار ..

وابتسمت ألفت هانم ، وسكتت قليلا ، وظلت نظرتها معلقة بوجه الشاب لتستمتع بما عسى أن يخمنه ، ثم ما لبثت أن قالت :

ـــ ألا تحب أن تجلس قليلا فى هذه الشرفة ؟ أعتقد أن الجو هنالك أكثر لطفا .

وكان هناك ثلاثة كراسى حول منضدة ، تطل على الحديقة من الناحية المضادة للشارع ، فلم ير شكرى إلا أنوارا متناثرة ، خلال أشجار حدائق البيوت الأخرى ، وبعض أشباح لناس يتحركون فى نور النوافذ ، ولم يكن فى الشرفة ضوء إلا ذلك المستطيل الذى يخرج من غرفة الصالون ، وأحس شكرى عندما اتخذ هذا المجلس أنه قادر أن يفعل أى شىء ، أو أن يقول

أى شيء ، لأن الظلام النسبى المسيطر على المكان ، والمنظر الندى على الرغم من حرارة الجو منحاه شجاعة ، كانت نظراتها القوية تذيبها أحيانا ، وأخذ بياض المروحة يلمع فى يدها وهى تحركها ، وبدا وجهها أكثر إشراقا ، وعطرها أكثر فاعلية ، وطاف بخاطر الشاب أن يبتهل إليها فورا ، ويجثم عند قدميها فيقبل أطراف ثوبها قائلا لها : لا داعى أن تحكى أى شيء ، فأنا مرتبط باللحظة التى أعيشها معك الآن ، تعالى نزاول الحب على طريقتى إن كانت تروقك طريقة يعسوب النحل ، فأنت تعلمين أننى لا أومن بشيء وراء الحواس .

وأحس برعشة كأنما هبت عليه روائح الشتاء من بين الأشجار ، فى الوقت الذى تنهدت فيه السيدة ، وبدأت تسأل :

ـــ آه ... ماذا كنت أقول ؟

ـــ والله لا أدرى ؟

فردت بلهجة فيها دلال وتأنيب :

ـــ يظهر أنك من الذين يتعجلون كل شيء قبل أوانه ... وعلى كل حال ... لقد كنت مثلك ، لكن ... ألا ترى أنه من الضرورى أن أحدثك عن شيئين أولهما ماذا لفت نظرى فيك ، والثانى عن حبى الذى لمحت لك عنه .

ولم تدعه يتكلم بل استطردت :

ـــ لقد رأيت فيك شيئا غريبا لم أعرف حدوده ، يوم كنت تتكلم ونحن عند صديقك (اللاعب) .

ثم ضحكت قائلة : فلما رأيت صراحتك فى التعبير عن شيء يعتبره الناس نقائص زاد فضولى نحوك ... هل تذكر ؟ لقد قلت لى إن كنت تكرهين النفاق ، فإن مثلى الأعلى هو ذاتى ، وبذلك يا عزيزى دخلت فى

حدود الرعونة أو الغرابة التى تفتنى ، أما الشخص الذى أحببته للمرة الأولى فقد كان أستاذا أجنبيا بالمدرسة يفصل بينى وبينه من السنين ما يفصل بينى وبين أبى ، ولم يكن محبوبا من معظم الفتيات ، لأنه كان لا يؤمن بأى شيء ولا يقدس أى شيء ... ابتداء من الله وانتهاء إلى المرأة . وعاش طول عمره عازبا ثائرا محموما ، ولكننى كنت أشعر بود نحوه ، وكم قررت فى نفسى أن أقول له فى إحدى الخلوات المدرسية : إننى أحبك ، وظللت هكذا حتى تزوجت من رجل معروف هو الآن فى السلك السياسى بعيدا عن مصر ، يعيش فى عزلة عنى ، ولم ننجب أطفالا لأنه لم يشأ ذلك ، فلما زوجونى منه سهرت أنشد الحب عنده ، وعشت على ذلك أكثر من خمس سنوات حتى بلغت الخامسة والعشرين ، ففطنت إلى أننى أحرق البخور عند أقدام صنم لا يعقل ، فانقلبت كارهة له .

ورد شكرى بشرود :

ــ ذلك طبيعى .

ــ ولكن الذى غاظنى أكثر أنه لم يأبه بما فعلت ، ولم يشعر أن كرهى فيه شيء يذكر ، فسهرت أبكى على ما فات ، على الشباب الذى كنت أستعجله لأتمتع بثمراته ، وعلى أننى ضيعت وقتا كان من المستطاع أن تنعم الفتاة فيه بأجمل ما فى الدنيا .

وسكتت قليلا ، وكأنما سكت معها الليل فسمع شكرى خفقان قلبه ، ثم عادت تسأله :

ــ ما رأيك إذن فى هذا النوع من الحياة ؟ ألا ترى أن صاحبته مظلومة ؟ !

فأدرك الشاب أن شأنها كشأن مثيلاتها ، يطلبن مبررا جديدا لكل خطأ جديد ، مثل المقامر الذى تعاوده الخسارة ، فيبررها بأن يطلب

التعويض ، فقال لها :

ـــ إننا لا نحاول أن نحلي بالسكر إلا الأشربة التى لا يمكن أن نتناولها بدونه . نعم ... نعم ... إنك تفهميننى يا سيدتى . وقد قالوا : إن حدوث شيء من الأشياء يعنى حتما وجود أسباب كافية لحدوثه ... فهل أنت محتاجة إلى من يبرر لك بعض سلوكك ؟ !

وفاحت من حديثه رائحة اتهامها بالجبن ، ولو أنها فى حقيقة الأمر كانت تريد شيئا واحدا . هو أنها لا تظهر بمظهر امرأة هلوك أمام شاب دعته للمرة الأولى ، كأنما فى أعماق كل امرأة ـــ حتى ولو كانت كذلك ـــ شيء يأمرها أن تقف مكانها حتى يذهب إليها الرجل ، خصوصا كثيرات الخطايا فانهن يعمدن باستمرار إلى أن يظهرن بمظهر الضحايا .

قالت ألفت هانم ردا على سؤاله بلين ووعيد :

ـــ غدا ترى أيها الشاب أننى أشجع مما تتوقع !

ثم خفقت بمروحتها على مقربة من وجهه ، فلم يسعه إلا أن يمسك بيدها البيضاء فى الظلام بكلتا يديه ، وعندما سقطت المروحة على المنضدة رفع يدها إلى شفتيه فقبلها فى نهم استسلمت له ، ثم ما لبثت أن ردته إلى صوابه قائلة فى نبرة حادة نوعا :

ـــ أخشى أن يكون الليل والوحدة والطبيعة قد أنستك نفسك !

وختمت عبارتها بضحكة ، ثم قالت :

وما دمت قد حدثتك عن نفسى ، فجدير بك أن تحدثنى عن نفسك ...

فقال لها شكرى :

ـــ أنا ... وأنا ... وأنا ...

وكانت هذه الذكريات تملأ عليه نفسه كلها ، وهو جالس فى تجاه أبيه فى القطار الذى يجرى بهم إلى الإسكندرية ، ليقضوا هنالك أياما بناء على دعوة محسن بك .

— ٣١ —

وبعد مرور ثلاثة أيام على إقامة الأسرة فى الإسكندرية بدأت سوسن تتبرم بالمدينة ، أما شكرى فقد كان لا يريد السفر إليها من أول الأمر .

كانوا مقيمين فى مسكن محسن بك الكبير الواسع ، وعندما يدخل الليل ، ويجتمع شمل الضيوف وأصحاب البيت ، كانت سوسن تتصور كأن أحد الكراسى الخالية كان عليه وحيد منذ قليل ، ثم قام لبعض شأنه وهو لا يلبث أن يعود ، ومن أجل ذلك رانت الوحشة على نفسها بعد الثلاثة الأيام الأولى ، ومن الغريب أن ذكره لم يجىء أمامها على لسان أبيها أو زوج خالتها ، حتى بدا لها ذات مساء أن تسأل عنه خالتها ولكنها لم تفعل .

وخافت سوسن من نفسها فى هذه الفترة ، وتمنت ألا تلتقى بهذا الشاب مرة أخرى ، وأن يقطع أبوها أيام الإقامة لسبب من الأسباب ، حتى تكون فى مأمن من ضعفها ، وإن وضعته هى بمحض خيالها على قمة من القمم ، فتصورته إنسانا لا يخون ولا يخدع ، ولا يقدم بتاتا على الصغائر ، ونسيت الهفوات التى وقعت منه فى الماضى ، بحكم أن الحب لا يعدم أرضا يضع عليها قدمه كما يقولون : ولكنها على الرغم من كل شيء كانت تخشى أن تفجع فيه ... أن تبرهن لها الحوادث بمنطقها على أنه صورة أخرى غير التى رسمها خيالها الخصب ، وعند ذلك فإنها

ستموت ، لأنها لا تستطيع أن تتصور نفسها فى موقف من حملت الوفاء والحب لقلب لا يحمل لها إلا الغش والنفاق .

أما وحيد ، فقد كانت حياته بلا محور كما وصفها هو ذات صباح ، شابا ضعيف الذاكرة فيما يتعلق بالماضى ، فلا يعيش طويلا فى الحوادث التى انقضت . وفوق ذلك فهو ضعيف الخيال فيما يتعلق بالمستقبل ، فلا يستطيع أن يرسم صورة تفصيلية لحياة يرجو أن يعيشها ، ولعل ذلك ناشيء من طبيعة عدم المبالاة التى ورثها عن أبيه ، ولكى يشغله شيء من الأشياء فإن أسبابه يجب أن تبقى ، وإلا ذهب أثره كما ينحسر الظل .

وكان فى قرارة نفس سوسن فكرة تعتبر جديدة عليها ، هى أن تختلى به إذا ما ساقته الظروف لتعرف بنفسها نهاية الشوط الذى رسمه وحيد إزاءها .

ولكن الأيام أخذت تمر ولم يظهر له أثر فى بيت خاله ، وأخذ القلق الذى ينتاب المسافرين ، وهم على رصيف المحطة بانتظار القطار يناوش قلب الفتاة ، فأخذت تميل إلى الحركة بشكل ملحوظ ، حتى طلبت إلى أبيها أن تشترى بعض خيوط الصوف ، وتشتغل بالتريكو فى فصل الصيف ، وكانت ترمى بإبرتها لتمسك كتابا ، ثم ترمى بالكتاب لتمسك قلما ، وترسم بعض الوجوه والمناظر .

وقد رسمت وجه وحيد من ذاكرتها عدة مرات ، رسمته باسما ، ثم رسمته مفكرا ، ثم رسمته أخيرا وهو تحت سلطان النوم ، كأنها تريد أن تقول إنه لا يحس بما تحسه حياله ، ثم مزقت كل هذا حتى لا تقع عليه عين .

ولم يكن القلق الذى يملأ نفسها بعيدا عن قلب أبيها ، فقد كان يحس بما تعانى ، ويتدبر ما ينبغى أن يفعل ، هل يفضى لمحسن بك بما تعانيه

بنته نحو هذا الشاب ؟ لكنه أدرك أن محسن بك يحس بما يدور حوله ، وكذلك زوجته ... هناك أشياء إذن لا يحسن القيام بها إلا ذووها ، فما عسى أن يفعل الأب ؟! هل يستل قلب ابنته من بين أضلاعها ، أو يغلفه بغلاف يعزله عن ذلك الإحساس الطبيعى ، الذى زينت الحياة به نفسها ، كما زينت لنا الأطعمة بما أودعته فيها من طعم ؟ !

وتنهد الأب فى الظلام ، حين تناولته هذه الأفكار ، فى الوقت الذى كفت فيه الفتاة عن الحركة ، لأن النوم كان قد أسكنها .

وفى الصباح التالى كانت سوسن راغبة عن الخروج إلى البحر ، كانت تحس بألم فى المفاصل ، لعله راجع إلى ارتفاع درجة رطوبة الهواء ، فضلا عن صداع واعتلال مزاج ، وحملق الأب فيها بعد الإفطار فوجدها حقيقة محتاجة إلى الراحة ، فتأوه قلبه فى صمت وتذكر زينب ... أمها ، فلو أنها كانت موجودة لألهمتها طبيعة المرأة مخرجا لهذا الموقف ، فنحن نفكر فى المشكلات بعقل الرجال فى الوقت الذى قد تكون المشكلة فيه محتاجة في واقع الأمر إلى قوة نسائية ، بل ... إلى الضعف الذى تفك المرأة به الأغلال من يديها ببساطة لا تستطيعها قوة شمشون .

ثم خرج الأب إلى الشاطىء ، وعندما سرح بصره فى زرقة البحر ، وألقى بسمعه إلى الموجات الواهنة ، التى تتكسر على الرمال ، كان يفكر فى أمر سوسن مرة أخرى ، ويدور فى المشكلة ويدور كأنه يلف طوقا . أما شكرى فقد كان مشغولا بشأنه فى أماكن بعيدة يتخيل كل قوام ، وكأنه قوام ألفت هانم ، وكل إشارة وكأنها موجهة منها إليه .

وعندما بلغت الساعة الحادية عشرة كانت السيدة اعتدال قد وصلت إلى الشاطىء ، ولم يبق فى المسكن غير سوسن ، وإثنان من الخدم كانا مشغولين بإعداد الطعام .

وما لبثت سوسن أن سمعت صوت شجار يتناهى إليها ، كان آتيا من أفواه الخدم وكانوا يتبادلون الاتهامات والسباب والوعيد بالشكوى إلى ربة البيت ، فى الوقت الذى كانت سوسن مشغولة فيه بالرسم من جديد .

رسمت شابا يغط فى النوم بينما جلست على مقربة منه فتاة يوارى شعرها معظم وجهها ... مطرقة فى حزن وتفكير .

وارتفع الشجار فى الجانب الآخر من المنزل ، وتساقطت بعض الأوانى المعدنية ، فجعل الفتاة ترجح أن اشتباكا قد حدث ، فقامت لترى ماذا هناك ، وكان حتما على الخارج من حجرتها أن يمر بالبهو الكبير محاذيا باب المسكن ، حتى يصل إلى حيث تقوم معركة الخدم ، وبينما هى فى طريقها إذا بالجرس يرن ففتحت الباب للطارق ... وفجأة أحست كأنها فى حلم فلم يكن الطارق سوى (وحيد) .

ولم يجىء أحد الخدم ، لأن الشجار كان لا يزال متصلا وإناء من النحاس يجلجل فى سقوطه . ومن خلال كل هذه الأصوات قال وحيد بعد أن عبر إلى الداخل ، وتلفت حوله كمن يستيقظ من النوم فيجد نفسه فى مكان غير الذى كان راقدا فيه :

ـــ هل هذا معقول ... سوسن ؟ !

وراعه منها التغير السافر الذى شمل جسمها كله ، فقد كانت أشبه بالناقهة من الحمى ، عيناها واسعتان ظللتهما أهدابها السود ، ومن تحتهما هلال خفيف بنفسجى اللون ، وفى أسفل الخدين ، وعلى ناحيتى العنق ، أوردة فى لون اللازورد ، وشفتها السفلى ـــ على الرغم من الانهاك الشديد ـــ كانت فى حمرة وردة لم تتفتح بعد ، وكانت فى ثوب منزلى أبيض بأزهار بنفسجية صغيرة كأنها قبلات الأطفال . كشف عن ذراعيها حتى الكتفين فبدت كطائر أليف تنذره الغريزة بأن خطرا على مقربة من

عشه .

وقال وحيد مرة أخرى :

ــ هل هذا معقول ... سوسن ؟ !

فبحثت عن ريقها ، ولو أن أسنانها كانت تلمع فى صفاء اللؤلؤ ، وقالت وهى تشير إلى الحجرة التى كانت فيها :

ــ نعم .. إلى هنا حتى أجىء .

ثم سارت تقطع البهو نحو الخدم ، ونسيت أن فى حجرتها شيئا سيراه الشاب .. فلم يكن الوجه النائم سوى وجهه ، أما وجه الفتاة المطرقة التى يغطى الشعر معظم معالمه فقد كان فيه ملامح ناطقة من وجهها هى . وجلس الشاب يتأمل الصورة ، وقد ملأه انفعال شديد حتى إذا ما عادت إليه وقفت كمن يضبط وهو متلبس بذنب . وكانت الصورة على منضدة صغيرة ، وعلى مقربة فراش نصب مؤقتا لحضور الضيوف ، وأمسكها وحيد بيديه ، ثم أخذ ينقل بصره بين الصورة وبين وجهها ، فى الوقت الذى كانت هى فيه منتصبة فى صمت كأنها تمثال ، وعض على شفته السفلى ، ثم أسبل عينيه ، وهز رأسه ، وجلس مبتسما على أقرب مقعد ، وكانت سوسن لا تزال واقفة فهتف بها :

ــ سوسن .. اجلسى .

وشعرت أنه يأمرها ، لكنها خضعت فى تخاذل فجلست على كرسى مواجه ، وحضرتها فى هذه اللحظة كل كلمات السمر التى دارت بينها وبين أبيها فيما مضى ، ولو أنهما لم يكونا وحيدين فى المكان ، وجرى فى بدنها تياران متوازيان لا يمكن لهما أن يلتقيا .. أحدهما نابع من قلبها ، والآخر نابع من .. من ضميرها ؟ .. من خوفها ؟ .. أو من الأنانية التى ــ وإن كرهناها ــ فإنها تقينا مما يدمرنا حتما ؟ !

لكن واقع الأمر أنها كانت خائفة منه . ولو أن المنزل لم يكن خاليا غير أن شعورها بالعزلة ، وبإمكان حدوث شيء ما جعلها كالطائر الذى تشعره الغريزة بأن خطرا على مقربة من باب عشة .

وتنهدا فى نفس واحد وسأل الشاب :

ــ رسم من هذا ؟ !

فردت فى وداعة :

ــ رسمى أنا .

فضحك ، لأنها تجاهلت سؤاله مستدركا :

ــ لمن الوجه النائم ، ولمن الوجه الآخر ؟ !

فردت ببساطة شديدة ، وهى تبتسم :

ــ لشاب وفتاة .

فحملق فى الفضاء قليلا ، ثم نظر إليها وود لو احتواها بين ذراعيه وأخذها وانصرف ، ثم أطرق نحو الصورة قبل أن يقول لها :

ــ هل أستطيع أن أعرف شيئا عن فكرتك فيه يا سوسن ؟ . أظن أنه قد آن لنا أن نتكلم بكثير من الصراحة .

وكان وجهه جادا أكثر من المألوف ، حتى بدا أقرب ما يكون إلى هيئة من يمتحنها ، لكنها سألته بدورها :

ــ فكرتى فيمن ؟

فهمس :

ــ الحب !

ــ إحساس مقدس يرفع إلى أعلى ، هكذا وصفه لى أول رجل أحببته .

ــ هل سبق لك أن ..

فقاطعته :

ــ نعم ولا زلت حتى الآن .

ورفت طيبة ملائكية على وجهها الشاحب ، حتى غدت أقرب إلى أن تكون طيفا ، مما جعله يعاود السؤال معتقدا أنها تقصده :

ــ ترى من يكون هذا الرجل ؟

ــ أنت تعرفه .. فهو في استقامة الشعاع ، وطهارة الندى .

فبدأ يتشكك في الأمر .. في أن إنسانا غيره هو المقصود بهذه الأوصاف . لكن الصورة التي بين يديه كانت وثيقة قاطعة بأنها تحبه حتى تناسى عيوبه كلها ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة مبهمة تحمل معنى الشكر ، مما جعل سوسن تقرر بينها وبين نفسها ألا تفجعه في أوهامه ، لأنه من الظاهر أنها كانت تقصد أباها بهذه الأوصاف ، ثم قال الشاب فجأة :

ــ ولماذا أنت هنا في المنزل ؟

ــ لأنني أشعر بوعكة .

فأسرع يحاصرها قائلا :

ــ هل من الممكن أن نخرج الآن إلى مكان آخر لنتحدث فيه بحرية أكثر ، ثم تعودي قبل الغداء ؟ !

وكانت هذه العبارة أشبه بالحجر الذي يرمى في البئر ، لكي يعرف عمقه ، وبعد صمت قليل شحب فيه وجه سوسن حتى صار في بياض الجير ، وانتظار طال أمده في حساب وحيد قالت بلهجة غريبة :

ــ ممكن .. ولماذا لا يكون ممكنا ؟!.. لكن ألم نختل من قبل في حديقة الفاكهة في أوائل الصيف .. ثم ..

ونظرت إليه بجانب عينيها :

ــ وأنت تعرف ما حدث .. لكن .. أنت ترى أن لهذه الحجرة بابين باب يؤدى إلى البهو ، وباب يفتح على السلم .. آه ..

وحملقت فى وجهه الذى غزته الدهشة :

ــ ومن الممكن أن أوصد بابي بحجة أننى نائمة .. وأقصد الباب المؤدى إلى البهو ، ويكون الباب المؤدى إلى السلم .. أنت تعرف الباقي .. لكن ليست العبرة بباب يقفل ، ولا بمكان مزدحم ولا خال من الناس .

غير أن وحيد أحس بسخرية غامضة تشوب كلماتها ، فلم يرد فى الوقت الذى مدت هى يدها وأخذت الصورة من فوق ركبتيه ، ثم قالت مبتسمة وهى تنظر إلى الشرفة الكبيرة :

ــ ومن الممكن أيضا أن تثب بخفة من هذه الشرفة ، فإن ارتفاعها لا يزيد على مترين .. كل هذا ممكن عند اللزوم ، وأسهل كثيرا من البحث عن مكان آخر !!

وارتجفت شفتها السفلى « فى انفعال خفيف » ، وكانت متسلحة فى هذه اللحظة بكل ما اكتسبته من تجربة وما مر بها من حوادث ، حتى كانت فى رقة السيف ومضائه فى وقت واحد ، فأخذت عيناه تذبلان فى نظرة طويلة حتى فاضت منهما عاطفة جياشة ، وهمس كمن يدافع عن كرامة مجروحة :

ــ سوسن .. ألا تحبيننى .. إن ذلك يعنى أن تثقى بى .

فابتسمت فى انتصار قائلة :

ــ إننى فاهمة موقفى جيدا .. إننى أتنفس رائحة الأزهار ولا أمضغها كما تفعل الماشية .. وهكذا تعلمت من أول رجل أحببته .. هل تفهم ماذا

أريد ؟

ولأول مرة شعر بالهزيمة ، فقد كانت مصاولاته قبل ذلك من نوع غير هذا ، ولم تكن الأغنية التى يرسلها فى الليل لامرأة أكثر من شبكة ينصبها لها ، أما هنا فقد اختلف الموقف ، فرأى نفسه وقد هزم بسلاح لا يرى ، وهى على خوفها من نفسها قد استطاعت أن تقهر خوفها من ضعفها ، فلم تعد ترى الأشباح فى الظلام ، مثل صغار السن ، لأن الأشباح فى نفوسهم لا فى جوف الليل . وعندما يمنى الرجل بالهزيمة فإنه يحاول أن يحدد المعركة ، وهكذا فعل وحيد ، قال :

ـــ لعلك كونت عنى فكرة ببعض نزواتى ، لكننى فى الحقيقة أكبر مما تتصورين .

ثم سكت برهة ليستدرك :

ـــ إننى لم أنس شيئا مما فات يا سوسن ، ولكننى حتى الآن أشعر بأننى لست أهلا لامرأة فاضلة .

كان يريد أن يضع نفسه فى أبخس كفة ليرى حكمها عليه ، فردت فى عتاب :

ـــ لقد وضعتك فى غير هذا المكان ، فلا تحاسبنى على عقيدتى .

فاغرورقت عيناه بالدموع ، ومد يده فأخذ الصورة من فوق ركبتها ، ثم نشرها أمامه ، وجعل ينظر فيها بكل حواسه وقال لها :

ـــ لو فرضنا أن هذا النائم استيقظ من النوم ذات يوم ، ونادى على الجميلة المطرقة فهل ترد عليه ؟

فأومأت برأسها وهى مطرقة :

ـــ نعم .

فعاد يقول :

ــ ولو فرضنا أن حياة هذا الإنسان محتاجة إلى ترميم وإصلاح ، مثل البيت القديم الذى ذهب طلاؤه وتحولت حديقته إلى حرش من الأحراش ، فهل تقبل صاحبة الوجه أن تتحمل أعباء الإصلاحات ؟

فأومأت برأسها وهى مطرقة :

ــ نعم .

ــ ولو رحل إلى البرازيل أو بقعة أخرى من الأرض على ظهر إحدى المراكب التجارية ليبنى حياة أكثر سعة ورخاء ، أو يموت هناك ، فهل تتبعه ؟ !

فأجابت مطرقة فى ابتسامة :

ــ على ظهر المركب أو سابحة وراءه فى الماء ؟ !

فتأوه .. ثم سكت .. ثم قال :

ــ لكن .. إنه لا يرى نفسه أهلا لكل ذلك !

فعضت على شفتها ، وأجابت وهى تبتلع ريقها :

ــ على كل إنسان أن يختار المكان الذى يجلس فيه .. فإما أن يكون على كرسى القاضى فيحكم ، وأما أن يكون بين الجمهور فيسمع الحكم .

ــ آه .. حسنا .. يخيل إلى أننا نشعر أحيانا ، وبطريقة مفاجئة ، بأشياء تكون كامنة فينا من زمن .. كأنها بعض الأمراض والعلل ..

وابتسم .

ــ نعم .. وهو نفسه علة من العلل .

وعندئذ دقت ساعة البهو مؤذنة بانتصاف الثانية . فنهض وهو يقول مبتسما ومعرضا بما فات :

ــ هل تسمحين فتدليننى على الباب الذى أخرج منه .. عن طريق

البهو أو السلم أو عن طريق الشرفة ؟

فأجابت بتؤدة ، وكأنها أكبر منه سنا :

ــ إذا كنت قد عملت ما تستحى منه فاخرج من باب لا يراك منه الناس !

فصافحها بإكبار ، وتحول إلى البهو ، فلما خرج إلى الشارع أحس كأنه أفاق من حلم ، وسار وهو يحدث نفسه قائلا : إنه شيء دقيق جدا فى دقة الشعرة ، يفصل بين الأحداث العظيمة وأضدادها . فما بين السقوط فى الهواء والحيدة عنها إلا وهلة هى طرفة عين ... فاصل أدق من الشعرة أيضا يفصل بين الحياة والموت والفضيلة والرذيلة .. لقد كانت سوسن اليوم فى قوة عالية على الرغم من أنها تحبنى ، فلو أوصدت عليها الباب ما أصابها ضعف .

ثم تذكر حياة (البنسيون) وصاحبته الجديدة ، والجار العجوز الذى طرقت عليه صاحبة النبسيون بابه فى الضحى ، فإذا به ميت وحده ، والملعقة فى كوب الدواء الذى لم يشربه ، ومصباح الكهرباء مضيء فوق شحوب الفناء ... والنوافذ كلها مقفلة عليه .

ثم سأل نفسه : بأى شيء انتصرت على هذه الفتاة ؟ إن من خلال جسمها الضئيل ووجهها الشاحب ، رأيت قوى متتابعة تلقانى كأنها كتائب ، أنها أحبتنى فى صمت ، وكانت مخلصة فى أن تجتذبنى إلى عالمها ، وبالحب استطاعت هذه الفراشة أن تحملنى إلى أعلى ، إنها مستعدة أن تسبح خلف الباخرة التى أسافر عليها ، وهى مع ذلك لم تمنح ما يمنحه المدلهون فى العادة فلماذا ؟ !

وخيل إليه أنه يسمع صوتها يقول بلهجتها الفاترة المتراخية النفاذة :

ـــ ألم أقل لك .. إنه إحساس مقدس يرفع صاحبه إلى أعلى ؟ ... هكذا تعلمت من أول رجل أحببته ... أبى ! .

* * *

ـــ أوه ... ها هو ذا قد ظهر بعد غيبة طويلة ... انظروا .

بهذه الكلمات هتف محسن بك ، وعلامات الحبور تتراقص على وجهه ، وهو جالس فى الكابين عصر اليوم نفسه مع عزت وشكرى .

وقبل أن يلتفت عزت ليعرف من القادم أيقن أنه (وحيد) ، لأنه يعرف كيف تنطق ملامح خاله عندما تقع عليه عيناه .

وكان اللقاء حارا بين الأربعة ، فتبادلوا القبلات كما يفعل أفراد الأسرة الواحدة ، حتى إذا ما جاء دور عزت ، ووضع ذراعه على عاتق الشاب ليقبله أحس فجأة بخفقة قلبه ... وشعر كأنه لا يريد أن يفلته من بين يديه ! لأنه قبل أن يجىء إلى الإسكندرية عرف تفاصيل عاطفة سوسن نحوه حين دخل حجرتها فى إحدى الليالى وهى خارج البيت ، وفتش عن الكراسة التى كتبت فيها مذكراتها .

وعاد محسن بك يقول بلهجته الطلقة وحبه المترقرق :

ـــ وهل مررت على القرية ، ورأيت أمك فى هذه الفترة ؟

ونظر إلى من حوله مفسرا :

ـــ لقد أصبح هذا الولد رجلا عظيم الشأن .

وقهقه فى تصاب ، وهو يهم بإشعال السيجارة ثم استطرد :

ـــ لقد رضى الله عنه بعد أن رضيت عنه أمه ، فأصبح مندوب البيع لشركة الأخشاب في الوجه البحرى كله ، وهو لذلك كثير الأسفار ، وقلما نراه .

ونطق شكرى مداعبا :

ـــ ولعل لنشاط رياح الخماسين دخلا فى حسن حظك يا أستاذ وحيد فتزيد مبيعاتك .

ولم يلبث الخال أن عاد يسأل ، وكأنه تذكر شيئا :

ـــ لكنك لم تخبرنى عن حال أملك !

فقال الشاب من خلال ابتسامة :

ـــ أنت تعرف المسألة الوحيدة التى تشغل اليوم بالها يا خالى ... لا شيء غيرها !

وفى هذه الوهلة كان عزت يسأل نفسه : هل مر وحيد على بيت خاله قبل أن يجيء إلى هنا ؟ ! ولماذا لم يسأل عن سوسن ، وأخذ يتأمل ملامحه كأنه رسام يفتش عن اللمسة التى ينبغى أن تكون قوام عمله فى تعابير الوجه ، وكان قلبه مسرحا لانفعالات لا توصف ، هى الخوف والرغبة والحب والأمل فى خليط واحد ، وعادت إلى ذهن الأب كلمة ابنه عن رياح الخماسين ، فخيل إليه أن الشاب يمثلها ، وأن قلب سوسن حيالها كحوض من الأزهار كتب عليه أن يتعرض لهبوبها الذى لا مفر منه ، فهز رأسه كأنه يؤمن على كلام فى اللحظة التى نظر فيها محسن بك إلى ابن أخته ، وهو يشير بذراعيه مفتوحتين كحركة (مايسترو) قائلا :

ـــ إنها على حق ، وطلبها (عريضة) وقع عليها القلب والطبيعة معا . ثم ...

وقطع كلامه ، ونظر لمن حوله فرأى علامات الانزواء بادية على عزت وشكرى ، كأنهما أحسا أن هناك سرا ينبغى ألا يصل إلى سمعهما ، لكن محسن بك ما لبث أن أفصح بعد أن تلفت كأنما ليتأكد من شخصية الحاضرين :

ـــ إنها مريضة وأنت ولدها ، ثم ألا تريد أن تتزوج طول الحياة ؟

فابتسم وحيد ، وشمله إحساس حذر جعله يزداد تراخيا على كرسى القماش ، وما لبث أن جاء صوت خاله يحمل فى نبراته معانى الزجر والتهكم قائلا :

ـــ لقد أصبحت فى حالة اقتصادية معقولة ، وعمر جاوز الثلاثين ... فإن كنت تحب فتزوج ... وإن كنت لا تحب فتزوج أيضا ...

وضحك شكرى حتى اهتزت عظام صدره وهو يتمتم :

ـــ معقول .. معقول .. ضرورى .. ضرورى .

ونظر الأب إلى عينيه فرآهما لا تعبران إلا عن أبخس المعانى ، فشعر بضيق حيال ابنه ، لأن الأب كان مشغولا بما عسى أن تئول إليه العلاقة بين وحيد وابنته التى تحبه ، فقال موجها الكلام لشكرى ، وعلى ملامحه الطيبة كثير من الجد والصرامة :

ـــ لقد نسيت يا بنى أن هناك صنفا ثالثا من الشبان ... فهناك ناس لا يحبون ولا يتزوجون ! يعنى ...

وتدخل محسن بك بطريقة مرحة خففت من القتامة التى كانت على قلب عزت ـــ حين أشار محسن بك إلى عدة قلاع لمراكب صيد على أفق البحر أو قريبة منه ، وقال وهو يضحك :

ـــ نعم ... نعم . وهذه هى الطائفة الثالثة ... لكنها ترمى بشباكها على الأرض . ها . ها . ها ، والويل للطيور التى تسقط فيها ؟ !

وتذكر محسن بك فجأة ذلك الميل الذى شهده بين وحيد وسوسن ، فكف عن الحديث ، وظلل المجلس صمت كان وحيد فيه يتلفت فى كل اتجاه كأنه يفتش عن شىء ضاع .

أما شكرى فكان منكمشا فى قميصه ينظر إلى الفضاء المترامى بعينين فارغتين ، على حين استطرد عزت يقول ووجهه فى وجه وحيد :

ـــ بعض الطيور يعرف الشباك بغريزته وبعضها ... سبق له أن سقط مرة وخرج منها سليما ... فهو يعرفها بالغريزة والتجربة معا .

وأحس وحيد أن الأب يجوس خلال نفسه ، كأنه خاطر من خواطره الشخصية ، وكأنه يعرف كل ما فعل ، وجعل يفكر : هل من المعقول أن تقول له سوسن أى شيء ، ثم رفع صوته ليقول شيئا ما :

ـــ على كل حال ليس كل الناس مغرمين بنصب الشباك .

فرد الأب ضاحكا :

ـــ وعلى كل حال ليس كل طير يسقط فى الشبكة صالحا لأن يؤكل ... ثم أخيرا ، وبمرور الزمن سيجلس الصياد عاجزا كهلا ، على مقربة من شبكته الممزقة التي تتخذها الطيور ملعبا لها .

وشعر محسن بك أن ابن أخته فى حرج ، فقال مخففا من الموقف :

ـــ ليت أختى كانت حاضرة فى هذا النقاش ... من المؤكد أنه كان يعجبها ، والذى يعجبها أكثر هو أن تمسك بأذن ابنها هذا ، وتشدها فى عصبية وتصرخ بأعلى صوتها :

ـــ لا تعش مثل الكلاب الضالة ... تزوج ... تزوج ...

ثم نظروا إلى قرص الشمس الذى كان على وشك أن يغمس حافته فى البحر ، وازداد النسيم رعونة ، وأخذت الأمواج تتوافد إلى الشواطىء ، وكأنها تحمل شخاليل فضية قوية الصوت .

فجمع محسن بك أدواته المعروفة مؤذنا الجماعة بالانصراف .

ــ ٣٢ ــ

ــ « عندي شيء يجب أن أقوله لك يا سوسن » .

وارتجفت كفها الصغيرة قليلا في كف أبيها ، وهما سائران على الشاطيء بعد الحوادث التي مرت بيومين اثنين ، وكان الوقت ليلا والسائرون قليلين ، ونظرت الفتاة إلى المصابيح التي عتمتها الرطوبة شيئا ما ، ثم أجابت وكأنها تتنهد :

ــ تحت أمرك يا بابا !

وأطرقت تنظر إلى مواقع أقدامها ، ونشيش الأمواج والسيارات المترادفة يصنع موسيقى رتيبة تنصب في أسماعهما ، قال الأب :

ــ افرضي أن إحدى صديقاتك اختلت بك ذات مساء على هذا النحو ، وسألتك عن رأيك في شاب مثل (وحيد) لأنه تقدم لطلب يدها فماذا كنت تقولين لها ؟

فأخذت الفتاة تبحث عن ريقها وكلماتها ، وأحست فجأة وكأن كل ما وقع بينه وبينها لم يكن إلا في الأحلام ، وأن الموقف الحالي بينها وبين أبيها ليس إلا امتدادا لهذا الحلم ، ولم تشعر أن صمتها قد طال حتى قال أبوها وقد عاد يمسك كفها الباردة :

ــ على أنه لا يصح أن تخدعي صديقتك يا سوسن ... نعم يجب أن تحدثيها بكل صراحة ما دام الأمر مرتبطا بحياتها المستقبلة .

فقالت مترددة ، وكأنها تقرأ الكلمات على لوحة بعيدة لا تكاد تراها :

ــ في بعض الأحيان .. يكون .. حكما مهزوزا .. لأسباب أهمها العاطفة . ولذلك .. كنت أستمهلها قليلا حتى ..

وسكتت مرة أخرى ، وعادت تنظر إلى الطريق ، وتتأمل جماعة من الشاليهات على يمينها كان المصطافون قد رحلوا عن معظمها ، فبدت فى الظلام كأنها قمم متفاوتة فى الارتفاع ، وتخايل شبحه هناك أمام عينيها ، وكأنه يثب بين المرتفعات ، ثم أفاقت على ضحكة أبيها يستحثها على الكلام :

ــ هيه ...

فقالت الفتاة :

ــ إذا كان لها أب تحبه مثلما أحب أبى فعليها إذن أن تسمع إلى نصحه .

ــ إن الآباء لا يتزوجون بالنيابة عن أبنائهم ... يخيل إلى أن المسألة تكاد تكون شخصية .

ولما لم يأته منها رد استطرد يقول :

ــ وإذا كان الآباء ينظرون إلى تعادل الكفتين أيام الخطبة ، فهل يستطيعون أن يأخذوا على القدر عهدا ألا يدخل على الميزان ما يفسد اتساقه ! آه ... ها أنت ذى ترين يا بنيتى أن الأمر كله لا يعدو أن يكون اجتهادا فى اجتهاد ، أما السعادة ... فهى من عند الله .

وعاد يستعرض سنوات الصفاء والوفاق التى عاشها مع زوجته ، تذكر حادثة صغيرة أضحكته وقعت له فى الفندق الذى نزلا فيه إبان رحلة شهر العسل .. هنا فى الإسكندرية .. وربما على مقربة من المكان الذى يسير فيه الآن مع سوسن ، فقد أصيب عزت أيامها وهو (عريس) بنوبة زكام حادة جعلته منفوش الأنف عاجزا عن التنفس ... وفى الليل كانت عروسه الحسناء لا تفتر عن حك أنفها بأنفه فلما سألها : « لماذا ؟ ! يجب أن تكفى حتى لا تصابى بالعدوى ، أجابته ببساطة وطيبة : أنا لا أفكر فى



فقالت الفتاة : اذا كان لها اب تحبه مثلما
احب ابى فعليها اذن ان تسمع الى نصحه

العدوى ، ولكنه ما دام من غير الممكن أن أحمل عنك هذا فلماذا لا نتساوى فيه ؟ وعادت تحك أنفها بأنفه ، وتغمر وجهه بالقبلات .

أما سوسن ، فقد كانت فى هذه اللحظة تنظر إلى البحر ، متصورة أن وراء هذا الأفق الأسود سفنا تمخر ... ومن بينها سفينة تحملها هى و (وحيد)، وهما بمتاع قليل فى طريقهما إلى مكان من الأرض يطلبان فيه عزا أوفر ...

ــ لماذا لا تتكلمين يا سوسن ؟

وكان الحنان يصبغ نبرته ويرعش صوته ، أما هى فكانت تحملق فى الفضاء ، ثم ردت على أبيها :

ــ بابا أنت تعرف كل شىء ...

ثم استدركت كأنها أخطأت :

ــ أريد أن أقول : إن ثقتى فى معرفتك لا حدود لها ...

ومن خلال ابتسامة عذبة فيها حياء الخائف استطردت :

ــ لا أستطيع أن أتخيلك يا بابا عاجزا عن الإجابة عن سؤال ، حتى ولو كان متعلقا بشىء يجب أن يدرس ولم تدرسه ...

وانقطع نفسها عند هذا الحد ، فتوقفت عن الكلام ، وضحك الأب فى سعادة ، ثم قال بهمس خلع عليه الليل جلالا ولذة بعد أن عاد فأمسك كفها برفق .

ــ إن وحيد قد طلب هذه اليد ! ؟

فأطرقت ولم ترد ، ومرت سيارة بالقرب منها كان فيها راديو مرتفع الصوت يرسل أغنية من أغانى الحب ، فأحس عزت بكفها ترتعش ، فابتسم ثانيا عندما تصور أن الموافقة عن ربط حياة بحياة قد تأتى على هيئة (رعشة يد) ، ثم رفع الأب صوته قائلا :

ـــ إذن ... مبروك !

وكأنما كانت هذه الكلمة بابا ضخما أخذ في التحرك فسمع الاثنان صريره ، باب على سور سيفصل بين هاتين الروحين الصديقتين .. فقد أشاح كل منهما بوجهه ناحية مضادة للآخر ليسمح لدمعة فرح وحزن أن تغادر مآقيه ، وكان الأب قد ترك كف فتاته فحتم السير أن تكون بينهما مسافة ، ولما فطن إلى ما حدث عاد يجاور ابنته ، وكأنه يريد الالتصاق بها . وراود خياله مقدما أن يصبح في حجرته سرير خال ، وأن يلتقي وجها لوجه مع ابنه الشارد الغريب ... فأحس كأن يدا تعصر قلبه . ولم يدر لماذا تذكر حادثة موت (زينب) زوجته ، وتخيل فاطمة وهدان تسعى إليه ، وهو راقد في مستشفى لتسأل عن صحته ، وشعر كأن إحدى عينيه مهددة بالظلام فعاد يسأل نفسه في هيئة تأنيب :

ـــ لماذا ؟! ... أليست هذه سنة الحياة ؟

ثم أفاق على صوت سوسن ، وهي تقول له برفق ؟

ـــ بابا ... إننا وصلنا ... أتحب أن تعرج من هذا الشارع ؟

وكان محسن بك شديد السعادة بما حدث ، إلى حد أن السعادة استخفته حتى جعل الفتاة بين يديه الضعيفتين محاولا رفعها إلى أعلى ، وهو يقول :

ـــ مبروك أيتها اليمامة ... أيتها اليمامة ، ولن ترشي على طبقك فلفلا بدل الملح بعد اليوم أيتها اليمامة ، وسأبحث لبابا عن عروس بعد رحيلك حتى لا يشعر بالوحشة أيتها اليمامة .

وكانت خالتها اعتدال تؤمن على كل هذا بهزات رأسها ، وعلى فمها المجعد عند الزاويتين ـــ ابتسامة راضية .

أما شكري فقد كان ينظر إلى الموقف نظرة فاقد الشهية إلى الطعام

الجيد ، فهو يعلم حتما أن مثل هذه النتائج طيبة جدا بالنسبة للأغلبية من الناس ، وإن كان هو شخصيا لا يوليها إهتماما عاطفيا حتى الآن ، ومع أن الموضوع شديد الملاصقة له فقد أحس كأنه انتصار على شاشة السينما لقصة حب ولدت بين قلبين ، وتمنى فجأة لو كتبت له أن يجرب هذا القلق الوجدانى الذى وصفوه ، فهو لا يعرفه إلا عن طريق اللمس ، ثم ظلت مظاهر السعادة التى غمرت الخطيبين شغل من حولهما حتى انقضت فترة الإجازة .

* * *

وكان هذا الخريف بالنسبة لهذه الأسرة ذا أيام حاسمة ، فلم تذهب الفتاة إلى الجامعة كرغبة وحيد الذى قال لها : إنها ستتعلم منذ الآن فى مدرسة الحياة والبيت والأمومة . وكل شيء يحتاج إليه الزفاف يعد على عجل ، فى الوقت الذى كان شكرى فيه يتم دراسته فى السنة الأخيرة ، وشعر الأب فى هذه الأثناء بما يشعر به أصحاب الرسالات عندما يرون أنهم أصبحوا قاب قوسين من أداء المهمة ، وكانت السيدة اعتدال ومحسن بك ووحيد كثيرى التردد على القاهرة فى فترة التجهيز ، مما جعل البيت يمتلىء بأنس ومشاغل أكثر من العادة كأنها تعويض سابق عما سيشمل أركانه من سكون .

وفى هذه الفترة المرهقة المحمومة فى حياة كل أسرة ... الفترة التى تجند فيها كل الاقتصاديات والوجدانيات لنقل الفتاة من بيت أبيها إلى بيت زوجها ، على الطريقة المصرية ـــ فى هذه الفترة كانت العلاقة بين ألفت هانم وشكرى فى سبيلها إلى الازدهار .

ففى الليلة التى عاد فيها من الإسكندرية نزل إلى حيث طلبها بالتليفون ، وكانت إحدى أشجار الشارع تخشخش على مقربة منه بهواء

الخريف ، وتسقط أوراقها أمام عينيه وأذانه على السماعة تلتقط فى ترقب وقلق انقطاع الرنين الذى يدل على اتصال السكة ، لكن ... بعد دقيقة واحدة خيل إليه أنه يدق جرس حوش فى إحدى الجبانات ، وتخيل البيت وقد أقفلت كل نوافذه وأبوابه وعمه الظلام فانقبض صدره ، وزوى ما بين حاجبيه ، وعاود المسألة فى اليوم الثانى والثالث والرابع ، فلما لم يتغير الموقف بدأ يعتبر الأمر كأحد أحلام المراهقة التى يبدد الصباح شملها ، ثم أحس بعد بضعة أيام أنه مجذوب بالنسبة إليها ، وإن كان فى قرارة نفسه يشعر بوجل كما تنظر من أعلى جبل إلى القرار السحيق .

وأدار رقم تليفونها مساء يوم آخر ، فألقى الطريق مشغولا ، عندئذ وضع السماعة بعد أن سمح لخياله أن يتحرك فتصور أن (اللاعب) مختار هو الذى يكلمها ، وأن العلاقة عادت بينهما إبان الفترة التى غابها هو عن القاهرة .

لكن قلبه لم تعذبه الغيرة ، لأن الأشياء التى يطلبها من امرأة ما كانت تعدو ما يطلبه من أى مومس قد يحبها جدا وقد يسهر مفكرا فيها ، لكنه مع ذلك لا يجد مرارة قلبية فى انتظار ساعة فراغها له ...

وتنهد ثم أدار القرص ، وجاء صوت نسوى كان قريبا من التليفون ، كأنه لغانية مخمورة سحبها الرنين قسرا من حلم شائق ، وأجاب شكرى وحلقه جاف .

ـــ هل أستطيع أن أكلم السيدة ... من فضلك ؟

فأفاق الصوت قليلا كأنما نفض عنه بعض نومه ، وقالت صاحبته وكأنها عاملة تليفون فى فندق كبير تحاول أن تتذكر اسم السيدة المطلوبة :

ـــ آه .. أى .. ممكن .. أقول لها من ؟

ـــ أنا شكرى ...

وأفاق صوتها من النوم أكثر من قبل ، وقالت بلهجة الوصيفة التى تحرص على راحة سيدة عظيمة :

ــ حسن ... حسن ... لكن هل أخذت حضرتك ميعادا من الهانم .

فرد متلعثما :

ــ لا ... لكننى أرجوك أن تبلغيها اسمى .

وبدأ الصوت أكثر صفاء كأنما ولى عنه النعاس ، وقالت صاحبته بلهجة سيدة تعودت أن تأمر :

ــ ليست المسألة بهذه البساطة يا سيدى ... هل سبق لك أن قابلتها ؟ !

وتعجب الشاب من هذا السؤال ، وخاف من الجواب ، وسكت هنيهة وعاد يقول بصوت حاسم :

ــ هل مقابلتى السابقة ضرورية لكى تبلغيها اسمى ؟ إننى يا سيدتى فنان ناشىء وقد وعدتنى بأن تمد لى يد المساعدة ، أبلغيها اسمى إذا تفضلت .

فسمع ضحكة مخطوفة جمعت بين التغم والرغبة كاد الشاب يجفل بعدها ويضع السماعة ، إذ رجح أنه أخطأ الرقم ، ولكنه كف عندما سمع صاحبة الصوت تقول بلهجة مستأنسة :

ــ أنت أيها الفيلسوف ؟

فتنهد وقال بانكسار :

ــ آه ... نعم ... أنا !

وترقب أن تدعوه لكن الصمت امتد بينهما فقال بتوسل :

ــ ممكن أن ...

وابتلع بقية عباراته ، فقالت هي بطريقة من يريد أن يستخلص وقتا :
ـــ الليلة ؟ آ .. غدا .. آ .. لست أدرى .. ربما .
ثم استأنفت كمن وجدت حلا :
ـــ لكن ... اسمع . هل تستطيع أن تجىء بعد ساعة ؟
ـــ شكرا ! ...

وكان القطار المتجه إلى حلوان مزدحما بالركاب ، وكان مقعد شكرى قريبا من ثلة من الشبان يبدو أنهم طلبة جلسوا يتمازحون ويضحكون ويتكلمون بالتورية عن فضائح شخص كانوا يرمزون إليه بكلمة (صاحبك) ، ولم يكن خافيا على شكرى ولا على الركاب من هو (صاحبك) هذا لأنه لم يكن للناس من حديث سوى النزوات الملكية في ذلك الوقت ، وجعل شكرى يتأمل الظلام الراكد على كهوف الصحراء ورمالها ، وأذنه تلتقط صفير أحدهم ، وهو ينغم النشيد الوطنى فى الوقت الذى كانت البقية فيه تضحك من نكتة أرسلها واحد على (صاحبك) ...

حتى وقف القطار فى المعادى ، وسار الشاب يتلمس الطريق بكل حواسه ، وما لبث أن لاح له الميدان المستدير ... ترسم حدائق البيوت اطاره الأخضر ، ويقع فى سرته عمود مثلث المصابيح ، وكانت أرض الشارع مليئة بأوراق الشجر ، وفى الجو رائحة عذبة لو شمها وجدان غير وجدانه لأنتج قصيدة أو لحنا .

ونظر إلى شجرتى السرو ، وهما فى ثياب الليل ، وقرع جرس الباب فنبح الكلب ثم فتح له وجه مستريب حملق فيه بعينين فى إحداهما رمد مزمن ، واتخذ طريقه المعروف حتى وصل إلى الطابق الثانى فألفى الباب مفتوحا والسيدة ألفت هانم جالسة فى المدخل .

كان نور الأباجورة مسكوبا على روبها الحريرى الذى يشبه لون البرقوق ، وكانت على وجهها وأطرافها سمرة الشاطىء ، وعلى بدنها إجمالا أمارات الراحة ، وكانت عيناها الغجريتان أمضى سلاح فى وجهها ، فأرسلت بهما إلى الشاب الجالس تجاهها نظرة جانبية ، فعلت ما يفعله الماس فى الزجاج ، ثم سألته :

ــ هل سألت عنى قبل ذلك ؟

ــ مرارا .

فقالت فى دعابة :

ــ ولم تجدنى ؟

ــ إنك لم تغيبى عنى .

فعادت النظرة الجانبية تتسلل من أهدابها ، بطريقة تشى بعدم الثقة مع كثير من الدلال ، واضطجعت فى كرسيها إلى الخلف ، ثم وضعت ساقا على ساق . وأعادت تنسيق أذيالها حول رجليها ، ثم نظرت إلى المصباح مرة وإليه مرة أخرى ، وقالت له :

ــ هل تشعر بالحر ، أتحب أن نجلس فى الشرفة الواسعة ؟

ولم تنتظر رأيه ، بل نهضت فنهض خلفها .

وأشعلت نور الشرفة ريثما استبانا مكانيهما حول منضدة كانت معدة ، ثم أطفأته مكتفية بنور النجوم ، والشعاع الآتى من الداخل ، وكان على المنضدة شراب وملحقات من اللحم البارد ، وما يمكن أن يسمى عشاء خفيفا ، وفى السماء صفاء ، وعلى ذوائب أشجار الحديقة تحت أعينهما قد استكان الليل .

وظلل صمت كان ضروريا لوهلة . كانت ألفت هانم فيه تتخير بطريقة الخبيرات موضوع الحديث ، وكان شكرى فيه مخطوف القلب والحواس

يعجب — لأول مرة — كيف أن لقاء جميلا غير منتظر يفعل بالحواس ما يفعله لقاء قاطع الطريق .

وقدمت له سيجارة ، فنهض يشعل سيجارتها ، وعلى ضوء الثقاب عاد فرأى وجهها عن كثب ، وشم رائحة ظلت عالقة بأنفه حتى آخر حياته ، رائحة عطر ممزوجة بعرق ، وعلى حواشي كل هذا روائح فرعية أخرى من الحديقة ، والنبات الذى يتنفس فى سكون . امتزجت كلها فى هذه الوهلة .. وهلة إشعال السيجارة من عود الثقاب .

وسألته فجأة وهى تصب له شرابا :

— كيف عشت حياتك يا عزيزى ؟

فرد متعجبا يسأل :

— حياتى ؟ !

— نعم ... وهل تستطيع أن تحيا حياة غيرك ؟ !

— لا . نعم أنت على حق . إننى أشعر أننى أعبر قنطرة لا تؤدى إلى أرض ، لكنها ستنتهى فى يوم من الأيام ... فهل تستطيعين أن تتصورى هذا ؟ ! وهذا هو الخيط الأساسى لحياتى كلها . ولذلك فأنا أحياها جزءا جزءا ، وما دمت لا أستطيع استرجاع الخطوات التى قطعتها ، ولا التوقف على القنطرة ولا رؤية أرض فى نهايتها مهما حملقت فإننى أخطف كل ما يمكن خطفه ...

وضحك ثم سكت ، وأخذ يمضغ شيئا فى الظلام فى الوقت الذى كانت فيه السيدة تراجع أفكارها ، فوجدت نفسها تحيا هذه الحياة مع فارق واحد ، لكنه كبير هو أن العمر تقدم بها ، وأنها بعدما تسترد منها الطبيعة بقية الزينة التى تجذب بها الرجل ، فإنها ستجلس فى انتظار شىء مخيف ، مخيف !

وسحبها من خواطرها صوته يقول من جديد :

ــ وإذا كنت يا سيدتى من الذين يرتضون هذا اللون من الحياة ، فإننى لا أجبن بتاتا عن أن أقول لك إحساسا شخصيا .

ــ هيه ...

ــ هو إحساس بالغيرة من سلوك رجل مثل أبى !

ــ لماذا ؟

فقال ضاحكا :

ــ لأنه قادر على أن يتلذذ بالتفاحة التى لا يأكلها ... التى لا يأكلها ... وعلى أن يرى فى كل مأساة حكمة صنعها له صديقه الكبير ... الله ... وهو بعد ذلك يزعم أنه يرى فى نهاية القنطرة التى نعبرها أرضا خضراء ، هل سبق لك أن حسدت إنسانا يضحك من قلبه بلا دافع ؟ ... هذا هو موقفى من أبى !

فقالت السيدة تستذكر شيئا قديما :

ــ هل سبق لى أن حدثتك عن المدرس الأجنبى الذى كان من سن أبى في مدرستى ؟ ! أظن ذلك . كانت أفكاره عن الحياة هى نفس هذه الأفكار ، وقد عاش عازبا ثائرا طليقا لكنه مات تعيسا آخر الأمر ، وهذا ما أخافه .

ثم أردفت بلهجة من يعتذر :

ــ لكن لا تدعنى أعكر صفو ليلتنا بذكر أى مأساة .

ثم قالت متعللة :

ــ آه ... على أن النهايات المتشابهة ليست ضرورية الحدوث . إذا تشابهت حياة شخص وشخص .

وسكتت السيدة ، فى الوقت الذى لعب فيه النسيم بالأغصان على

مقربة منهما ، فاضطجعت وتأوهت كأنها أرادت أن تنسى كل ما قيل .

وهتفت به بصوت واهن :

ــ حدثنى عن حبك !

ــ قبل اليوم كان على قارعة الطريق وفى كل شارع و ..

فضحكت فى فتور قائلة :

ــ لقد ذكرتنى بعربة الرش .

ثم استطردت فى شبه تأنيب :

ــ أنا لا يعنينى من ماضيك شىء يا عزيزى ما دمنا متفقين ، على أننا مسافران فى الظلام يسليان الليل . وعندما تصل إلى محطتك لا بد أنك ستنسانى ، ومن العدل أن أعاملك بالمثل .

ونظرت إلى النجوم ، وهى تتنفس ، ثم قالت :

ــ أنا أسألك عن حبك لى .. ألم تقل لى ساعة التقينا : « إنك لم تغيبى عنى » ؟ !

وكان جليا أن حزمها قد خف بفعل الشراب فبدت نفسها الحقيقية من خلال ما ستقول ، كمن تتعرى أمام نفسها فى الحمام .

وجعلت السيدة تتحدث كالطفلة التى تذكر مخاوف ليلة نامتها وحدها بعد أن انطفأ عليها المصباح :

ــ هل قرأت يا صديقى الصغير شيئا عن حوادث الزلازل ، إننى لم أقرأ عنها ، ولكن زوجى حدثنى عن إحداها بعد عودته من اليابان . لقد قال لى : إن الرجال والنساء كانوا يصابون بجنون الغريزة بعد أن تكف الأرض عن الاهتزاز .. آه .. إنه شىء رهيب .

وأخذت تشير بيديها ، وتعبر بصوتها وملامحها كأنها ممثلة على مسرح ، فانحسر كم الروب .. عن ذراعها البيضاء .

ـــ تصور يا صديقى رجالا ونساء يلتقون فى الخرائب ، وربما على جوع .. نعم .. نعم .. ولعلك قرأت قصة الشريد الذى ألجأه البرد إلى أن ينام تحت قارب على النهر ، وبعد قليل أحس بجسم يستلقى إلى جواره وكان لفتاة شريدة ، فلما التصق كل منهما بالآخر ليدفئه وقع ما تفهمه .. آه يا صديقى .. لعل لحظات اليأس هى التى تجعل بعض الناس محبوسين فى غرائزهم ..

ـــ هل تشعرين ببرودة الليل ؟ .. لعلنا الآن أحوج اثنين إلى زورق مقلوب نلجأ إليه ! ...

فمدت إليه كفا مسترخية ، وهى متهالكة على مقعدها ، فأخذها برفق وقلبها ، ثم جذبها فقامت وظلت ممسكة به ، وهى تسير نحو الداخل ، ولم يذكر شيئا مما مر به إلا البيانو الأسود ، والتمثال المشهور المصنوع من البرونز لقاذف القرص ، حتى استقبله المخدع الواسع بألوان وشهوات .

ثم قالت وهى تودعه عند الباب :

ـــ لا تنس أنك ، منذ اليوم قرينى فى يأسى ، وأننى أشعر بغريزة حب القتال عندما أراك .

فضحك . فقالت جادة :

ـــ الكلب مربوط والرجل نائم . فامش بلا تردد ، وستجد الباب الخارجى غير موصد بمفتاح .

ـ ٢٣ ـ

فى أواخر شهر ديسمبر من هذا العام شهد بيت الأسرة بالجيزة آخر ليلة نامتها سوسن فى حجرة أبيها .

وشاركها الأب فى إعداد حقائبها ، واستجاب إلى رغبتها عصر اليوم حيث ركبا إلى مكان عزيز .. إلى قبر الأم ، فوقفا هناك فى خشوع ، وسقى عزت أصص الصبار ، وانخرطت سوسن تبكى . وفى الطريق طالبت أباها بما سبق أن وعد به .. بأن يعطيها مذكرات أمها . فابتسم وعيناه تعتذران قائلا لها : إنه كان وعدا ينطوى على غرض من أجل سلوك ابنته .. وأنه ليس لأمها مذكرات ، فقد كان أبوها يدفعها دفعا إلى أن تتصل به عن طريق ما تكتب حتى تتاح له فرصة مشاركتها مشاكلها .

ولما جن الليل ، وأويا إلى المخدع جعل الأب يجهد ذهنه ليتصور البيت فى الليالى التالية ، وطال به الصمت ، وشعرت سوسن أن هذا ليس من عادة أبيها ، فقد كانت أنفاسه تدل على أنه مستيقظ ، وأحست بثقل ذنب لم ترتكبه ، كما نشعر بالخجل لمن يغنى بصوت قبيح ، ونحن فى صفوف الجمهور . واستطرد خيالها يجسم لها ما ستكون عليه فى الليالى التالية ، فى الوقت الذى يكون أبوها فيه يتغذى بالوحشة والذكريات ، سيلبس فى الصباح وحده ، ويدخل وجده ، ولا يكون فى انتظاره إلا سعال الخادمة أمينة ، وتجهم أخيها . فسالت دمعة حتى وقعت على الوسادة فى اللحظة التى جاءها فيها صوت أبيها يقول فى مرح مصطنع :

ـــ سوسن .. فيما تظنيني مفكرا ؟

فأجابت ببساطة واقتضاب ويقين ، وبلهجة يلونها الأسف :

ـــ فى يا بابا !

وأحس في صوتها بأثر الدموع ، فتنحنح كأنه يقول لها : أعرف أنك تبكين . وقبل أن يقول شيئا آخر استطردت :

ـــ ليتك كنت قاسيا علي يا بابا .. ليتك تزوجت بعد أمي ، فأنا أشعر كأنني أخذت منك طوق النجاة لأصل به إلى البر ، وتركتك (ثم عادت تبكي) .

وعندئذ قام ، فأشعل المصباح وجلس في فراشه ففعلت مثله ، وكان يتكلم كالجريح الذي يكتم ألما ، وعلى فمه ابتسامة فقال :

ـــ ينبغي أن يتحول كل هذا الحنان إلى بيت آخر .. أنت شجرة ستنتقل من منبتها فليس لنا أن نطالب بظلها .. لأنه من الطبيعي أن يقع على الأرض التي تحتها فقط . على أنني نسيت شيئا ، وتركها ونهض من فراشه ، وفتح صوان الملابس . فأخرج شيئا قدمه لها كتذكار يرمز إلى الوفاء الأبدي في حياة الزوجين ، وأعاد فتح الحقائب ووضع فيه هذا التذكار على مرأى من عينيها ، ولم يكن سوى أحد ثياب أمها : وقال لها :

ـــ إنه واسع عليك لكن عندما تصيرين أما فستجدينه مناسبا تماما .

قالت الفتاة بعد أن اتخذ أبوها مكانه :

ـــ ألم يكن يكفي عقدها النفيس ؟

فضحك الأب من قلبه ، ونظر إليها قائلا وقد شهر سبابته بالتحذير :

ـــ أظنه لن ينقطع مرة أخرى .. حافظي على لآلئه كما تحافظين على فضائلك يا سوسن .. وأرجو لك السعادة .

وقام ليقبلها والدمع في عينيه ، وكانت ناظرة في حجرها ، وعيناها باكيتان وتقول في نفسها :

ـــ يا لك من أب يسهر على حتى وأنا نائمة !

وأطفىء المصباح وظل الاثنان منصتين إلى زفيف الريح حتى غلبهما النوم !

* * *

وكان الشتاء قاسيا هذا العام ، كأنه وافد على مصر ، فلم يتح للأب أن يقضى أوقاتا كثيرة من الليل خارج المنزل ، ولذلك ألفى نفسه حبيس الظروف .

ولأول مرة فى حياته شعر شعورا واضحا بأن المسكن واسع جدا ، وأن الأثاث أكثر من اللزوم ، وأنه لم يسمع صوت وحش قط فى حديقة الحيوان القريبة إلا بعد رحيل سوسن ، وأصبحت نظراته عميقة ، كأنها مجهر يرى به بصمات أصابع الذين غابوا عن البيت ، مطبوعة على الجدران وقطع الأثاث ، وشعر بذل ـــ أو بما يمكن أن يسمي ذلا ـــ حين أخذ يتودد ابنه النفور ، ليتخذه صديقا ، ولم تكن طمأنينة الأنس تظلل نفسه وهو يحدثه لأكثر من خمس دقائق ، يبتسم بعدها الأب حين يكتشف أن النجوى بينهما فى قصر عمر النجوى بين الموسيقى وتاجر الحبوب مثلا ..

أما شكرى فقد كان لا يشعر بأكثر من وجوده هو .. مجرد الوجود .. كإحساس الناهض من الحمى أو المفيق من الإغماء ، وأن إدراكه للمعلومات أخذ فى التدهور ، يقضى أيامه سائرا ، وكأنه يراقب لون حذائه لا تتحول عنه عيناه ، والعلاقة بينه وبين ألفت هانم فى ريعان عمرها المدمر ، فمن ناحيتها .. وجدت شابا يحقق لها مآرب ، أهمها ملء الفراغ ، ومخادعة النفس بأنها لا تزال كما كانت مرغوبة منذ عشرين عاما ، ومنها أن الشاب استطاع أن يقنعها بما تدعى أنها مقتنعة به .. بأن رذائلها ما دامت لا تؤذى أحدا سواهما فإنها مباحة .

على أنه لا يوجد فى نظره من يمكن أن يحاسب الناس على أعمالهم ، إلا إذا وجد من يحاسب الرياح والبراكين والفيضانات والسيول والأوبئة على فتكها بالناس ، وتقويضها للعمران ..

ومن ناحيته . فقد استكان لنعيمها ، ولو عدها بأن ترفعه إلى طبقة

أعلى ، فزوجها صديق لأمير معروف ، وهي أيضا من سيدات المجتمع ، كما خلقت مغنين شهيرين ورياضيين معروفين فإنها ستخلق منه شيئا .. هاما .

لكن كان في قرارة نفسها ونفس صاحبها شيء حي .. شيء يتحرك داخل القوقعة الصلدة .. أشبه بالجنين الذى تكتمه المخدوعة ، متخيلة أنه لن يخرج إلى الدنيا أبدا ما دامت هي لا تريد ، فقد كان هذا اللون من العقيدة تبريرا غير منطقي للون من الحياة لا يتسق معه نظام ما ، نشأ عندها من الفراغ والغنى والخوف من غروب الجمال ، ونشأ عنده من أنه نجح في شيء واحد لم يتحمل غيره ، وهو الدراسة ، فضلا على طيش الشباب ، فلو أنل حمل مثل مسئولية (كامل) صديقه لتغير الموقف ، فالذين يحملون المسئولية لا بد أن يؤمنوا بشيء آخر أكبر من مسئوليتهم وحواسهم ، ليكون مصدر القوة الذى يمد نفوسهم .

ففى داخل القوقعة الصلدة كان هناك جنين من القلق يتحرك بالنسبة للعشيقين ، وهذا القلق ينذر بأنهما سيكفران بموقفهما يوما ما ، وعندئذ تصبح حياة كل منهما كمربع بلا أضلاع . فتصور مربعا بلا أضلاع .

وكم سأل شكرى نفسه ، وكم ساءلت ألفت نفسها :

ــ هل إذا فقد أحدهما الآخر سيعز عليه ؟ !

وأجاب كل منهما عن السؤال بجواب واحد : هو أن درجة تشبع المادة لا مجال لمناقشتها ، فلا أسف على ذلك ناسيين أن المادة نفسها إذا صيغت على هيئة جميلة زادت قيمتها ، وألقت إلى النفس ايحاءات لا توصف ، وهو نفس الفرق بين سبيكة الذهب والعقد والسوار .

وسئم الأب السهر في النادى ، ولزم بيته أسبوعاً كاملا هذا الشتاء لإحدى نوبات البرد التى أصابت كثيرا من الناس ، وكان في فراشه حين

دخل عليه ابنه ذات ليلة متأخرا في لحظة كان الأب يحسب سنوات عمره بمناسبة دخول شهر فبراير ، فألفاه يدلف نحو الخامسة والخمسين .

وبحكم الحرص على الحياة ، متمثلا في خوفنا على الذرية حملق في وجه ابنه فشعر على حين غرة كأن خنجرا حلزوني النصل أغمد في قلبه ، فقد كانت عضلات كتف شكرى وصدره ــ على قلتها ــ قد تآكلت ، وبدا ضعف العينين وراء النظارة ، ولم يكن فيه من أمارات الشباب سوى الطيش والشعر الحالك ، فقال الأب في شبه أنين :

ــ شكرى .. إننى لا أراك بخير !

فابتسم يؤكد خلاف ما قال أبوه ، سائلا وهو يفحص نفسه :

ــ لماذا ؟ .. إننى لا أرى شيئا في قد تغير .

فلعق الأب شفته السفلى ، واستطرد :

ــ ألم تقف مرة على الميزان لتعرف الحقيقة ؟

فأجاب متعمدا تحويل الحديث عن مجراه الجاد :

ــ على كل حال ليس الفيل ملك الغابة يا بابا ..

ــ لكنهم قالوا : كلب سليم خير من أسد مريض !

فحملق في أبيه يكتم غيظه ، ثم سأل بلهجة أعلى من مستواه :

ــ أما كان جائزا أن أتعلم في مدينة ما وأنت في الريف ؟ ثم أليس جائزا مرة أخرى أن أعيش بعيدا عنك بعد تخرجى في الجامعة .. فكيف إذن يتاح لى أن أتلقى النصيحة كل مساء ؟ !

وجاءت أمينة الخادمة تسعل ، وهى تحمل كوبا من عصير الليمون قدمته للأب ، وخرجت وتراءت الدنيا لعينى الأب في هذه اللحظة كأنها مهددة بالفناء ، وأنه في يديه انقاذها ، عندما رأى خادمة محطمة وشابا نصف هرم ، ثم ها هو ذا ملازم الفراش فاعتراه شيء من الغضب حيال

ابنه . فإذا به يقول :
ــ أنا قد نجحت فى مصادقة كل الناس .. من حولى .. وحتى ابنتى كانت صديقتى .. لكننى فشلت فى هذه المهمة معك يا شكرى .
فأجاب ، وهو مطرق ينظر فى كفيه :
ــ أنا لا أرى من الضرورى أن يقدس الصديقان شيئا واحدا .. وممكن جدا أن تقوم الصداقة بين الناس مع عدم وجود هذا الأساس .
فغمغم الأب ، ثم قال وعلى فمه الذابل ابتسامة مهزومة :
ــ أوه .. حتى ولو كان هذا صحيحا ، فقد رأيتك لا تقدس شيئا . آه .. وربما .. ربما حتى العلاقات بين أفراد الأسرة .
فانتفض الابن غاضبا ، وخرج من الحجرة ، فقد كان ضيق الصدر شأن من تقهره حجة خصمه أو نكتته ، فيتوارى من الغضب ، وساد البيت سكون تأمله الأب مهموما ، حتى خيل إليه أنه سيرى باب حجرته بعد قليل وقد انفتح عن وجه زينب أو سوسن ، ثم عاد يسأل نفسه :
« وهل ابنه معذور ، لأنه لا يستطيع أن يفعل إلا هذا ؟ ! إنه بقية صفراء .. فضلة شهوات .. هدف لمرض قريب » .
وتنهد ، ثم استطرد يحدث نفسه :
ــ إن فضائلنا تصوننا روحا وجسما ، فلماذا لا يفلسف الموضوع هذا الفيلسوف على أنه « دواء » .
وصفق بكفيه ، فجاءت الخادمة فطلب منها أن تنادى شكرى ، فدخل عليه نحيلا فى بيجاما من الصوف ، وشعره منفوش ، والنظارة على عينيه ، وغضاريف أنفه عند الفتحتين تعتريها رجفة خفيفة .
وأشار الأب إلى ابنه فى حنان أن يجلس ، فأجاب فى خشونة :
ــ إننى مشغول .

ـــ عن أبيك ؟ !

ـــ .....

وأطرق صامتا ، فقال الأب محاولا تهدئة نفسه :

ـــ إذا كانت صداقتى لك بيعة كريهة فلن أعرضها عليك .. إجلس فقط .

فجلس وهو يتمتم :

ـــ أنا لست كلبا .

فسأل فى عجب :

ـــ ومن قال هذا ؟ !

فحملق ، وقد اتصل حاجباه وقال :

ـــ كلب سليم خير من أسد مريض . ألم تقل هذا ... كأنك تطلب منى أن أكون فى ضعة الكلاب !

فرد الأب فى هدوء يسكت العواصف :

ـــ ألا ترى أن هذا يمسنى شخصيا ؟ !

فلم يرد . وأخذ يفرك كفيه فى حالة عصبية والابن ضاغط رأسه بين كفيه والسكون مطبق على الشقة ، ثم سأل الأب :

ـــ ألا تجد شيئا يقال يا شكرى ؟ !

ـــ نعم عندى .

ـــ تفضل !

ـــ إن حريتى الشخصية أثمن شىء أملكه .

وسكت برهة . ثم أردف وهو مطرق كأنه يلتقط هذه الجمل من كتاب بين يديه :

ـــ .. والأبوة عندى بالنسبة للأبناء تاريخ مقدس و ..

ـــ وبالنسبة للآباء ! ؟

ـــ لا .. شيء آخر .. التزام !

ـــ لست فاهما !

ـــ هي عقد وقعه طرف واحد . كان الأب فيه مختارا والابن لا أرى له .

ـــ إذا نفيت التزامك بالنسبة لأبيك نفيت بالتزامك بالنسبة لكل الناس ، وبالتالي ... للأرض التى تعيش عليها .

ـــ ....

فقال الأب في وقار ، وضعف وهدوء :

ـــ هل رأيت كيف أن الفضائل تتكاثر بالتجاور ، كأنها تتوالد باتصالها ، وأن الرذائل تفعل نفس الشيء ؟

فقال الابن مستخذيا :

ـــ إننى أومن بحريتي .

فسأل الأب متحديا :

ـــ وبماذا أيضا ؟

ـــ ....

فجلس الأب ، ثم زحف فى الفراش حتى قرب من ابنه ، وربت على كتفه قائلا :

ـــ ستبحث في يوم ما يا بنى عن شيء تؤمن به ، وعندئذ تحس ما يحسه محسن بك زوج خالتك نحو تبنى اللقطاء . تحس بغربة ما حاولت أن تؤمن به ... بغربته عن نفسك . وستجد يومئذ أن الحياة شيء لا يطاق ... لا يطاق ... اذهب عنى !

ورقد ثانيا !

* * *

ـــ « إذا أردت أن تبتز من أحد شيئا فعليك أنْ تثير مخاوفه » .

هذا ما قالته ألفت هانم لشكرى بعد الحوادث التى مرت بينه وبين أبيه ، وكان فى بيتها والمخدع دافىء ، ثم تلوت بدلال ورفعت كتفها العارية حتى قاربت أذنها واستطردت :

ـــ وهذا هو نفس ما كنت أفعله مع أبوى وأنا فى سنك .

فألصق جبهته بصدرها ، ونظر فى حجرها وسأل :

ـــ وكيف إذن أثير مخاوف أبى ليترك لى الحبل على الغارب ؟

فأطرقت تهمس فى أذنه :

ـــ هل تطيعنى أيها الصغير ؟

ـــ نعم .

ـــ إذن ... اتفقنا !

ومضى على ذلك يومان ...

كان الأب والابن لا يلتقيان فيهما على المائدة ، ولا يتبادلان سوى التحية التى تحتمها الظروف ، وكان إعراض الأب فيه أشبه بإعراض الظامىء عن الماء ، الظامىء الذى يحرق العطش أحشاءه ، لكنه يتصابر حتى يرى الماء على الصورة التى يشتهيها . أما إعراض الابن فكان بلا عناء ، إعراض قلب مغلق ينظر إلى (الأبوة) على أنها تاريخ ، فنحن فى نظره بعد استغنائنا عن كفالة الأبوين كفراخ النخيل بعد أن تنفصل عنها .

وفى مساء اليوم الثالث كان الأب ساهرا فى الخارج ، ولم يعد إلا فى وقت متأخر من الليل ، وبعد أن دلف إلى الشقة أحس بشوق لا يهزم فى أن يرى ابنه ، لكنه غالب ذلك ، ودخل إلى حجرته ، ولم يشأ أن يوقظ الخادمة التى لم تشعر بعودته لفرط تعبها .

لكن الأب تراجع فى قراره ، وخرج من غرفته ووقف على باب حجرة

ابنه المظلمة مستسلما للتردد وملقيا ببصره إلى بندول ساعة الحائط وهو يتأرجح نحو اليمين والشمال ، ثم سأل نفسه :

ــ ماذا عسى أن أقول له عندما أراه ؟ !

فكأن الخصام يوجد فراغا بين النفوس أقرب إلى فراغ البعد الحقيقى .

ــ لكن قلبه ينتظر جوابا ، ففتح الباب وأضاء المصباح فإذا الفراش خال من ابنه شكرى .

وقف فى منتصف الحجرة ، ونظر فى ساعة معصمه التى كانت قد جاوزت الواحدة صباحا ، ثم ... نسى نفسبه فى مكانه ، ثم فطن وتحرك محاولا أن يطرد الوساوس ، التى راحت تحلق فوق رأسه كقافلة من الغربان .

وبعد أن استلقى فى فراشه لم يعد يذكر شيئا ، إلا أنه أهان ابنه ، وأنه لو تعرض لحادث فإنه سيقضى العمر نادما على ما فات ... إذا عاش . واستغفر الله ، وحاول أن يتخذ مظهر عدم المبالى ، فأطفأ النور ورجع بذهنه ــ لكى ينسى أساه ــ إلى طفولته السعيدة ... فتراءت له الدنيا هناك فى القرية ، وكأنها مولودة حديثا ... خضراء يانعة خالية من الهموم ، وهو يمشى فيها مع مشرق الشمس حافى القدمين على الطرق التى بللها الندى ... ونسيم الصبح عبق برائحة الحدائق ، والفلاحون يفرقعون بالسياط على ظهور الثيران ، وهم خلف المحاريث ، والبلح يتساقط رطبا ... وهو يغنى ... وأمه فى الدار تغلى له الحليب وتجلس بانتظاره ، والقنوات تخر بماء الفيضان .

وهناك عند خميلة البوص رأى عينين تبرقان فى لون الكهرمان ونفاذ الإبرة ... كانتا لثعبان يسعى خارجا نحوه فنكص متراجعا ، وهو يبحث عن حجر ، فإذا النور البنفسجى لفجر اليوم الجديد يتسلل من النافذة ،

فجلس فى فراشه كأنه قد أفاق من (بنج) لا من نوم ، فعاودته حوادث الليلة المنصرمة ، فجرى حافيا نحو الحجرة الأخرى وفتحها فى سكون حتى لا يزعج النائم فإذا الفراش خال من شكرى كما كان وقت المساء .

وصاح الأب فى الخادمة يسألها عنه كأنها تعلم الغيب ، فنهضت مذعورة تتعثر وهى تدق صدرها .

وأمضى الأب ضحى اليوم فى السؤال عنه فى الأماكن المعهودة ... كالمستشفيات وأقسام الشرطة ، فلما لم يجد أثرا له ذهب إلى الكلية فلم يعثر عليه ، فأسرع إلى حيث أدرك قطار الإسكندرية .

وكانت المدينة فى هذه الليلة كأنها خالية من الناس فاستقبلته بوجه عبوس ذكره بأنحس ساعات العمر ، وكان المطر يتساقط رذاذا ومصابيح الشوارع كأنها عيون رمداء ، ولما نزل عند باب محسن بك ، وقرع الجرس ، وفتح له الخادم قاده إلى حجرة النوم الدفيئة ، حيث كان محسن بك جالسا على كرسى مريح يقرأ صحيفة المساء ، وأمامه أدواته المعروفة : السبحة والمبسم وعلبة السجاير والكبريت ، وجاءت السيدة اعتدال من مكان ما بالبيت على صوت الترحيب ، فسلمت قائلة :

ـــ طبعا ... لك الآن فى الإسكندرية من تحن إليها حتى لو أمطرت ثلجا .

فابتسم الأب يخفي ما فى نفسه ، ثم جلس يتلفت فلم يشم رائحة ابنه فى المكان ، وعندئذ آثر ألا يتحدث بشيء عنه ، لأنه من الجائز أن يكون عند سوسن ... ومع أنه احتمال ضعيف بعد عدم وجوده عند محسن بك الطيب المعشر ، فإن الأب قد لزم الصمت .

ولم يسأله محسن بك عما إذا كان قد رأى ابنته ، بل أخذ يتكلم بطلاقة خيل إلى عزت معها أن الرجل أحب الحياة وأن كثيرا من الطمأنينة

المفقودة قد عادت إلى نفسه كزوج من الحمام اهتدى إلى طريق البرج بعد طول ضلال ، ونظر إليه من خلال أهدابه بعينين حاسدتين ، وتمنى أن يكون مثله ، وما لبث محسن بك أن هز ضيفه من كتفه قائلا له وهو يبتسم :

ـــ أصغ إلى قليلا فإن عندى لك خبرا سارا .

فارتجف قلب الأب ، ونظر إلى شفتيه لكن صاحب البيت قال وهو يبتسم :

ـــ من أجل خاطرك ... وحبك لهم وحرصك على سعادتهم حققت لهم يا عزت بك ما كانت تصبو إليه نفسك . أتسمعنى ؟ !

ـــ نعم . لكن من هم ؟ !

ـــ أرحت واسترحت ورفعت لورثتي راية السلام ، فلا داعي للحرائق ، ولا إتلاف المزروعات ، وأخذت من أرضى ما يكفينى فى حياتى ... كما سآخذ منها ما يكفينى بعد موتى .

وسكت محسن بك ، ووضع يده على قلبه ، وهو يتناول علبة السجاير ثم استطرد :

ـــ إننى أمرت بملازمة الفراش يا عزت ... إن البقية من العمر قليلة فلا داعي للمتاعب . أما البقية الباقية من بعد حاجتى فقد قسمتها عليهم بنسبة الميراث وسيزرعونها فى الموسم .

ثم تنهد مستطردا :

ـــ آه ... إن حياة الطمأنينة لا يعرفها إلا من عانى ما عانيت وأنت تعلم .

فقال عزت فى شرود :

ـــ خيرا عملت . لك الدنيا والآخرة ...

ـــ ومالك ترد هكذا بلا حماس ، لكن .. هذه هي طبيعة الأحلام إذا تحققت .

ـــ الحماس الكافي موجود الآن عند أقاربك في الريف .

فضحك الرجل في تخاذل ، وإن كانت الطمأنينة التي بدت عليه قد منحته إشراقا من النور ، وأجاب في دعابة :

ـــ لقد قرروا قرارا يعجبك .

ـــ خيرا ؟

ـــ أن يصنعوا لي تمثالا من أخصب قطعة في أرضي ، ويضعوه عند مدخل العزبة ، فقلت لهم ضاحكا ... فقط أكرموني يوم وفاتي بالبكاء علي .

ثم تجهم وجهه فجأة في اللحظة التي اغتصب فيها عزت ابتسامة ، ونظر إلى محسن بك معترضا ، فرد عليه الرجل بلهجة جادة تخالطها حكمة ومرارة :

ـــ هاه ... إن الموتى من أمثالي يعملون في حياتهم ما يستجدون به الدموع يوم وفاتهم .. لأنهم .. يعتقدون أن ليس هناك من يشيعهم بدمعة صادقة ما داموا ... لم ينجبوا ؟

وسكت ثم سأل :

ـــ ما بالك قلقا هكذا ؟ ليست هذه عادتك يا عزت ، هل تحس تعبا ؟

ـــ لا ... إنني لم أر سوسن .

فهتف محسن بك معجبا :

ـــ يا لك من رجل كريم ... لكن ... ألا تتناول العشاء عندي ؟

فصافحه وهو يقول له :

ـــ لا ... بل يجب أن أكون هناك !

واحتواه برد الليل مرة أخرى حيث ركب إلى منزل بنته ، ولما قرع الجرس كانت هى التي فتحت له ، وأخذتها المفاجأة فألقت بنفسها بين أحضان أبيها ، وقبلها فى جبينها ، وعادت تمرغ وجهها فى صدره ، فلم يملك دموعه وجلس على أقرب كرسى فى المدخل .

وجلست الفتاة وهى تحملق فيه ، ومن خلال دهشتها سألته :

ـــ ماذا بك يا بابا ؟ !

فأجاب بصوت مبحوح :

ـــ لا شىء يا حبيبتى ... أو حشتنى فقط ... أين . وحيد ؟

ـــ إنه فى الخارج .

فسأل فى عدم يقظة :

ـــ وحده ؟ !

ثم فطن :

ـــ ... أقصد لماذا لم تخرجى معه ؟

ـــ ليس ضروريا دائما .

ثم أردفت :

ـــ ألا تلاحظ يا بابا أنك لا تحمل معك حتى حقيبة سفر صغيرة ... ماذا إذن هناك ؟ !

فرد الأب وهو يشرق بدموعه :

ـــ إن شكرى ... قد هرب ... من البيت . خرج غاضبا منى .

فاستجمعت الفتاة كل أسباب المقاومة وردت مخففة عن أبيها :

ـــ بابا ... ماذا كنت تفعل إذن لو أننى أنا التى فعلت ذلك ؟

فعض الأب على شفته ثم قال :

ــ الفرق عندى غير كبير ، كنت أريد فقط أن أصونه حتى يبلغ رشده !

ــ بعض الناس لا يبلغون سن الرشد حتى آخر حياتهم ، فماذا تفعل بهم ؟ ثم ... إنك تذوب ذوبانا يا بابا ...

وقامت فجلست على كرسى قريب منه كان أعلى من كرسيه ، ووضعت ذراعها على عاتقه فبدت كأنها أم تحتضن صبيا ، وسألت فى رفق :

ــ هل كان بينكما خلاف على شىء ؟

ــ نعم ... نفس القصة القديمة وأنت تعرفينها .

ــ ما دام محتاجا إليك فلا بد أن يعود . أنا أعرفه ، لا تخف يا بابا فهذه طبيعته .

ــ أتقصدين أنه يعذبنى بالخوف عليه ؟ .. ذلك احتمال كبير .. لكننى أخشى أن يكون قد لحقه مكروه لا دخل له فيه .

فترقرقت دموعها ، فقالت وهى تغالبها :

ــ لا قدر الله .. إننى محتاجة إليك ، فإن كنت لا تزال تحبنى فأحب نفسك .

فعادت إلى الأب ذكرى الليالى التى كانا يتناجيان فيها ، وكاد يتضاءل أمام نفسه إذ أحس أنها ترشده ، لكنه ما لبث أن شعر بروح من الراحة يهب على صدره ، فقد كان إرشادها قلبيا أكثر من أى شىء ، وعلى الرغم من دخان الشقاء الذى أحاط بالوالد ، فإنه أحس بالسعادة تفوح فى بيت سوسن .

فابتسم ولو أن فى قلبه لهفة الأم ، التى تحاول أن تدرك قطارا سار بطفلها قبل أن تضع رجلها على السلم .

وسافر الأب فى صباح اليوم التالى على أن يبلغ بنته بتطور الحوادث . لتكون إلى جواره إذا اقتضى الأمر .

* * *

ومضى على هذه الحال أسبوع لا يوصف ...

كان الأب فيه قد أيقن أن ابنه على قيد الحياة ، ما دام العكس لم يثبت ، وحاول ــ بعد أن جاءت سوسن لتقيم معه أثناء هذه المحنة ــ أن يلبس قلبه ثوبا من النقمة عليه ، فكان يبتهل إلى الله فجأة ألا يعود ، ثم تسيل دموعه ، ويتأوه داعيا فى سره أن تقع عينه عليه ولو لحظة واحدة ثم لا يبقى له فى الدنيا طلب .

وكان شكرى أثناء هذا الأسبوع مقيما فى الريف مع ألفت هانم ، فى مزرعة لإحدى صديقاتها فى الوجه القبلى ، يتمتعان بدفء الشمس طول النهار ، ويدفئان فى الليل حجرتهما على الطريقة الريفية ، وينصتان فى فزع لذيذ إلى عواء الذئب عبر الحقول فى اللحظة التى قد يكونان فيها يقطعان الليل باللذائذ .

وبينما كان ذئب يعوى كانت ألفت هانم تسأل صديقها :

ــ هل شعرت بالملل ؟ إن خمولا يشبه السآمة يبدو عليك .

وكان شكرى فى هذه اللحظة وحده على فراش كبير ، يبعد عن فراشها بثلاثة أمتار فى حجرة من الطراز الريفى الواسع العالى السقف ، وكان نور المصباح الساهر يجاهد لاهثا فى فضاء الغرفة .

فرد الشاب قائلا :

ــ لا ... بل أشعر بالتعب .

فقامت حتى جلست على حافة سريره ، وتحسست شعره بأنامل عابثة ، ثم قالت من جديد :

ـــ أخشى ألا تكون قادرا على التفرقة بين الاثنين .. بين التعب والملل يا عزيزتى .

وضحكت فى عبث .

أما الشاب فقد كانت حقيقة نفسه أشبه بمسكن أخلى بالتدريج ، وكان آخر المطاف به أن خرج ساكنوه فأطفأوا النور ، وأغلقوا الباب !

بدأ يحس بخراب ذريع ، إذ كان فى حالة يمكن أن تسمى إحساسا ، أما فى الحالات السلبية التى تكون النفس فيها غير ذات لون فإنه كان أشبه بمسلوب الإرادة أو المنوم مغناطيسيا أو المخدر .

وناوشه شعور بالاشمئزاز ، حتى آلت اللذة الجسمية بالنسبة إليهما كل ليلة أشبه بالأغنية الوحيدة فى فم فلاح ، يرددها على الشادوف وهو يروى الأرض .

وفى الليلة الثامنة جاءهما عواء الذئب فى جوف الليل جائعا خاويا ، يدل على تفرد الوحوش وتربصها ، وكان شكرى على الفراش الثانى لا يزال ساهرا ، فشعر وكأنه سيصبح عما قليل فريسة لهذا الوحش ، وتخيل أنيابه ناشبة فيه فشعر بضيق كاد يزهق روحه .

وكان المصباح يرقص فى بطء يقرب نفاد الجاز ، وألفت هانم على حافة الفراش على جنبها الأيمن ، ووجهها إليه عليه بقع من النور والظلام بحكم توزيع الضوء .

ونظر إليها كارها ، وخيل إليه أن الريف كهف كبير ، خال من السكان ، وأن الليلة استعارت وحشة القرون الغابرة من كل ليلة مظلمة فاتت ، وأن شيئا شريرا قد نجح فصب فى قلبه هذه الوحشة .

وعاد يتنفس ببطء ، فى الوقت الذى سمع فيه خوار ثور تبعه نباح كلب ذكره بمسكن ألفت هانم فى المعادى ، لكنه ما لبث أن أحس كأن

الطرقة تحطم مفاصله ، وأن رباط فكه الأسفل قد انحل ، وأن يدا أمسكته وجعلت تحركه بعنف ذات اليمين وذات الشمال ، في ذبذبة أسرع من رقصة المصباح المحتضر .

فاستولى عليه الفزع ، فقام من فراشه حتى وقع على صديقته ، فاستيقظت من النوم لتسأل ماذا جرى ، فلما رأت حاله وأحست بحرارة جسمه هتفت وكأنها وقعت في مأزق :

ــ أوه ... إذن لقد صادتك الملاريا .

وألقت عليه أغطية ثقيلة ، وتركته يرتعش واستغرقت في النوم ، وفي الصباح عاده طبيب ريفي وحقنه بالكينين ، وبات شكري منذ هذه الحادثة قليل الكلام ، ينظر إلى ألفت هائم في صمت من خدع عن أنفس ما يملك ، وهو غير قادر على الاحتجاج ، وكان بانتظار الساعة التي يستطيع أن يرتحل فيها . أما هي فقد كانت نظراتها توحي بأسف ... لكنه أسف المغبون في صفقة أيضا .

وبعد بضعة أيام أخرى ، بينما كانت هي تعد حقيبتها للسفر ، وشكري جالس على كرسي جنب الفراش يتصفح جريدة البارحة ، فوجئت السيدة بأن سمعت الشاب يشهق ... فارتجفت ونظرت مذعورة فإذا به يبكي ، وهو مخف وجهه بالجريدة .

وشعرت بضيق زوجة الأب التي ينغص عليها ابن ضرتها لذتها ، فمشت نحوه وقد امتلأت نظرتها الغجرية بقسوة النصل ، وأبعدت الجريدة عن وجهه وسألته في استخفاف :

ــ ماذا حدث ... إنني أكره الدموع وعلى الخصوص إذا ذرفها رجل .

فأجاب يكتم همه :



رسألته فى استخفاف : ماذا حـــدث .. اننى
اكره الدموع وعلى الخصوص اذا ذرفها رجل

ـــ لا شيء ... لا شيء ... آه ...

ثم شهق وسكت ، فعادت إلى ما كانت تعمله وهى تتمتم :

ـــ غدا سنسافر فلا تحزن . ماذا كنت تريد أن نصنع إذن ؟ !

أما هو فقد عادت عيناه لتعلق بالسطر الذى أبكاه ، فقد كان هناك فى نهر الاجتماعيات كلام يقول :

« شكرى . إن قسوة أبيك لم تكن إلا من أجلك فعد إليه قبل أن يموت . أختك سوسن » .

وعندما ركب الشاب والسيدة القطار المسافر إلى القاهرة ، ظهر اليوم التالى ، كان الصمت المخيم عليهما أشبه بالذى يخيم على رجل وامرأة فى طريقهما لتوقيع وثيقة طلاق .

وكان الشاب ينهض متهالكا من حين إلى حين ، ليلقى على وجهه نظرة فى مرآة المقصورة ويسأل فى هلع :

ـــ أهذا أنا ؟ ! ... إن أبى لن يعرفنى ... ترى من منا سيموت ؟ !

ثم يتهالك على المقعد .

ـــ ٣٤ ـــ

ـــ آه يا بني ... لقد عفوت عنك ... لقد عفوت عنك

ثم حملق الأب فى ابنه ، وعاد يقول :

ـــ لكن ... قل لى : ماذا أصابك ؟

فأجاب الابن بانكسار بعد أن بلل شفتيه بطرف لسانه :

ـــ ضمد جروحى أولا ثم عاقبنى ... أنا كالأسير يا بابا ! ..

احتضنته سوسن ، ولونها فى شحوب الجير ، ووقفت أمينة على مقربة من الواقعة تنظر كالمذهولة . أما الأب فقد استدعى طبيبا . ووقف إلى

جوار الطبيب وهو يسأل ابنه عما يحس به فأجاب مسبلا طرفه :

ـــ أصبت بالملاريا وأنا في الريف عند صديق ، (وخطف نظرة إلى والده المطرق ثم قال) وأحس بألم في صدرى وأسفل وأنت ترى الباقي ...

وسكت وكأنما فرغت طاقته على الكلام ، وأخذ الأب يتأمل جسم ابنه وقد كشفت عنه الملابس ، ويعد ضلوعه تحت جلده الأصفر ، وانطفاء الحياة باد عليه ، اللون الذى يعم حقول القمح قبيل الحصاد .

ولما خرج خلف الطبيب ليودعه قال له مهونا عليه :

ـــ إن الأمر محتاج إلى عناية ، وإن لم يكن خطيرا . ويبدو أن حمى الملاريا قد أثرت على صدره المستعد للمرض ، وأنا أفضل أن يستريح في مستشفى .

وفتح الأب فمه يريد أن يتكلم لكنه لم يستطع ، وعندئذ ابتسم له الطبيب وربت على كتفه كأنه يوقظه من الغفلة :

ـــ لا تنس أن الحالة المعنوية فيكم هي التى ستخدم قضيته ... فلا تتخاذل ؟

وبعدئذ دخل الأب على ابنه ، وعلى شفتيه تلك البسمة التى تعلو شفاه المقاتلين ، وجلس إلى جواره محاولا أن ينهى إليه الخبر رويدا رويدا ، لكن زيغ الخوف كان ظاهرا فى عينى الشاب .

ولم تمض بضعة أيام حتى كان في مصحة للصدر بالصحراء الشرقية .. في غرفة فيها اثنان غيره كلاهما فى سن الشباب .

وكان أول شيء عمله شكرى حين جلس على السرير أن انخرط يبكى ، فقام إليه شاب تبدو فى عينيه الطمأنينة ، وتظهر على وجهه معركة المرض ، وقال يخاطبه بصوت رفيع فيه بحة عذبة :

ــ بكينا قبلك ... ثم وجدنا أن الضحك أنفع من البكاء ... لا ... هون عليك يا صديقى ، وجند قواك فإنها هى التى ستهزم المرض .

وعندئذ فكر شكرى جيدا ... فكر فى عدد الكتائب التى يملكها فإذا بها خمس كتائب فقط ... بعدد الحواس ... ولا شيء وراءها ... وكلها مفلولة السلاح ، لا تستطيع أن تصمد في هذا النوع من المعارك ، المحتاج إلي ما هو أقوى من الحواس ، فأخذ يبكى من جديد .

وكان الأب جالسا في ذهول ، يجول بصره فى الخارج عبر النافذة ويرقب آثار أمطار البارحة على رمال الصحراء دون أن يتكلم ، لأنه كان يعلم أن قلب ابنه مثل الثمرة المنخوبة ... أكلت الآفات لبها الحلو ، ولم يبق إلا القشرة ذات الألوان ، لكنه ما لبث أن قال للشاب الذى كان يتحدث :

ــ إنك على حق ... وأرجو أن يستفيد ابنى من عشرتك يا بنى .

فمرر كفه البيضاء الصغيرة على شعره الناعم الأسود المدهون وقال للأب :

ــ لا تحمل همه ... فنحن هنا نستعين بكل ما يمكن للتغلب على مرضنا . وخصوصا على السوداوية التى يلقيها على نفوسنا .

وأشار إلى زميله الآخر قائلا :

ــ فنحن نقرأ كتبا من كل نوع وكلنا طلبة ... ثم نظر إلى (الكمودينو) وعاد يقول :

ــ وإذا ما مللنا ما يكتبه الناس أمسكت أنا بالمصحف ، وأمسك صديقى بالانجيل وأخذنا نقرأ ... وبهذا قطعنا شوطا كبيرا فى التغلب على الخوف .

ثم أكب فى حنان يكاد يكون حنان امرأة على المريض الجديد ،

وربت كتفه قائلا له :

ـ لا تخف ... لا تخف يا عزيزى . مم أنت خائف ؟ !

* * *

وفى مساء اليوم نفسه عندما كان صمت الصحراء مطبقا على المبنى ، وهواء الشتاء يصفر خلف المصاريع ، كان الأب يتوسل إلى سوسن أن تعود إلى الإسكندرية ، لأن وحم الحمل ما كان يدع طعاما فى بطنها فضلا على أن إحساسها المرهف قد زادها ضعفا على ضعف وأن جو بيت أبيها لم يعد صالحا لأن تعيش فيه .. ثم هناك رجل ينتظرها ، وذكرها بما سبق أن قاله : « إنه ليس من حق الأرض التى نقلت منها الشجرة أن تطالب ببقاء الظل . فطبيعى أن تلقى ظلها حيث نقلت ! » .

وعض شفته وحبس دمعه . وتأملت سوسن أباها الهادىء المرح فألفته قد شاخ .. كبر .. فهزت رأسها ، وقالت فى نفسها :

ـ ليس انتصارنا فى الحياة مقصورا على جيل واحد .. وإلا لما حزن أبى الناجح على ما أصاب ابنه ؟ ! ..

لكنها امتثلت لأمر أبيها ، وقررت أن تسافر ، وكان بندول الساعة الكبيرة فى بهو الشقة يتأرجح ، ومرت ثوان فدقت معلنة منتصف الليل ، عندئذ تأوه الأب وقال فى نفسه : ترى كيف تبيت ليلتك يا بنى ؟ !

وكان المريض فى هذا الوقت يستعرض قصة حياة قصيرة .. معظمها ـ على قصرها ـ مطموس كسطر كتب ، وسقطت عليه الدموع ، وبدا صديقه (كامل) فى وسطها ظاهرا عملاقا . وإلى جانبه المومس النحيلة القصيرة فتخيلها مرة ، وقد تزوجت ، وأنها لا تحس أن ماضيها قادر على أن يفسد عليها الحياة الجديدة ، لأنها كانت ضالة فلما وجدت بيتا قد فتح بابه أوت إليه واستكنت ..

ثم عاد فتخيلها مثله .. على فراش المرض ، فى حجرتها فى بيتها .. تلك التى لقيها فيها ذات ليلة ، ولكنه لم يستطع أن يتصور عينيها قلقتين ، بل تخيلهما مسبلتين في استسلام ، تلقيان بين الفترة والفترة نظرة منداة بالدموع على الآية القرآنية المعلقة على الجدار بين صور الأحباب .

وتذكر اللقاء الأخير بينه وبين صديقه كامل ، يوم وقع قبيل معرفته لألفت هانم . حين مر على اللوكاندة التى تعود أن ينزل فيها ، فوجده هناك إنسانا غير الذى عرفه ، ملأت المسئولية عليه فراغا حاول فيما مضى أن يملأه بالعبث ، ومن خلال هذا انبثق تقديسه لمعان كان يعيش من أجلها ، وإن كان طريد الثأر .. كان فيها أخواته وأرضه وذكرى أبيه . ثم معان أكبر من كل هذا هى فى الحقيقة مصدر قوته الأولى ، وهكذا وجد صديقه . ويومئذ ضحك شكرى كثيرا منه قائلا له : إن هذا تملق لقوة مجهولة .. وهذيان من حمى يسببها الخوف .

وعلى الرغم من أن صديقه أكد له عكس ذلك . فقد افترقا وهو يضحك منه ...

ومر الشريط ..

حتى رأى المريض وهو فى فراشه صورة ليلة قضاها مع ألفت هانم قال عنها وهو يتنهد :

ـــ كانت أيام زمان .

« كان قميصها مبللا بالعرق لاصقا فى ظهرها حين نهضت جالسة فى الفراش ، حتى بدت قناة ظهرها واضحة ، كأنها عريانة ، ونظرت إليه من فوق كتفها تسأله : هل تشم رائحة احتراق ؟ » .

فأومأ برأسه :

ـــ نعم .

فعادت تسأله :

ـــ رائحة ماذا يا شاطر !

فأجاب وعلى وجهه سيما التفكير :

ـــ رائحة أرواحنا !

فدارت في جلستها حتى واجهته ، وقد مدت ساقيها على الفراش ، وسألته :

ـــ وهل تؤمن بهذا الشيء ؟ !

فأجاب ببساطة وشرود :

ـــ لو كنت أومن به لما قلت إنه احتراق .

واضطربت الأفكار في رأسه ، وما لبث أن نهض جالسا فى فراشه ، وهو يصرخ ممسكا بإحدى ساقيه فخف إليه زميلاه يسألانه عما حدث ، لكنه تلفت في ذعر واستلقى فى الفراش .

وعاد الشريط يمر من جديد ..

ففي تلك الليلة نفسها كانت زوجة البواب فى مسكن ألفت هانم تعانى المخاض فشغل بها زوجها ، ونسى شيئا هاما ، وبينما كان شكرى يتقل خطاه الثملة في ممشي الحديقة شعر فجأة كأن نابين حادتين أمسكتا بساقه فصرخ فخرج الرجل يسعى ، وقد أرعشه الخوف ، لأنه تذكر أن أنين زوجته أنساه أن يربط الكلب . وبعد أن عاد شكرى إلى المنزل لم يعجز أن يلفق كذبة لأبيه فقد ادعى أن أحد الكلاب الضالة قد أمسك برجله في الظلام ، فقال أبوه يسخر منه :

ـــ مالك لا تعثر إلا بهم .. يا بنى .. مالك لا تعثر إلا بهم .

ثم تصور ألفت هانم بعد ذلك مريضة تعانى نفس ما يعانى ، تسترجع الليالى النزوات وعدد الأشخاص الذين عرفتهم ، فتصورها تنظر إلى

محاسنها على أنها شمس لا يجب أن تغرب ، وأنها شربت كل ما يمكن أن يشرب ، وهى مع ذلك جافة الريق .. تتحامل على نفسها ، فتذهب إلى البيانو فتعزف عليه بأصابع مرتجفة ، ثم تنكب على غطائه وتبكى ، وتأخذ زينتها باهرة وتركب وتأمر السائق أن يدور بعربتها هكذا فى كل مكان فيفعل .. وتقطع مئات الكيلو مترات وهى مضطجعة فى المقعد الخلفى ، حتى إذا مل السائق ونادى سيدته يستصدر أمرا جديدا ألفاها تبتسم له ابتسامة غريبة وتقول :

ــ اسمع يا أسطى .

ــ نعم يا ست هانم .

ــ هل تؤمن بالله ؟

فحملق فيها النوبى بعينين بياضهما مشرب بالحمرة قائلا :

ــ نعم .

فتقول بتهالك :

ــ لا تغضب لا تغضب . وهل هو غفور رحيم ؟

ــ نعم . نعم .

ــ وافرض أنك ارتكبت أعظم الذنوب فهل تظل واثقا من رحمته ؟

فقال بانفعال :

ــ نعم نعم ألف مرة .

فتنهدت قائلة :

ــ ليتك تعطينى هذا ، وتأخذ كل ما أملك ، لأننى فى أشد الحاجة إليه .

وتوقفت أفكار شكرى . ثم تلقفه نوم هادىء .

وعندما أشرقت شمس اليوم التالى بدأ المريض يشعر بأنه حبيس الزمن ،

فالدقائق تمشي بخطا ثقيلة ، لا تريد أن تتحرك ، وصدره مليء بقلق كأنه بانتظار قطار لا يصل بتاتا ، واندلعت مخاوفه ، فلم يعد في عقله الباطن ولا ذكرياته شيء محزن ولا مرعب إلا وحضر بين يديه . وبدأ يشعر بما سبق أن باح به : بأنه يعبر قنطرة لا يرى عند نهايتها أرضا .. ولكن جسمت له المخاوف أن هناك في الظلام عند النهاية أشياء مريعة يحسها ولا يراها ، ويعرفها ولا يصفها . فغطى عينيه بكفيه وتمتم : « لا أريد أن أموت .. لا أريد أن أموت » .

ولما دخل عليه الأب في اليوم التالي رآه ، وكأنما مضى عليه في مرضه عدة أشهر ، فقد عذبه أحساسه بأنه سيعود إلى لا شيء ، إلى الحالة الأولى التي كان فيها قبل أن يولد ، وكأنما أكسبته الحياة ثورة على أن يعود إلى ضياعه الأولي ، فلم يعجبه هذا المصير ، بل أفزعه ، ولما حاول أن يقنع بفكرة سواها كان الأوان قد فات ، وكانت عيناه زائغتين كأنهما تفتشان عن نهاية خط رسم على الجدار المقابل ، وتلاشى لونه بالتدريج ، وعندما كانت عيناه تصلان إلى النقطة التي يغيب عندها الخط تعودان فتبحثان من جديد .. دواليك ..

فأحس الأب أن ابنه يتعذب ، فقال في نفسه : ليتني أستطيع أن أهبك شيئا من طمأنينة الروح يا بني لتسترد حياتك أو تموت في سلام !

ومد يده فأمسك كفه ، فتشبث بها شكرى كأنها ستنجيه من الغرق ، فخفق قلب الأب ، ومال عليه يقبل جبينه ، لكن الابن أخذ يتوسل إليه بصوت موجع ألا يدعه ها هنا ..

ــ لا أريد أن أبقى هنا يا أبي .. إني أحس كأني قضيت هنا عشرة أعوام .خذني معك . فأنا لا أريد .. أن أموت ..

وعض الأب على شفته ، محاولا أن يقول شيئا ، لكن الكلام توقف في

حلقه على حين استطرد الابن :

ـــ أريد أن تعاونني يا أبي .. ابتهل بالنيابة عني لأنني لا أستطيع .

وأشار إلى صدره : إنني لا أجد هنا شيئا ، إنني لا أجد هنا شيئا .

فعادت إلى الأب ذكرى قريبة ، ذكرى ليلة قال فيها لابنه :

« ستبحث في يوم ما يا بني عن شيء تؤمن به ، وعندئذ تحس ما يحسه محسن بك زوج خالتك نحو تبني الأولاد .. بغربته عن نفسه » .

واستطرد الأب في أفكاره :

ـــ وكان من الممكن أن يسعد في حياته بهذه الذخيرة .. ولكنه اليوم .. فتح المخزن .. فإذا به أرض فضاء لا شيء فيها .. والمعركة قائمة على قدم وساق .

ثم مصمص الأب بشفتيه وسأل نفسه :

ـــ لقد زعم شكري أنه يحب نفسه طوال عمره ، فهل كان يحبها حقا ؟ ! إن الحب البصير صيانة لا تدمير : آه .. يا بني .. ها أنت قد فقدت حتى النوم . فماذا أنت صانع ؟

وجاءه صوت شكري يدل على جفاف الريق قائلا في توسل ، وعيناه تبحثان عن نهاية الخط الوهمي الذي يفتش عنه على الحائط ..

ـــ بابا .. خذني معك .

فأكب عليه يقبلة ثانية ؛ ويهمس له :

ـــ هل ترى أن البيت وأمينة العجوز أقدر على القيام بمطالبك من هذا المكان ؟

ـــ كل ما أدريه هو أنني لا أريد أن أموت ... خذني معك يا أبي .

ثم طوق عنقه كما يفعل الرضيع .

وعندئذ تدخل الشاب الرقيق ذو اليد البيضاء ، والشعر الفاحم ، قائلا بصوته العذب الرفيع ذى البحة :

ـــ ماذا صنع إذن أولئك الذين وضعوا حبال المشانق فى رقابهم بأيديهم يا حبيبى .. لا تجعل الخوف يسيطر عليك فهذا هو دواؤك .

فأجاب المريض في نفسه :

ـــ من أجل شيء آمن به وضع حبل المشنقة بيده وهو مطمئن، أما أنا فمثل الريشة التى طارت فى جو مخلخل ، ثم هوت إلى قرار سحيق . بم أومن إلا بحواسي وحدها . بالأشياء التى أفقدها الآن .

وأغمض أجفانه . مع عواء الذئب فى ليل الريف ، وخيل إليه أن ألفت هانم تشتعل فى ثيابها النار على باب الغرفة ، وأن أطرافه مكبلة بشيء ثقيل لا يستطيع معه النهوض .

ثم أفاق فوجد أباه لا يزال إلى جواره ، والزميلين قد غادرا الغرفة ، وكانت صفرة اليرقان قد ظهرت فى عينيه ، وتضافرت عليه المصاعب .

ودخل الطبيب فحقنه بالمورفين ، ونظر إلى الأب نظرة ذات مغزى ، ثم ولاه ظهره وخرج ، ولكن الأب خرج وراءه يتعثر ، وسأله وهو يبحث عن كلماته :

ـــ ماذا هناك يا دكتور ؟ .. ماذا هناك ؟ !

وكان الممر طويلا ممدودا منخفض السقف ، وبعض النوافذ مفتوحة على الصحراء ، واليوم دفيء ، والشمس تتعثر خلف سحاب داكن ، ووقف الطبيب يقص على الأب قصة ليلة البارحة بالنسبة لابنه فقال :

ـــ إنه كان يترك فراشه كلما أفاق ، يخرج من الغرفة كمن يمشى وهو نائم .. وإذا حاولوا أن يعيدوه إلى مكانه كان يقول لهم باكيا : لا .. دعونى . لا أريد أن أموت .. لكنه مرة أخرى .. حاول أن يثب من النافذة

لأنه خائف من الموت ! تصور !

وضم شفتيه فى مرارة ، ثم سكت ونظر إلى الأرض وقال للأب قبل أن ينصرف :

ــ ابق بجواره ! ابق بجواره ..

فاستند الأب إلى الجدار تجاه إحدى النوافذ وبصره عالق بالسحاب المكدس .

* * *

وعندما كانت شمس يوم من أيام (مارس) ترتفع على الأفق كان الأب راجعا من خارج المدينة ، وفى رأسه أفكار وفى قلبه شوق .

أما الأفكار فقد كانت متعلقة بحياة الوحدة التى بدأ يعانيها بعد موت زينب ، وزواج سوسن وموت شكرى ، فقال فى نفسه :

ــ إن أتعس أفراد الأسرة حظا هو أطولهم عمرا .. لا شك . لكن ماذا عسى أن أعمل ؟ !

وعاودته ذكرى فاطمة وهدان ، ونساء أخريات ، بعضهن يصلحن لزواجه ، لكنه ألقى نظرة على حياته فوجد أنه قد عاشها بشكل ما .. بالشكل المقدور عليه .

ولما رأى إحدى فراشات الربيع فى الهواء ، لم يدر لماذا ذكر السلحفاة المحبوسة فى درقتها ، والتى كانت سوسن تلهو بها وهى صغيرة فتنهد ، وهو ينقل خطاه فى طريقه إلى الترام ليعود إلى المدينة قائلا فى نفسه : « إنها تعاش بشكل ما .. إنها تعاش بشكل ما .. لكن هل أنا قادر على استئنافها الآن بطريقة أكثر اعتدالا ؟ » .

وخطر على باله أمينة العجوز ، والبيت الواسع ، وسوسن البعيدة ،

ومحسن بك الملازم لفراشه ، وزوجته التى تجلس طول النهار بانتظار ما يأمر به . وجاءه هاتف لا يدرى من أين :

« إنها عما قريب ستمسى أرملة . فهل تتزوجها ؟ ! » .

لكنه نفض عنه الأفكار . وتذكر صبيا يتيما فقيرا لأحد أقاربه فى القرية فقال فى نفسه : لماذا لا أربيه فيؤنس وحدتى ؟ ! إن الحب ينبت فى كل أرض حتى ولو كانت رديئة .

أما الشوق الذى كان فى قلبه نحو ابنه فقد تغلب عليه بثقة منحته بردا وسلاما .. ثقته من أنه سيلقاه يوما ما ..

وقد همهم بهذه العبارة ساعة كان هناك ، والشمس ترتفع على الأفق ، ورائحة الربيع تملأ الدنيا على كل حال ، والصمت يملأ الأرض كأن هناك عاصفة قد سكنت ، وكان ساعتئذ يسقى أصيصا من الصبار ، وآخر من الريحان ، عند المكان الذى نزل إليه اثنان من أحبابه .

القاهرة فى يولية سنة ١٩٦٠ م

كتب للأستاذ

محمد عبد الحليم عبد الله

(١) لقيطه
(٢) بعد الغروب
(٣) شجرة اللبلاب
(٤) شمس الخريف
(٥) غصن الزيتون
(٦) من أجل ولدى
(٧) سكون العاصفة
(٨) الماضى لا يعود
(٩) الوان من السعادة
(١٠) اشياء للذكرى
(١١) النافذة الغربية

(١٢) الضفيرة السوداء
(١٣) حافة الجريمة
(١٤) الوشاح الابيض
(١٥) الجنة العذراء
(١٦) خيوط النور
(١٧) الباحث عن الحقيقة
(١٨) البيت الصامت
(١٩) اسطورة من كتاب الحب
(٢١) جولييت فوق سطح القمر
(٢٠) للزمن بقية
(٢٢) قصة لم تتم

رقم الإيداع ٢٤٢٤
الترقيم الدولى ٣ ــ ٠٢٠ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٧٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه